



مدينة في الرمال

(قصة اكتشاف حاضرة إشنونا السومرية)

مع رحلاتي في بلاد المشرق

للإثارة البريطانية

ماري تشب

ترجمة: وفاء الذهبي

تحرير وتعليق: د. أحمد إيبش

روّاد المشرق العربي

مدينة في الرّمال

(قصة اكتشاف حاضرة إشنونا السّومريّة)
مع رحلات في بلاد المشرق

للأثاريّة البريطانيّة

ماري تشبّ

ترجمة

وفاء الذّهبي

تحرير وتعليق

د. أحمد إيش



© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية.
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر.

DS70. C512 2011
Chubb, Mary
[City in the sand]

مدينة في الرمال / تأليف: ماري تشب؛ ترجمة: وفاء الذهبي؛ مراجعة وتحرير: أحمد إيش. - ط. 1. - أبوظبي: هيئة
أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2011.

259 ص. : مص. ، خارطة؛ 24 سم. (رواد المشرق العربي)
يتضمن مراجع بليوجرافية.

ت د م ك: 7 - 473 - 01 - 9948 - 978

1. الآثار -- العراق. 2. الحفريات الأثرية -- العراق. 3. الحضارة السومرية. 4. الشرق الأوسط -- وصف ورحلات.
5. سومر (العراق) -- تاريخ قديم. أ. ذهبي، وفاء. ب. إيش، أحمد. ج. السلسلة. د. العنوان.

ترجمة كتاب: City in the sand



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

© حقوق الطبع محفوظة

دار الكتب الوطنية
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث
«المجمع الثقافي»

© National library
Abu Dhabi Authority
For Culture & Heritage
"Cultural Foundation"

الطبعة الأولى: 1432 هـ = 2011 م

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة
عن رأي هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي)

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة
ص. ب: 2380
publication@adach.ae
www.adach.ae

مدينة في الرمال

(قصة اكتشاف حاضرة إشنونا السومرية)
مع رحلات في بلاد المشرق

سلسلة رواد المشرق العربي

تقدّم «هيئة أبوظبي للثقافة والتراث» للمكتبة العربية بوجه العموم، ومكتبة تراث جزيرة العرب بوجه الخصوص، باكورة نتاجها من هذه السلسلة الثقافية التراثية تحت عنوان: «رواد المشرق العربي». وهي من خلالها تعكس اهتمامها بتراث الآباء والأجداد، كمصدر فخر لشعب الإمارات وإلهامهم وعنوان أصالتهم وهويتهم الوطنية، وذلك من خلال الحرص على جمع كافة المصادر المتعلقة بتراث منطقة الخليج العربي وجزيرة العرب والعالم العربي في آن معاً.

فإذا استعرضنا تاريخ الحركة العلمية بنشر التراث العربي المخطوط، الذي يصل مجموعه إلى قرابة 3 ملايين مخطوطة في مكتبات الشرق والغرب، نجد أنّ جامعاتنا ومعاهدنا العلمية ومؤسّساتنا الثقافية على امتداد الوطن العربي، أسهمت بنصيب وافر في خدمة هذا التراث ونشر أصوله، وخاصّة خلال القرن العشرين. فتألّفت من خلال ذلك مكتبة تراثية عريقة ثمينة وواسعة للغاية، حفظت تراث لغتنا العربية في مجالات شتى، منها على وجه المثال: الأدب العربي، الشعر، النّحو، الحديث الشريف، الفقه، التاريخ، الفلسفة والفكر الإنساني، الفنون، وسائر العلوم عند العرب من فلك وطب وهندسة ورياضيات وصيدلة وكيمياء. ومنها أيضاً الأدب الجغرافي العربي وأدب الرحلات.

وما دُمنّا بصدد ذكر تراثنا الجغرافي، فلا بُدّ أن نوّكد على أنّ ثمة تياراً موازياً له، يضارعه ويستقي منه ويتّممه، يُضفي بالغ الفائدة والمتعة على تراث العروبة، ألا وهو:

أدب رحلات الأوروبيين إلى مشرقنا العربي! هذا المبحث مع الأسف لم يتم التركيز الكافي عليه حتى الآن، رغم ما يستحقّه وما يقدّمه من فوائد لمثقفّي العربيّة ودارسي تراثها وتاريخها الحضاري والسياسي والاجتماعي.

هذه الرّحلات لم تتوقّف أبداً منذ أقدم العصور وإلى انبلاج دعوة الإسلام الحنيف، فطفقت جموع الرّحّالين تتناوب على زيارة المشرق منذ عصر حضارة الإغريق (كرحلة آناباسيس لزينوفون الأثيني، ورحلة هيرودوتوس)، والرّومان (كرحلة إيلوس غالوس). ثمّ في القرون الوسطى حلّ الطمع محلّ الفضول، واجتاحت جحافل الغزو اللاتيني مشرقنا الإسلامي في موجة الحملات الصليبيّة، فمكثت فيه على الشّريط السّاحلي لبلاد الشام مدّة 200 سنة، وحاولت احتلال مصر وتونس لكنّها ارتدّت على أعقابها.

فلما أطلّ القرن السادس عشر، بدأت مرحلة جديدة في هذه الملحمة الثقافيّة والحضاريّة من علاقات الشرق بالغرب، فتضاعف إلى حدّ كبير عدد الرّحّالين الأوروبيين، الذين قصدوا المشرق إمّا للتجارة أو المغامرة أو الاستطلاع، أو لمجرّد الخروج بمؤلّفات إبداعيّة فريدة. أمّا جزيرة العرب، معدن العروبة وأرومة قبائلها، ومهبط الوحي وموئل لغة القرآن الكريم، فلا غرو أنّها نالت من اهتمام رّحّالي الغرب وجهودهم المُضنية ومغامراتهم الشائقة الشيء الكثير، عبر خمسة قرون (من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين).. فجابوا بواديها وفيافيها ومجاهلها، ناهيك عن مدنها وبلداتها وقراها ومضارب بدوها.

هذا الإرث الإنساني الثمين والممتع والمفيد، الذي يضمّ المئات من نصوص الرّحلات النّادرة، تقوم «هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث» اليوم بنشر باكورة أجزائه بالعربيّة، في مشروع طموح يهدف إلى نشر أكبر عدد منه، وتقديمه للقارئ العربي بأرقى مستوى علمي من التّحقيق والبحث، وأجمل حلّة فنيّة من جودة الطباعة وتقديم الوثائق والخرائط والصّور النّادرة.

هيئة أبوظبي للثقافة والتّراث

هذا الكتاب

يطيب لنا في هذا الكتاب أن نقدّم حلقة جديدة في سلسلة فريدة من «رؤاد المشرق العربي»، هي سلسلة النساء الرّحالات الرّائدات في مشرقنا. فبعد أن قدّمنا الرّحالة الألمانية دوروتيا فون لينكه (المعروفة بالكونتيسة مالمينيائي) في رحلتها العجيبة عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى إلى المدينة المنوّرة، سرافق اليوم باحثة بريطانية في الآثار، زارت مشرقنا في ريعان صباها وكان لها من العمر 30 عاماً، فشاركت في عام 1933 ببعثة أثرية في العراق، قام بها المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو، فكانت حصيلتها مكتشفات مذهلة في مواقع مهمّة جداً تعود إلى الحضارتين السومرية والأكادية، وكان من بين اللقى تماثيل عديدة لآلهة، وحليّ وأختام أسطوانية، ونقوش كتابية فريدة.

بطلة قصتنا، ماري تشب، لم تكن في الواقع عالمة آثار كبيرة، وكان دورها في البعثة المذكورة يقتصر على المشاركة الثانوية والتلمذة على أيدي كبار الأخصائيين في علوم الآثار والفيلولوجيا: هانز فرانكفورت، ستون لويد، توركيلد ياكوبسن، جون بندلبري، بير دلوغا... وعلى الرغم من ذلك، فقد لعبت في كتابها هذا دور الرّواية التي أشركتنا جميعاً في أحداث القصّة، وجعلتنا نعيش أحداثها وروعة اكتشافاتها كما لو أن أشخاصها أحياء بيننا اليوم.

بروايتها السردية الشائقة وتفاعلها مع الأحداث، ونبرة الحنين والوجد التي تتّجّ في صدرها شوقاً إلى المشرق بعد انقضاء فترتها في البعثة، جعلتنا ماري تشب بحق نعيش تلك اللحظات الفريدة ما قبل 81 عاماً، حينما نفّض هؤلاء العلماء الأفاضل الغبار

المتراكم طوال 4000 سنة عن حلقة مفصلية هامة للغاية من تاريخ بلادنا.. هذا التاريخ الذي ينبغي لنا اليوم دراسته كسلسلة متصلة الأركان، وكفصول في سيرة واحدة تفضي بنا إلى نتيجة حتمية كبرى.

هذه النتيجة الحتمية هي: أسبقية الدور الحضاري الرائد لأمتنا العربية في تاريخ البشرية.. هذه الأمة التي انطلقت شعوبها من جزيرة العرب، وأرست قواعد حضارات راسخة في طول الجزيرة وعرضها، بجنوبها وشمالها وشرقها وغربها، ثم في امتداداتها الطبيعية في بلاد الرافدين وبلاد الشام، حتى حدودها الطبيعية: جبال زاغروس شرقاً، وجبال طوروس وهضاب كيليكيا شمالاً، والبحر الأبيض المتوسط غرباً.

هذا الدور الرائد في تاريخ البشرية يحفل في الواقع بسلسلة ممتدة من الإنجازات الحضارية، لكن يكفي هنا أن نذكر أهمها: ظهور الكتابة المقطعية الأولى (المسمارية) لدى أواخر السومريين وأوائل الأكاديين في بلاد الرافدين بحدود عام 3200 ق.م، وظهور الأبجدية الأولى (بعلامة مفردة لكل حرف) في جيبيل بالساحل الفينيقي حوالي عام 1200 ق.م. وعلى ذلك يمكننا أن نزهو ونفتخر بأن أجدادنا قد علّموا الكتابة للبشرية قاطبة، ومن أبجدية جيبيل بالذات اقتبست أوروبا حروفها وكتابتها، لا بل وحتى اسمها!

* * *

تعيدنا ماري تشب هنا إلى عالم زاخر بالتاريخ والفكر الأساطير والمكتشفات المثيرة، هو عالم أواخر السومريين وبدايات الأكاديين، وهذا ما يسترعي منا هنا إدراج نبذة عن التاريخ الحضاري لهذين الشعبين:

كانت الحاجة للدفاع والرّي من الدوافع التي ساعدت على تشكيل الحضارة الأولى في بلاد الرافدين على يد سكان ما بين النهرين القدماء، فقاموا بتسيير مدنهم ومذقنات المياه. وبعد سنة 6000 ق.م ظهرت المستوطنات التي أصبحت مدناً في الألفية الرابعة ق.م، وأقدم هذه المستوطنات البشرية كانت تل حلف وأريدو وأوروك،

اللواتي أقيمت بها معابد من الطوب الطيني، وكانت مزينة بمشغولات معدنية وأحجار، واختُرت بها الكتابة المسمارية. وترجع إلى السومريين بدايات الثقافة الأولى، التي انتشرت من هناك شمالاً لأعالي الفرات في منطقة الجزيرة الفراتية. وأهم المدن السومرية التي نشأت آنذاك: إيزين وكيش ولارسا وأور وأدب.

بدأ التاريخ السومري بما يعرف بعصر أوروك من حوالي 4000 ق.م إلى 3000 ق.م، حيث نشأت العديد من المستوطنات والقرى الزراعية على الفرات، والتي تطور منها لاحقاً بعض المدن التي شكلت أوروك المدينة الأهم بينها، واشتهرت بمعبد إنانا.

وسومر دولة قديمة في العراق وشرق سوريا، وقد عُرف تاريخها من خلال الألواح الطينية المدونة باللغة المسمارية، وظهر اسم «سمر» (شمر) في بداية الألفية الثالثة ق.م. لكن مبتدأ السومريين كان في الألفية الخامسة ق.م حيث استقر شعب «العبيد» (وهذه تسمية نسبية حديثة) بجنوب العراق، وأسسوا المدن السومرية الرئيسة كأور ونيبور ولارسا ولغاش وكولاب وكيش وإيزين وإريدو وأدب. واختلط شعب «العبيد» بأهل صحراء الشام والجزيرة العربية عن طريق الهجرة أو شنّ غارات عليهم. وبعد عام 3250 ق.م ابتكروا الكتابة على ألواح الطين، وظلت الكتابة السومرية لمدة 2000 عام لغة الاتصالات بين دول الشرق الأوسط وقتها.

وخلال القرون التي تلت الهجرة السومرية، نمت الدولة وتطوّرت في الفنون والعمارة والعلوم. ويُعدّ الملك السومري إيتانا ملك مدينة كيش أول من وحد بلاد سومر منذ عام 1800 ق.م. وبعده ظهر (مسكياغاشر) ملك مدينة أوروك (الوركاء) جنوبي مدينة كيش، فسيطر على كامل المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط غرباً حتى جبال زاغروس شرقاً. وخلفه ابنه إنمركار عام 2750 ق.م فاستولى على مدينة أراتا بشمال شرق بلاد الرافدين. وفي عام 2700 ق.م أحكم إنمبارغاسي ملك دولة إتانا بكيش سيطرته على بلاد سومر، وانتصر على دولة عيلام، وأقام معبداً للإله إنليل بمدينة نيبور التي أصبحت المركز الديني والحضاري لسومر. وفي سنة 2670

ق.م انتهى حكم إتانا بكيش بعد سقوطه على يد ميزباد ملك مدينة أور، التي جعلها عاصمة بلاد سومر. لكن بعد موته بسطت مدينة أرك نفوذها السياسي عليها بواسطة غلغاماش (2700 ق.م - 2650 ق.م) الذي دارت حوله الملحمة الشهيرة، (والشائع اسمه: جلجامش).

وقبل القرن 25 ق.م قامت الإمبراطورية السومرية بقيادة لوغاللمند وبمدينة أدب (2525 ق.م - 2500 ق.م). وكانت تمتد من جبال طوروس حتى جبال زاغروس، ومن الخليج العربي حتى البحر الأبيض المتوسط. وعاشت سومر فترة اضطرابات داخلية حتى القرن 23 ق.م. حتى اجتاحتها الملك سَرغون الأول «شارُكين» (2335 ق.م - 2279 ق.م) وأسس عاصمة جديدة سماها أكاد بأقصى شمال بلاد سومر، فغدت حينها أقوى وأغنى مدينة في العالم وقتها. واندمج الغزاة وأهل شمال بلاد سومر وانصهروا مكونين شعب أكاد.. وأصبح يطلق عليها بلاد سومر وأكاد.

وأثناء حكم حفيد سَرغون الملك نارامسين (3355 ق.م - 2218 ق.م). نزع الثوار الغوتيون من جبال زاغروس واستولوا علي مدينة أكاد وبقيّة سومر. لكن السومريين بعد عدة أجيال طردوهم، وحصلت سومر على استقلالها على يد ملك مدينة أوروك يوتوهيغال (حكم من 2120 ق.م - 2112 ق.م). وأعقبه أحد قوّاده أور - نامو بالعهد الثالث في مدينة أور. وخلفه ابنه شلغي (2095 ق.م - 2047 ق.م). وكان قائداً عسكرياً ومصلحاً اجتماعياً كأبيه وأديباً، ووضع قانوناً قبل قانون حمورابي بثلاثة قرون، وفتح المدارس والجامعات.

وفي بداية الألفية الثالثة ق.م جاء العيلاميون الرعاة من الصحراء غربي بلاد سومر وأكاد، فاستولوا على أهم مدنها، كإيزين وسيركا وأور وأسروا حاكمها. وأصبحت البلاد في فوضى، حتى جاء حمورابي ملك بابل وطرد العيلاميين عام 1763 ق.م وأصبح الحاكم الوحيد لبلاد سومر وأكاد بعدما ضمّهمها لبابل لتظهر الحضارة البابلية.

هذا ولقد خلّفت الحضارة السومرية آلاف الألواح المسمارية باللغة الأكادية. ومنذ

أوائل الألف الخامس ق.م، شهد السهل الرسوبي ما بين النهرين في العراق (دلتا الرافدين) الانتقال من القرى الزراعية إلى حياة المدن. وفي هذا السهل قامت المدن الأولى مثل أريدو وأور والوركاء (وركاء)، وفي هذه المدن كانت بدايات التخطيط للسيطرة على الفيضانات، وإنشاء السدود وحفر القنوات والجداول. وفي هذا السهل كانت شبكة القنوات معجزة من معجزات الرّي، مما جعل من السومريين بُناة أقدم حضارة في التاريخ. وفي حدود سنة 3200 ق.م ابتكر السومريون الكتابة ونشروها في عدة بلدان شرق أوسطية. وقامت في بلاد سومر أولى المدارس في التاريخ.



في بداية عصر السلالات المبكرة نشأت مجموعة من المدن الدول (أداب - إريدو - إيسن - كيش - لاغاش - لارسا - نيبور - أور - أوروك) والتي شكّل خضوعها لحكم واحد منذ 2800 ق.م الدولة السومرية القديمة، وذلك عبر سلسلة من القادة الحكام من مدن وأسر حاكمة مختلفة كما يلي:

كيش: كان أول حاكم لسومر إتانا الذي عاش في فترة 2800 ق.م، وكان ملك مدينة كيش.

أوروك: تلى ملك كيش، مسكياغاشر ملك أوروك، وأسس جنوباً من كيش أسرة حاكمة منافسة، ووسّع نفوذه حتى شمل كامل الهلال الخصيب تقريباً، وخلفه ففي العام 2750 ق.م ابنه إنمركار، الذي خلفه أحد قادة جيشه المدعو لوغالبندا، ثم عاد حكم سومر في العام 2700 ق.م إلى أسرة كيش عن طريق الملك إنبارغاسي.

وحد الأكاديون الذين سكنوا شمال سومر بقيادة سَرغون (شارُكين) سومر تحت حكم أسرة واحدة من 2371 ق.م وحتى 2191 ق.م، وفي هذه الحقبة أضحت اللغة الأكادية لغة الدولة الرسمية، وانتهت هذه الفترة بغزو المنطقة من قبل الغوتيين.

الدولة السومرية الحديثة:

دامت الدولة السومرية الحديثة من عام 2112 ق.م حتى العام 2004 ق.م، وذلك تحت حكم أسرة أور الثالثة، التي أعادت الكتابة باللغة السومرية كلغة رسمية للدولة، ومن أعمالها بناء العديد من الزقورات. إلا أن نهاية هذه الفترة كانت قريبة على يد العيلاميين، ثم خضعت سومر بعد ذلك للدولة البابلية القديمة (1595 – 2000 ق.م) وآشور والدولة البابلية الحديثة (الكلدانية).

أور: موقع أثري لمدينة سومرية بتل المقيم جنوب العراق، وكانت عاصمة للسومريين عام 2100 ق.م. كانت بيضوية الشكل وتقع على مصب نهر الفرات في الخليج العربي قرب أريدو، إلا أنها حالياً تقع في منطقة نائية بعيدة عن النهر، وذلك بسبب تغير مجرى نهر الفرات على مدى آلاف السنين الماضية.

أوروك: أو أورك أو أرك، هي مدينة سومرية تبعد عن مدينة أور 35 ميلاً، وتسمى في العراق وركاء. ظهرت بها حضارة ما قبل التاريخ، حيث كان يصنع بها الفخار غير الملوّن على الدولاب الدوّار، كما صنعت الأوعية المعدنية. اخترعت بها الكتابة المسمارية، وهي عبارة عن مقاطع بسيطة للأصوات على ألواح طينية كانت تشوى.

كان خامس ملوكها غلغامش، وكانت موثلاً لعبادة الإله أنو ولعبت دوراً محورياً في ملحمة غلغامش، وكان بها معبد (إنانا) الأبيض الذي كان عبارة عن مصطبة. واشتهرت بالأختام الأسطوانية الغائرة. وكانت المدينة عاصمة لإقليم بابل السفلي، إلا أنها فقدت أهميتها بعد ظهور دولة أور.



يُعدّ الدين في سومر من أقدم الأديان الموثقة (كتابياً) في تاريخ البشرية، وقد كان لنصوصه الدينية تأثير واضح على مجمل أديان الهلال الخصيب وأحياناً المناطق المحيطة به. لقد قدس السومريون، بالإضافة إلى الآلهة الرئيسية والقديمة، مجموعة من الآلهة الخاصة في كل مدينة على حدة، التي تنافست فيما بينها، وتدرجياً احتلت

مكان بعضها في حال تشابه الصفات الممنوحة للآلهة المختلفة، لتشكل بانثيون سومرياً، يمكن تتبعه في الكثير من النصوص، وعلى الأخص ملحمة غلغامش التي كُتبت أساساً في العهد السومري، وبقيت الكثير من الشخصيات الإلهية السومرية متضمنة بها، على الرغم من التحرير وإعادة الكتابة التي طالتها عبر تعاقب الثقافات.

* * *

مؤلفة هذا الكتاب:

أما بطلة روايتنا ماري تُشب Mary Chubb، فقد ولدت في منطقة بلومزبُري Bloomsbury بلندن في 22 مارس من عام 2003، وسرعان ما استهواها في صغرها البحث في الوثائق التي كانت أسرتها تقتنيها إبان العهد الفيكتوري، وهذا ما ولّد لديها شغفاً بدراسة الماضي واستكشاف أسرارهِ. أتمت دراستها في مدرسة هايغيت Highgate، ولكنها لم تتمكّن من السفر بسبب اندلاع الحرب العالمية الأولى -1914-1918. وكانت منذ صباها تحلم بالانضمام إلى إحدى البعثات الأثرية التي ألهمت مخيلة المثقفين في عهد الملكين إدوارد السابع وجورج الخامس، وخاصة إبان قيام الآثاري البريطاني الشهير هاورد كارتر (1874-1939) بالتنقيب في وادي الملوك بمصر بين 1905-1914 ثم ثم انتهى به الأمر إلى اكتشاف أعظم وأروع كنز أثري هو مقبرة الملك توت عنخ آمون في عام 1922.

بتأثير من والد جدّها جون تُشب John Chubb المقيم في بريدجواتر Bridgewater، الذي كان هاوياً موهوباً للفنّ، التحقت ماري بالمدرسة المركزية للفنون Central School of Art لدراسة التّحت، ونالت في الوقت ذاته وظيفة في جمعية استكشاف مصر Egypt Exploration Society، وقبل ذلك كانت قد درّست اللغة اللاتينية في مدرسة إعدادية للفتيان، ممّا نَمّى لديها حب دراسة العوالم القديمة.

بعد أن أصابها الملل من وظيفتها بلندن، التحقت بوظيفة أمانة سرّ إحدى بعثات التنقيب في مصر، فسرعان ما انغمست في عشق دراسة الآثار والتنقيب عنها، وبدأت

باكتساب الخبرة. وبعد أكثر من عقدين من الزّمان ألّفت كتاباً هو: *Nefertiti Lived Here* «نفرتيتي عاشت هنا»، حول مكتشفات مدينة تلّ العمارنة بمصر، التي كانت لفترة ما عاصمة للملك «الكافر» إخناتون وزوجته الجميلة نفرتيتي (التي تظلّ اليوم أجمل وجه وصلنا من العصور القديمة)، كما كانت هذه المدينة مرتع الطفولة للملك الشاب توت عنخ آمون، فازدهرت 14 عاماً ثم هُجرت وألغيت ذكرها من السجلات الرسمية لدولة الفراعنة لمدة قرن من الزّمان.



بعد هذه البعثة، توجّهت ماري من مصر إلى جزر اليونان، فزارت قصر كنوسوس في جزيرة كريت، ومواقع أثرية أخرى في ميسينا وإبيداوروس وغيرها. ثم في عام 1933، التحقت بالبعثة الأثرية التي يقوم بها المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو في العراق، كما ذكرنا في المقدمة، وكانت حصيلتها اكتشاف مدينة إشنونا السومرية، التابعة لمملكة أور. وهو ما تدور حوله أحداث هذا الكتاب الذي نُشر للمرة الأولى بلندن عام 1957.

تضافرت المهارة وحسن الطالع، فراح أفراد فريق العمل يستكشفون ويكتشفون الكثير، ومروا بتجارب مريرة من العواصف الرّملية والأفاعي، وشاقتهم متعة التعاطي مع المجهول، والفائدة التاريخية والأهميّة البالغة لما عثروا عليه، وكذلك بهجة ومتعة الحياة الجماعية اليومية. ذلك كلّ جعل رواية تشب في هذا الكتاب أشبه ما تكون بقصة، بأسلوبها الشخصي في الوصف وفي تلاحق أحداثها. ومن الواضح أنها امتلكت الموهبة في الرّبط ما بين العلم والمتعة، وفي تصوير دقائق الحياة الحميمة لمجموعة من الأثاريين كانوا أصدقاء أكثر ممّا كانوا زملاء.

في عام 1938، أمضت ماري عاماً كاملاً في جامعة شيكاغو، التي مولت بعثة التنقيب الثانية، فتولّت تحرير التقارير العلمية للبعثة، وأسهمت في نجاحها. ولدى اندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939 عادت إلى إنكلترا، وهنا وقعت لها كارثة فادحة أدّت إلى إنهاء مهنتها كباحثة في الآثار، عندما كانت تمتطي درّاجتها فصدمها

لوري عسكري وأصيبت إصابة بالغة وفقدت إحدى ساقيها. ولعلمها أنها لم يعد بوسعها العمل في خارج البيت، فقد توجهت إلى الكتابة، وكانت تذيب بعض البرامج الثقافية في هيئة الإذاعة البريطانية BBC، وتكتب لمجلات متنوعة، ثم التفتت أخيراً إلى تأليف سلسلة من القصص للأطفال حول الشعوب القديمة: الإغريق، الرومان، والآشوريين، ونفذت رسومها جارتها الرسامة جيل وايات Jill Wyatt.

عاشت ماري تشب قرناً كاملاً من الزمان، وتوفيت في يوم 22 يناير من عام 2003، فكانت تقريباً الأخيرة على قيد الحياة من فريق العمل الذي عاشت معه أحلى سنة في حياتها قبل مصابها الألم، فعاشت ذكرى هذه الأيام الجميلة بين ضلوعها حيّة وثمينة لا تُنسى. والفرد الوحيد الذي بقي بعدها على قيد الحياة كان الطفل يون، ابن هانز فرانكفورت وزوجته يتي، فظلّ حياً إلى عام 2006 على الأقل، ولا أدري بعدها إن مات أم ما زال على قيد الحياة.



لكن ثمة فصلاً أخيراً أبى القدر إلا أن يلحقه بهذه الرواية الجميلة، ولو أنه لم يمهل ماري أن تعيش لشهرين آخرين، لتشهد بنفسها كما شهد العالم كله سقوط بغداد في 9 أبريل من عام 2003، وكيف أصيب تاريخ الإنسانية بأفدح مصيبة وأبشع جريمة، عندما تمّ نهب المتحف العراقي في بغداد، واستبيحت جميع المواقع الأثرية السومرية في جوب العراق من قبل لصوص الآثار. وبلغ عدد القطع الأثرية المسروقة من المتحف 170 ألف قطعة، كما أُحرقت مكتبته النادرة التي تضمّ أندر الوثائق والمصادر القديمة!

تري، ماذا كان شعور هذه الكاتبة، بأن ترى موئل الحضارة والكتابة الأول، الذي عشقت تراثه وعاشت بين ربوعه أحلى سنة من سني صباها وعمرها كله، وقد أُحرق وتدمّر؟ وكيف يكون شعور عالم الآثار بأن يرى تلك الكنوز الباهرة، التي صرف في استكشافها وتصنيفها ودراستها ونقلها إلى المتاحف عصارة عمره، وقد صارت بين أيدي اللصوص وتجار الآثار؟

سؤال لا نملك الإجابة عليه ..

لكننا، نترك القارئ مع هذه الرواية الجميلة في ربوع ديارى بالعراق، في أيام حكم الملك فيصل بن الحسين، يوم كان العراق في أزهى أيامه ينعم بالأمن والأمان والاستقرار. وستكون لنا في وقت قريب عودة إلى موضوع قريب مشابه، في كتاب عظيم للآثاري البريطاني أوستن هنري لا يارد، ألا وهو: «مكتشفات في أطلال نينوى وبابل».

أما الآن، فبكل سعادة نضمّ كتاب ماري تشب إلى سابقاتها من الرحلات اللواتي كنّ بأغلبهنّ بريطانيات، وسنقرأ رحلاتهن في كتب قادمة: ماري وورثلي مونثيو، إستر ستانهوب، الليدي آن بلنت، إيزابيل بروتون، جين دغبي، مايبل بنت، أيمي زويمر، مسز فوردر، غرتروود بل، فرياستارك، إيزابل إرهارت، إميلي روث، فايولت ديكسون، أليسون ليريك.

والحمد لله تعالى على ما وفق وأعان.

جبيل، 10 فبراير 2011

د. أحمد إيش





صورة المؤلفة، أبريل في خُرساباد

شكر وتقدير

أودُّ أن أتوجّه بالشكر إلى مدير المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو للطفه بالسّماح لي بتقديم تلك الصور التي تخص المعهد، والتي ترد في قائمة الرّسوم. كما أنني ممّنّة جداً للسيدة هيلدا پندلبري Hilda Pendlebury لسماحها لي بنسخ صورة جون پندلبري في هذا الكتاب.

لقد استندتُ في الكثير من المواد الأثريّة في هذا الكتاب إلى منشورات المعهد الشرقي وخصوصاً بعثات العراق الاستكشافية، تلك التي كتبها مدير التنقيب الرّاحل البروفسور هانز فرانكفورت Hans Frankfort؛ واستخدمتُ أيضاً الكتاب المعنون: «قناة سنّخريب في جِروان» *Sennacherib's Aqueduct at Jerwan*، الذي ألفه كل من البروفسور توركيلد ياكوبسن Thorkild Jacobsen والسيد ستون لويد Seton Lloyd. وأود أن أشير إلى أن أيّ خطأ من الممكن أن أكون قد وقعت فيه دون قصد، بالرغم من العناية الفائقة التي أوليتها في قراءة تلك المنشورات، إنما تقع مسؤوليته على كاهلي وحدي.

وكليّ أمل بأن يتكرّم هذان العالمان بغضّ النظر عن أي خطأ باللفظ ذاته، كما أثق بأنه سيكون أيضاً ما يتكرّم به قائد بعثتنا التنقيبية.

فرويل 1957 Froyle

ماري تُسبّ

الفصل الأوّل

ترنّحت السفينة الرومانيّة القديمة بفعل الرّياح؛ لتشقّ طريقها متّجهة إلى بيرايوس⁽¹⁾ Piraeus في ليلتها الثّانية بعيداً عن الإسكندريّة، وبعد تأرجح عارضتها استقامت وشقّت طريقها برفق عبر المياه الهادئة. انسللت من سريري خارج المقطورة الحارّة فتلقّاني ثبات سطح السفينة تحت قدمي. كانت السّاعة تقارب الواحدة صباحاً وكنْتُ قد أمضيْتُ فترة العاصفة معظم النّهار وأنا أشعر بالدّوار ممّا سبّب لي الملل من كلّ ما يحيط بي. خلال لحظات الصّحو التي مررتُ بها كنْتُ أمعن النظر في صور السيّد الروماني ذي الشّارب الكبير لأفهم حركات أ، ب، ج في قميص النّجاة، فحفظت عن ظهر قلب الملاحظات المعلّقة خلف الباب، وقد ترجمت إلى الإنكليزيّة على أقرب وجه ممكن:

صفرة واحدة: وقت العشاء قد حان!

صفرتان: ثمة من وقع في البحر!!

ثلاث صفرات: نزول إلى قارب النّجاة!!!

وهناك ملاحظة تقول: «نرجو من المسافرين إطفاء المصابيح عند منتصف اللّيل»، وهي قد تكون موجّهة لبعض الممارسات الشّعبيّة اليونانيّة المخصّصة لإله البحر، وتلك اللافتة التي تطلق نداءً من القلب وجّهه قبطان البحر المولع بالموسيقا والتي تقول: «أرجو من المسافرين ألاّ يعزفوا على البيانو في الصّالون إن لم يكونوا يتقنون العزف».

(1) مدينة ساحليّة معروفة في إقليم أتيكا بضواحي أثينا جنوبي اليونان.

فتحتُ باب المقصورة بعد أن ارتديتُ معطفاً فوق پيجامتي، وانتعلتُ الصنْدَل⁽¹⁾ المصري، فقابلني صمت في الممرّات الضيّقة البيضاء يشوبه صوت السفينة المألوف وأصوات همهمة الآلات البعيدة يتميّز منه حفيف ضعيف لأصوات بقايا الغسول عائدة من السفينة إلى المياه الرّاكدة السوداء. لمع ضوء وحيد في ممر السفينة المهجور، ثم هبت نسّامات بحريّة عبر المداخل في جانبيّ الدهليز. خطوتُ في الظلام على الألواح المتدرّجة في جانب السفينة الأيسر، وشققتُ طريقي إلى مؤخرة السفينة مازّة فوق ظهر المركب الرّطب بفعل الرّشقات المتناثرة على السّياج في فترات الطّقس السيّئة.

كنّا ننساب في الفراغ الدّافئ، ويعمّ حولنا سكون سحري، وقد تدلّى القمر العسلي - في ذلك الوقت المتأخّر من اللّيل - منخفضاً فوق برّ مصر هناك في مكان بعيد خلفنا، ورغم أنّه قد بزغ للتوّ فإنّ نوره كان مشعّاً ممّا جعل السّماء مضيئة والأفق واضحاً للعيان حولنا. لم يكن حولنا غير السّماء الشّاحبة المتوهّجة وظلام البحر الحريري ونبضات قلب السفينة المكتومة. وفجأة لمع ضوء في قوس السفينة على جانبها الأيسر، فحملتُ في المياه ورأيتُ شكلاً رمادياً مخمليّاً قد امتدّ على طول البحر له حواف متعرّجة رُسمت قبالة السّماء، وكأنّه وحش بحري يرقب مرورنا بعيون عنبريّة ناعسة. اجتزّت السفينة إلى سياجها في الجانب الآخر فرأيتُ خلفنا كتلةً أخرى داكنة⁽²⁾ تقابل ممرّ القمر، ومن هناك وميض⁽³⁾ أضواء ملاصق للمياه يختفي ويظهر كل بضعة ثوان. إنّها جزيرة اليونان.

إنّها لحظة من أجمل لحظات السّعادة التي لن أنساها أبداً، أن تكون وحيداً تماماً في هدوء إحدى ليالي البحر المتوسّط يحدوك الأمل بقرب الوصول إلى اليونان في كلّ لحظة، إذ أصبحنا بين نقاط الحدود الهادئة التي تبعث برسائل التّرحيب المطمئنة بسلامة الوصول.

(1) الصنْدَل: حذاء مفتوح.

(2) داكنة: الدكنة: لون مائل إلى السّواد. (القاموس المحيط، ص 1544).

(3) وميض: ومض: لمع خفيفاً. (القاموس المحيط، ص 847).

انحنيتُ على السّياج لفترة طويلة أرقبُ الجزرَ تارة، وتارةً أرقبُ القمرَ البازغ، وتارةً أخرى أرقبُ المياه المكدّرة التي تندقق على امتداد صفحة السفينة الجانبية، أترى لفعل هواء البحر خيلاً أم هل هي بواذر العسل وأقاحي الأعشاب وزهر البرتقال في اليونان؟

كنتُ عائدةً إلى لندن من مصر التي كنتُ أعمل فيها طوال الشّتاء (ولم أعلم وقتها بأنّها ستكون المرّة الأخيرة). كنّا في شهر مارس من عقد الثلاثينيات الوداع، وكنتُ أعمل سكرتيرةً لفريق يذهب كلّ سنة في بعثة من جمعيّة استكشاف مصر للتّقيب في موقع تلّ العمارنة في مدينة أخناتون، وأنا حسب اعتقادي في طريقي إلى إجازة مدّتها ثلاثة أسابيع أمضي بعضاً منها في اليونان لأعود بعدها مع صحبة هنيّة، وأقطع الوديان وأسير على الجبال.

عدتُ إلى قمرتي في الأسفل بعد أن غلبني نعاس شديد زاده النّسيم البحري. كان الوقت جميلاً ورومانسياً لو استطعتُ أن أشهد بزوغ الفجر، ولكن كان من المستحيل الانتظار صباحاً لدقيقة أخرى. دخلتُ قمرتي وفتحتُ كوّتها على مصراعها، ولوّحتُ إلى رؤوس الجزيرة التي كانت تختفي عن الأنظار شيئاً فشيئاً، ثمّ انسلتُ في سريري وبعد ثانية غفوْتُ.

وصل إلى أثينا ثلاثة من فرق التّقيب في تلّ العمارنة بمصر، وهم: جون پندلبري⁽¹⁾ John Pendlebury مدير المنقّبين، وحتّى تلك اللّحظة مازال قيّم كنوسوس Knossos، وزوجته هيلدا وإحدى مهندسات التّقيب وتدعى هيلاري، فوضعنا خططاً للتّنزّه حول قسم من أرغوليد Argolid في الپيلوپونيز لأنّني وهيلاري لم نكن نعرفها بعد، فقال جون: «نبدأ بميسينا Mycenae طبعاً ثمّ نتّجه جنوباً لنرى تيرينس⁽²⁾ Tiryns ونمضي

(1) جون دافيد سترينغفيلو پندلبري (1904-1941) عالم آثار بريطاني قام عام 1928 بحفريات في تلّ العمارنة بمصر، وفي عام 1929 عيّنه السير آرثر إيفنز محافظاً للموقع الأثري في كنوسوس بوسط جزيرة كريت، فقام فيه بدراسات مهمّة حول عصر البرونز. عمل لصالح المخابرات البريطانية أثناء الحرب العالمية الثانية، فقتل في معركة كريت.

(2) تيرينس هو اسمها بالإغريقيّة القديمة: Τίρυνς، أما في اليونانيّة الحديثة فتسمّى: تيرينثا Tipuvθα.

ليلةً تقريباً في نوپليا Nauplia ومن ثمّ ننعطف شرقاً إلى إبيداوروس Epidauros، ومنها قد نذهب إلى الشّاطئ الشرقي من إبيداوروس الجديدة ونحاول العودة منها إلى كورنثة عبر الجبال الواقعة شمال إبيداوروس، فأنا لم أزرها مطلقاً وسوف أبرق للتزول فيها هذه الليلة».

اعتقد جون أنّه بإمكاننا أن نقوم بالجولة خلال ثمانية أيّام. كنّا نجلس جميعاً في مطعم ومشرب بيرة يُدعى لوبيرز Loubier's في شارع هرمز Herms وهو مكان بهيج ينجذب المرء إليه في المساء عندما تغدو نسماثُ بداية الرّبيع باردة، كانت البيرة شاحبة باردة لا تُنسى، تصحبها دائماً أطباق لوجبات سريعة بكميّات كبيرة مصنوعة من الزّعتر البرّي. وبالطبع بإمكان المرء أن يشرب الأوزو oozo (شراب حارّ يُقدّم بكميّة قليلة) إن أحبّ، ولا يستسيغه إلاّ من يحبّ نكهة اليّنسون التي صُنعت منها، وهو شراب ممتع إن كنت تشعر بالتعب والبرد الشّديد.

كانت حانة لوبيرز مليئةً باليونانيين الضّاحكين؛ يشاركهم بفكاهاتهم جميعها صغار عمّال الضّيافة التشيطيين الذين يرتدون بزّات بيضاء. وفي غمرة دفء الرّفاهية والضّوضاء ودعوات الشّراب الحلوة كنْتُ أشعر دائماً بأنّني في مدينة غير عاديّة.

وقريباً جدّاً من مكان جلوسنا هناك في مكان ما وراء الصّخب والنّشاط في الشّوارع المضّاءة، تتناول الصخرة العظيمة المتوّجة بالذهب بتفاصيلها المدهشة تحت أنوار المساء الأخيرة. وحيثما بحث المرء ومن أيّ مكان وجد نفسه في أثينا، يرى لمحات من البارثينون Parthenon ولسوف يجدها سواءً كان مبحراً مع الغيوم في السّماء، أو استكان لمرأى السّماء الزّرقاء الساكنة، وكذلك فإنّ معالم أثينا الحديثة ليست تقلّل أو تحجب استعادة الإحساس بتواصلها المستمرّ مع مجدها العريق. يظلّ الأكرópolis قلب أثينا التّابض، وما زالت حياتها تدور حول ذلك القلب، على الرّغم من تقزّم سكّانها واختفائهم وراء هذا الرّمز الخالد لماضيها الباهر.

كانت مشّريّاتنا للرحلة في اليوم التّالي تتألف من الشّوكولاتة وأفلام التّصوير وبعض المبيدات الحشريّة. وفي المساء ذهبت هيلدا وجون إلى المدرسة البريطانيّة

للقيام ببعض الأعمال هناك، بينما ذهبْتُ مع هيلاري إلى المتحف كيما نرى الكنوز التي عثر عليها شليمان⁽¹⁾ Schliemann في ميسينا Mycenae عام 1876، من تيجان ذهبيّة ودروع وحلي وحيوانات منحوتة، أهمّها القناع الذهبي الذي رُفِع بعناية كبيرة عن وجه أحد الأموات في قعر أحد القبور الذي يُعتقد بحماس شديد أنّه قبر أغاممنون Agamemnon. كانت السّماء تُرسل ظلاً مستمراً من أمطار اليونان المباركة، فانسللنا بجرأة إلى أحد الأفلام اليونانيّة حتّى استطعنا أن نلتقي الآخرين ونحن بهندامنا الحسن في حانة لوبيرز. كان الفيلم تجسيداً لقصّة دافنيس وكلوي Daphnis and Chloe التاريخيّة، وكان إنتاجه مؤنساً ومسلياً كقصّته، والمناظر خلابة حيث أدّى بطلا الفيلم الجميلان الشابان دورهما. كان فيلماً جميلاً ولم يبدُ أنّ أحداً لاحظ أثناء عرض الفيلم أو اهتمّ لمنظر دافنيس Daphnis وهو يقود قطيعه عبر الدّروب يرافقه سلك الهاتف أو أن تمرّ لبرهة حافلة عبر زوايا المنظر.

أسرعنا بالمغادرة قبل بدء الفيلم التّالي، وهو فيلم أمريكي بصناعة سينمائيّة متطوّرة، وقد أعلن عن أسماء أبطاله بأحرف يونانيّة وهي⁽²⁾: TSON MPARIMOR and MPILLI DOB. لقد استطاع اليونانيّون بأفضل وجه قولبة مشكلة الحروف غير الموجودة في أبجديّتهم، ففي اليونانيّة يُلفظ حرف B مثل V ولكنّها لن تفيد إذا كانت كلمة أجنبيّة تحوي حرف B فأقرب لفظ لها هو MP وبالطّريقة نفسها. فأفضل ما استطاعوا الوصول إليه في لفظ J هو TS وهو كافٍ لشرح لائحة أسماء مشاهد النّجوم الأمريكيين القدامى في ذلك اليوم الماطر في أثينا.

غادرنا عصر اليوم التّالي على متن قطار متّجه إلى الپيلوپونيز بداية عبر أسفل

(1) هاينريخ شليمان Heinrich Schliemann (1822 – 1890) رجل أعمال ألماني وعالم آثار، اشتهر بدفاعه عن نظريّة أن المواقع المذكورة في أعمال هوميروس لها مصادقيّة تاريخيّة وأنها حقيقة. اشتهر بتنقيباته في طروادة وميسينا وتيرينس، وأهمّها كما تذكر تشبّ هنا قبر الملك الإغريقي أغاممنون، وفيه عثر على قناعه المحفوظ اليوم في المتحف الوطني للآثار في أثينا.

(2) والمقصود طبعاً: الممثل الأمريكي جون باريمور John Barrymore، والممثلة الأميركيّة بيلي دَف Billie Dove.

التلال غرب أثينا باتجاه ميغارا Megara، ومن هنا بدأت الأراضي ترتفع بالتدرج نحو المرتفعات الصخرية التي تسلقها القطار ببطء نحو الأعلى إلى أن تركنا قوارب الصيد بعيداً خلفنا من الأسفل على المياه المتلاثلة. أصابنا الدوار في بعض اللحظات عند وصولنا إلى الحافة، وحدقت أحياناً عبر التافذة محاولة ألا أفكر في الانهيارات الصخرية والهزات الأرضية، لأنّ الجمال المطلق للمنظر فوق البحر جعلني أحرص على رؤيته، فقاومت إحساسي بالغثيان، وراقبت قمم الجبال الداكنة المتشابكة التي تميز الساحل الشمالي لليلوبونيز جنوباً قبالة المياه. وعندما نظرتُ إلى طريق قدومنا الذي خلفناه وراءنا استطعتُ رؤية سلاميس Salamis تمتد ملاصقةً لساحل أتيكا وهي تتلألأ تحت أشعة شمس العصر بلون أخضر وذهبي. كنا في علو شاهق سمح لنا برؤية الممرات الزرقاء في الأسفل حيث كان في ماضي الزمان أبحر أسطول فارسي ضخم إلى مصيره المحتوم، وبعيداً عنه أيضاً رأينا جزر پسيثاليا Psittalia الصغيرة المليئة برُفات الغزاة. فعندما اشتدت المعارك غرقت قوارب الرجال البائسين تحتهم فسبحوا للتجاة بأرواحهم باتجاه تلك الجزيرة حيث رجمهم اليونانيون بالحجارة حتى الموت، أو تقطعوا بجروحهم عند زحفهم إلى الشاطئ.

امتدت كورنثة أمامنا فانعطفنا نحو الجنوب، وقطعنا القنال عن طريق الجسر الواقع في نهايتها الغربية. واختفت أتيكا Attica وخليج سارونيك⁽¹⁾ Saronic خلف رعن صخري، وصرنا الآن في اليلوبونيز مع مياه خليج كورنثة تطلّ من يمينها نحو غروب الشمس جنوبي كورنثة في قلب السهول الجبلية. كان الليل يرخي سدوله ونحن نتسلق عبر سهول منعزلة وصخور سوداء تتجه نحو الأعلى على جانبي الطريق الملتوية وواد سحيق يترامي بعيداً عن الدروب الضيقة.

كنا في بعض الأحيان نرى بالأسفل قامةً ساكنة لراع يحمل عصاه قرب قطيعه، وكلبه جانب القطار يسابقه بجنون ليُبعد شخير التّنين الذي يظنّ أنّه يهاجم قطيعه. اتسع الممرّ وانزاحت الصخورُ المربعة لتظهر الهضاب المعتدلة، وبدأ القطار

(1) اسمه باليونانية: سارونيكوس كولپوس Σαρωνικός κόλπος.

البطيء بالتسارع. كُنَّا نغادرُ الجبالَ، وعندما انعطفنا إلى الأسفل عبر قاعدة الهضاب بدت السهولُ العظيمةُ منبسطةً - وفي الغسق نحو الجنوب بعيداً وأمامنا لمعت مجموعةُ أضواء.

قال جون: «هذه هي آرغوس Argos».

بدأ القطار بالتباطؤ وهو يدخل في محطة صغيرة على بُعد عدة أميال من المدينة الكبيرة الوحيدة في سهل آرغوس Argos ثم توقف وانتظر وهو يهسهس⁽¹⁾ بهدوء. في تلك الأثناء جمعنا جربنديتانا⁽²⁾ ونزلنا إلى الرّصيف حيث تدلّى من السّقف فانوس زيتي وحيد فأضاء لافتة الصّفيح المعلقة على الحائط خلفه والتي عرفنا اسم المحطة منها وهي ميسينا Mycenae.

هدر القطار مقلقاً باتجاه آرغوس وأقبل رجل نحو جون وهيلدا وصافحهما. لقد كان سييرو Spiro، وهو الثالث من أربعة إخوة يقومون على شؤون التزل «هيلين الجميلة» Fair Helen قرب الموقع التاريخي في ميسينا، فقد وصلتهم برقية جون فجاء سييرو لاستقبالنا، وقادنا إلى خارج المحطة، وهو يتحدث بحماس، وانطلقنا عبر طريق طويل منبسط مستقيم يمرّ شرقاً بين أشجار السرو السوداء. وهكذا بدأ المسير فعلاً.

كُنَّا نتقدّم على طول قاعدة سلسلة الجبال التي قطعناها للتوّ والمرتفعات الأرضية إلى اليسار، والسهل إلى يميننا. وإلى الأمام استطعْتُ أن أُميّز الحدود العالية الدّاكنة لسلسلة أخرى تمتدّ شمالاً وجنوباً. كان الطّريق مبتلاً بسبب الأمطار التي هطلت على هذا الجانب من الجبال وكُنَّا نسمع صوت قطرات الماء على المنحدر، ويعبق الجوُّ برائحة الصّنوبر والعشب الرّطب. ومع ذلك كانت السّماء صافيةً، والنّجوم تتلألأ بين شجرات السّرو التي بدت وكأنّها تسير معنا. ورغم أنّ القمر لم يكن بازغاً فإنّ ظلالنا تطاولت وتضاغرت على سطح البحيرات في الطّريق، لأنّ سييرو كان يحمل مصباح

(1) الجربنديتات أكياس رحلات تُحمل على الكتف.

(2) يهسهس: الهسهسة: كل ما له صوت خفي. (القاموس المحيط، ص 750).

نار متوهّج. وسپیرو فتی شديّد النّحول، وجهه شاحب، تبرز عظامُ خدوده، وفوقها عيون سوداءُ متّقدة يتوّجها شعر متشابك مبعر.

قطعنا قرابة الميل سيراً قبل أن تظهرَ بعضُ المنازل المنعزلة على طرفي الطريق، ثم وصلنا إلى نُزل «هيلين الجميلة» Fair Helen الذي يقع يساراً خلف الطريق، وهو عبارة عن بناء أبيض غير مرتفع واسمه المعروف والمحبوب مكتوب بألوان زرقاء باهتة فوق الباب حيث علّق الفانوس. تأخّر سپیرو قليلاً ليفسح لنا حتّى ندخلَ جميعاً ثمّ صاح منادياً إخوته فدخلوا مبتسمين واحداً تلو الآخر: كوستي Costi، وهو الأخ الأكبر، رجل قصيرُ القامة، أعرج عرجاً شديداً. ثمّ فتى عملاق يُدعى أغاممنون Agamemnon، ثمّ الأخ الأصغر أوريستس Orestes، فتى في السادسة عشرة من عمره له أنف حاد، قصير القامة ممتلؤها.

بعد أن انتهينا من رؤية غرفنا التي تقع في أعلى سلّم خشبي قبالة الجدار الخلفي للمنزل نزلنا إلى غرفة الجلوس المتطاولة، واسترحنا في أوّل ليلة من تلك الليالي المثاليّة التي تحدث عندما يكون المرء في ترحال عبر الدّروب الشّاقة في ريف اليونان. لم تخلُ التّوافدُ المعتمّة من صفوف الوجوه المهتمة التي تحدّق إلى الدّاخل؛ والمجمرة على الأرض في المنتصف من حلقة المستقبلين اللّطيفة والضّيوف والعَمال الذين دخلوا، وكلّ منهم يقدّم كؤوساً فيها قليل من شرب الأوزو أو البراندي أو البيرة، وأصوات الحديث تعلو وتنخفض، ثمّ وصلّت إلينا رائحة الطّبخ الشّهيّة يحملها الهواء الدّخن الخارج من المطبخ.

سأل جون سپیرو إذا كان يعتقد أنّ بإمكانه مرافقتنا في مسيرة الأسبوع التي نعتزم البدء بها، فيساعدنا في نواح متعدّدة، وكدليل لنا عبر الأجزاء المجهولة من الطريق. بدأ سپیرو بالقول إنّّه بالتأكيد سيفعل، غير أنّ أخويه الأكبر قالوا: «لقد كان مريضاً في المدة الماضية والجو الرّطب سيجعل حالته الصّحيّة أكثر سوءاً، غير أنّه سوف يتحسّن في فصل الصّيف». جلس سپیرو صامتاً، وهزّ كتفيه التّحليلين كمن أسقط في يده، ورفع يديه إلى الخارج بإشارة حزينة يملؤها الفضول. وافق الجميع على أن أوريستس

يستطيع، فقد أصبح الآن شاباً وبإمكانه القيام بالرحلة معنا، ولا يوجد عمل كثير في التزل يستدعي وجوده إلى جانبنا. ستكون تجربة جيّدة له، فهو يرغب في أن يصبح دليلاً للمسافرين الرّحالة أمثالنا، ثمّ إنه يعرف الكثير من اللّغة الإنكليزية التي يتطلّبها هذا العمل. رفع أوريستس نظره إلينا وهو يتسم بحياء، بعد أن كان مقطّباً وهو يقرأ في كتاب صغير في إحدى الزّوايا، وهكذا تبين أنّه هو من سيذهب معنا.

صادفنا لاحقاً في المساء الكتاب الذي كان يدرسه أوريستس عندما كنّا بمفردنا، كان كتاباً باليونانية لجمل بالإنكليزية مع التّهجئة بأحرف يونانية، وكانت الجمل نفسها غالباً غير مترابطة كالجملة التي لا تُنسى «بحقّ السّماء، قد صُقع الحوذي بومضة برق» ومن المؤكّد أنّها كانت تقابل المشكلة القديمة MP وTS وهكذا. وحرف D الذي كان يُلفظ TH باليونانية الحديثة، كان لا يقوم مقام صوت حرف D في الإنكليزية لذلك حلّ محلّه NT.

وممّا جعلنا سعداء جدّاً قول المؤلّف: Ai lä-ik Rampmpits وأعلن فجأة ومن ثمّ بحياء نوعاً ما يحسبه المرء كتب:

Ntoo you lä.ik Rampmpits?

وتابع ليغزف على موضوع الأرنب لأكثر من نصف صفحة أخرى. وطوال مدّة الرّحلة قامت جملة Ntoo you lä-ik Rampmpits? (هل تحبّ الأرانب؟) معنا تعليقاً عمليّاً لكلّ شيء من جملة: «هل ترغب في سيكارة؟» إلى: «هل أنت بخير؟» عندما تتعثّر بجذر غادر فيطرحك على وجهك أرضاً في الدّرب، أو جملة: «أليس هذا الصّباح ملائكيّاً؟»، نوع من الجمل الخرقاء المريحة التي تحاول لفت النّظر قد تغلّغت في معظم العائلات، ونحن الآن بعد المواسم التي أمضيناها في مصر مازلنا نتّبع ذلك الأمر.

كان صباح اليوم التّالي معتماً بفعل الغيوم، وبدأ الرّذاذ يسقط عند بدئنا الرّحلة على طول الطّريق الممتدّ شرقاً، ولم نكن نحملُ عتاد الرّحلة؛ لأنّنا سنعود لنبيت ليلةً أخرى

في التزل. انعطفنا إلى اليسار، وبدأنا بالصعود حيث تعرّج الطريق صعوداً حول هضبة كبيرة. أصبح ظهرنا الآن باتّجاه السهل، ونحن نصعد إلى داخل مدرّج يوناني أغلقته بإحكام صخور مستنّة في ثلاثة جوانب منه. لم نتمكّن من رؤية مداها إلى الأعلى فقد كان الضباب منخفضاً غطّاها. ويرتفع الطريق دوماً باتّجاه الأعلى وقد يدور إلى اليمين متّبعاً انحناء الجبل، وتعرّجه على شكل حرف U ويدور باتّجاه اليمين إلى أن يصل إلى نقطة الوقوف التام قبالة سفح الجبل عبر الوادي السحيق. وفي الأسفل عند الحفرة الضبابيّة حيث انخفضت الأرض بعيداً عن الطريق توجد في الأعشاب كتلٌ لمّاعة قاتمة ضخمة من الآجر. بدا العالم في ذلك الصّباح كأنّه قد خلا إلّا أنّنا نحن الأربعة، ونحن ننتقل صعوداً ونميل إلى اليمين طوال الطريق إلى أن وصلنا إلى نهايته حيث يمتدّ بين أطلال جدران ضخمة. ظهر الآن للعيان عبر الطريق حاجزٌ منيع خلال ضباب صخور الجبل الصّامدة، وكنا كلّما اقتربنا منها يتبيّن كيف أنّ مركزها أصبح واهناً⁽¹⁾، وقد ترقّق حتّى ضاع في الفراغ. لقد وصلنا في الأعلى إلى بوابة الأسود التابعة لميسينا Mycenae.

على السّاكفة الضخمة المنحوتة من كتلة حجريّة واحدة ينتصب زوج من الأسود بمثابة شعار، على جانبي العمود المركزي المخروطي، وهما على وضعهما منذ أكثر من 2000 سنة، وقفنا لحظات دون كلام، في ذلك المكان الغريب في مدخل حصن أغاممنون وبينما تراكم الضباب عبر البوّابة وتدقّق أمامنا منحدرأ من الطريق كطيف أحد المحاربين التاريخيين انطلق مجدّداً نحو البحر باتّجاه طروادة البعيدة، تجاه الثأر.

قالت هيلاري ببطء: «يبدو لي أنّ هذا هو اليوم الأنسب لرؤية هذا المكان للمرّة الأولى». تقدّم جون نحو حاجز البوّابة الحديث الذي حجز الطريق إلى الدّاخل، فناوله الحارس في القرية المفتاح حيث أنّه كان عالم الآثار المتميّز. فقال وقد بدت على وجهه تعابير الفخر: «أحسّ بالعظمة وأنا أمسك بيدي مفتاح مدينة ميسينا». كان يتكلّم مازحاً، ولكنّي أثق بأنّه وكعاداته قد غلّف كلامه بنغمة طوّقت كلماته كعباءة رقيقة

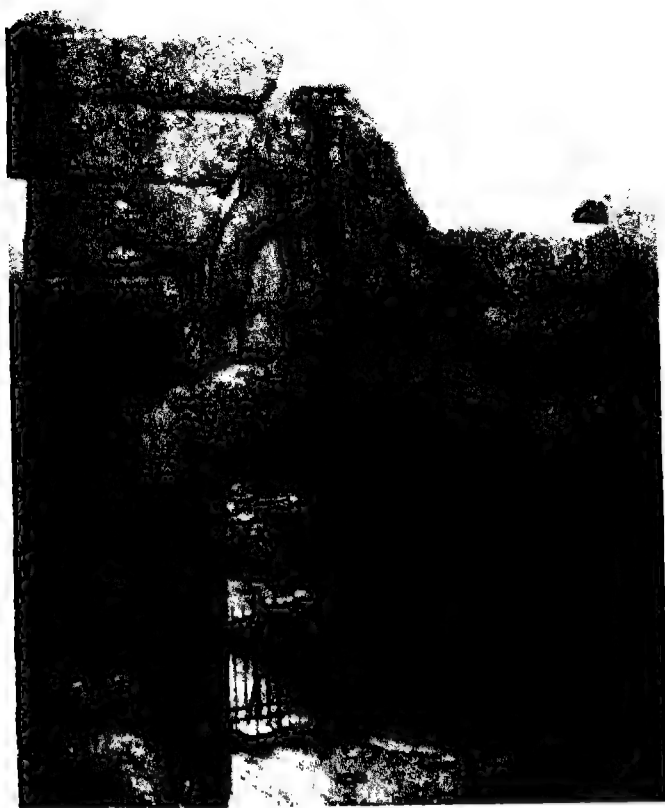
(1) واهناً: الوهن: الضعف. (القاموس المحيط، ص 1599).

بحيث كانت أي شيء عدا الهزل.

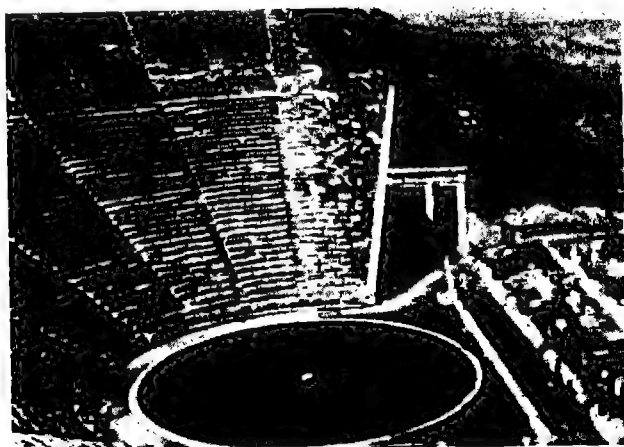
تحرّكنا عبر البوابة الظليلة إلى داخل حصن القلعة، وهناك على الجانب الأيمن بين الأعشاب التديّة والأزهار كانت تقبع الدائرة المزدوجة للألواح الصخرية العمودية حيث وجد سليمان بداخلها منجم القبور، وحيث أمعن النظر في الأسفل باتجاه فجواتها المعتمة واخترق ثانية غطاءها الأسطوري، ووجد أنّه كما كان يؤمن دوماً بأنّ الحقائق التاريخية تقبع في قلبها.

تسلّقنا باتجاه قمة القلعة فوق صخور الجدران الضخمة إلى الأعلى باتجاه قاعات أغاممنون المعتمة. وهناك في الأعلى فوق البوابة حيث قواعد الأعمدة الأسطوانية والبرّابات التي بنيت منذ 1000 سنة وأكثر قبل أيام اليونان القديمة، كان ربما ما يزال يمكن بوضوح رؤية تلك الزوجة الخائنة كليتمنسترا Clytemnestra وعشيقتها إيغستيسوس Aegistheus يراقبان ظهور إشارة من المنارة تحذّرهم بأنّ البطل قد عاد من طروادة Troy وقد يكون الآن قادماً من الساحل. وقد يكون هنا قرب هذا الموقد المظمور حيث كنّا نقف، ربّما كان قد وقع مصروعاً حتّى حين تلفّظت بأول كلمات الترحيب المزيفة.





بوابة الأسود في ميسينا
مدخل حصن أغاممنون



المسرح في إبيداوروس

انطلقنا في اليوم التالي إلى تيرينس Tiryns باتجاه الجنوب في ضوء الشمس الساطع، برفقتنا أوريستيس كانت قمم الجبال المحيطة بميسينا شاهقة وواضحة الآن بلون بني محمر قبالة اللون الأزرق الهادئ. قطعنا قرى صغيرة ببيوت بيضاء قائمة بين بساتين من الليمون والبرتقال متألئ الأوراق القائمة بين الذهب والياقوت الأصفر. أحضر أوريستيس عكازاً اقتطعناه من أجمة⁽¹⁾ على جانب الطريق لأتي لم أمتلك واحدة. شذّبها وهو يمشي، وشكّل لها قبضة منحنية ولها فتحة لتتدخل في رأس العصا. وصاح متلفظاً وهو يعطيني إيّاها «للأنسة ماري - Yia Thespeena Maria» أدركت بسرور أنّ عبارة ثيسپينا Thespeena كانت الكلمة نفسها التي تعني السيّدة ولكن تُلَفِّظُ بطريقة أخرى ديسپوينا Despoina وكانت تُستعمل في الماضي والمسرح. مازالت تلك العصا على جدار غرفتي حتى هذا اليوم.

وهكذا وصلنا إلى تيرينس Tiryns وهي صخور جيّرة ضخمة تبرز إلى الأعلى في سهل منبسّط متوجّه بجدران حصنها ذات السماكة الهائلة. روت الأساطير أنّها مسقط رأس هرقل Herakles وأكّدت الأساطير أنّ پروتوس Proetus كان ملك تيرينس وأنّ عمالقة السيكلوب Cyclops السبعة قد وضعوا المقاطع المضلّعة الضخمة سوّية لتشكّل الجدران. ورفض علماء الآثار تلك الأطلال عام 1884 على أنّها من القرون الوسطى، وأنّها لا تستحقّ البحث، جميعهم ما عدا شليمان Schliemann الذي كان بمفرده يتبعُ حدسه بأنّ هناك في مكان ما سيجد التاريخ وراء خيال الأساطير. قدم في ذلك العام إلى تيرينس ونقّب في قمتها العالية، ووجد بقايا قصر من أجمل ما وُجد من القصور محاطاً بأسوار محصّنة، ولكونها من القرون الوسطى كانت الأواني الفخاريّة وما عثر عليه يُثبت أنّ تيرينس كانت من دون أيّ شك قديمة قدم ميسينا Mycenae وفيها قصر محصّن عظيم بناه أحد الأمراء اليونان بداية عام 1500 ق. م. وهي أقدم قاعة أوروپيّة بُنيت بجدران خارجيّة من الصّخر.

تسلّقنا في طريق شديد الانحدار قد شقّ في الصّخر؛ واختير موقعه بإحكام وتخطيط

(1) الأجمة: الشجر الكثيف الملتف. (القاموس المحيط، ص 1388).

ماكر إذا تسلّقه العدو في هذا الجانب المكشوف (وهو الأيمن) يكون باتجاه المدافعين، والترس يكون في جانب اليد اليسرى. فيصعبُ المرورُ عبرَ البوابة الرئيسة، ومن بين جدران مزدوجة رُصّت بشدة. أما الجانب الداخلي لتلك الجدران فقد كانت صقيلةً تتلأأ في الظل، وقد قال جون: «إن سبب ذلك هو صعود وهبوط عدد لا يحصى من قطعان الخراف إلى تلك الرابية ومنها، فهي تلمع الجدران بالزيت الموجود في أصوافها، وهي تحتك ببطء على طول الجدران لتقضم من الأعشاب والأزهار الثابتة فيها».

أفضينا إلى السهل الفسيح الأفيح، وطفنا عبر السور الخارجي حيث خُصص للمخازن والإصطبلات. ومن ثمّ عبّرنا ما تبقى من بوابة ضخمة تفضي بنا إلى ساحة القصر التي تواجه مدخل الصالة الرئيسة التي كانت فيما مضى ذات أعمدة. استهلّت هذه الصالة غرفٌ تتضمّن حماماً فيه حوض استحمام مطمور ومصارف للمياه.

امتدّت السهول الخضراء حولنا محاطة من جهاتها الثلاث بالجبال. وتجمّعت الغيوم مجدداً من جهة الشمال فوق ميسينا Mycenae وانحدرت الجبال هناك قاتمة ومخيفة. امتدّ البحر إلى الجنوب قريباً جداً منّا بزرقتة المتلاثلة بينما انتصبت جبال إسبرطة Sparta هناك عبر الخليج حيث تقع نوبليا وقد انعكست صورة الثلوج البيضاء على الجبال في المياه الساكنة. هبّ ريح علية جعلت الزهور المنتشرة بين الأطلال تتمايل مترافضة على الطريق المنحدرة البيضاء. كان راع يسير باتجاه الشمال يلحق به قطع صغير على طول الطريق الذي قد يكون أغاممنون⁽¹⁾ Agamemnon قد سار عليه ذاهباً إلى حتفه.

ثمّ ذهبنا نزولاً في طريق آخر، كان جون يعرفه، يقع في الجانب الغربي من المنحدر، وهو طريق سرّي فُتح حتّى يستطيع الرجال التسلّل منه منزلقين خارجاً بالخفاء في الأوقات الصعبة تحت الطريق عبر الصخر وينتهي على مجموعة من الدرجات

(1) الاسم في الإغريقية القديمة: Ἀγαμέμνων، ويقابله في اليونانية الحديثة: أغاممنوناس Agamemnonas، ويعني: قائد الجمع.

المنحدرة. سرنا إلى نوبليا عند حلول المساء فوجدنا غراً في بيت صغير على حافة الماء تطلّ على القلعة الفينيسية في الخليج.

لم تقدّم الأسرّة القاسية لأطرافنا المرهقة الراحة المطلوبة، ممّا جعلنا نستيقظ مبكرين. في الصّباح التّالي وبعد الإفطار المؤلّف من القهوة والخبز وزبدة حليب الماعز ذهبنا قاصدين إبيداوروس Epidaurus التي تقع قرب السّاحل الشّرقي لأرغوليد Argolid، وبعد خمس دقائق من السّير السّريع والمناظر الخلّابة والصّحبة المرحّة نسينا قسوة اللّيلة الماضية. لم تكن هنالك معالِم محدّدة للطّريق، فأحياناً كنّا نجد أنفسنا في الوادي نتّبع جدولاً بتيّاً يخترق أخدودَ بساتين الزّيتون الغضّة، وقد توشّح العشب الزّاهي باللّون البنفسجي والقرمزي وشقائق النّعمان البيضاء، بينما تمايلت رؤوسُ التّرجس البرّي برشاقة بلونها الزّهري المغبرّ، وتوهّجت رقعّات حمراء محروثة بين العشب الأخضر، وعبقت رائحة الزّهور والأعشاب في كلّ مكان، وامتزج صوتُ خرير الماء مع رنين أجراس الماعز أو وقع حوافر الحمير المحمّلة بأخشاب الأعشاب، وهي تتحسّس طريقها بمهارة. اقتربنا على طول الطّريق حيث كنّا نشقّ طريقنا صعوداً بصعوبة أكثر على سفح التّلة الأجرد حيث تصبح البراري أكثر وعورةً.

تقع إبيداوروس Epidaurus في قلب كل هذا الجمال حيث قدّمنا بعد العصر. كنّا نسير قريباً من أحراج الصّنوبر عندما تخلّلتها الشّمس فأضاءت كتل الرّخام الموجودة بين الأعشاب ثمّ أخرى، وأخرى حتّى صرنا نتحسّس طريقنا ببطء بين الأطلال المترامية. وخيّم علينا ظلالُ تيرينس وميسينا المركّبة عندما بدأ جون وهيلدا يُشيران إلى الأبنية المعقّدة المنتشرة حولنا ويشرحان لنا عنها. بدأنا نحسّ بظلال الخطر والموت التي بعثتها فينا، وما لبثت فينا طوال هذا اليوم الرّائع، ولم نتخلّص منها إلّا عندما وصلنا إلى أطلال إبيداوروس الدّقيقة البرّاقة فأخذتنا إلى الوراء ألف سنة إلى عصر الثقافة الرّاقية أيّام الحضارة والرّقي للعلم واللّهُو والضّحك. في تلك الأيّام الكلاسيكيّة (القديمة) أنشئ نوع من المراكز الصّحيّة وهو محراب إيسكولاپيوس Aesculapius وفيه

حمامات ومعابد وبيوت استراحة. مع تناميها وتوسّعها اضطرّ اليونان لبناء ساحات ألعاب لإقامة المباريات الرياضية عليها. وقد رأينا ساحتها المستوية وراء الأشجار في الخارج لم تنزل موجودة مع طبقات مقاعدها البيضاء على امتداد كل جانب من أجل المشاهدين. غير أنّ متعة الكمال الجسدي والبسالة لم تكن لتشبع اليونانيين في ساعات لهُوهم، فوجدوا متعة العقل.

قريباً من هذا الملعب، نجد بقايا أكبر وأرقى مسارح اليونان قاطبة. يقع المسرح في فجوة ضخمة في الهضبة التي تدور حول المدينة، وله ستون إطاراً من المقاعد المؤهّلة لتستوعب عدّة آلاف من محبّي المسرح. أعلاها يبعد مسافة كبيرة إلى الأعلى عن ساحة المسرح حيث يقوم الممثلون بأداء أدوارهم، ولكنّ المسرح نصف الدائري كان يشبه شكل مروحة السيّد وأتبع خصائص لمجال سمع مثالي حيث لم يضطرّ الممثلون لرفع أصواتهم كي تُسمع في أبعد نقطة من المسرح. وقد قمنا بتجربة ذلك فوجدنا أنّ صوت إشعال عود الثّقاب في أدنى نقطة على المسرح سُمع كما لو أنّه حدث قرب الأذن.

بعد ذلك في المساء تصدّينا لتلة أحراج ونزلنا على منحدر لطيف إلى إبيداوروس الجديدة على الشاطئ الشرقي لليلوبونيز، وتلاّأت الأضواء منعكسة على سطح المياه الساكنة حيث مازالت شبكات الصّيد ممدّدة. وفي تجمّعات البيوت الصّغيرة حول جانب رصيف الميناء أيضاً كان عدّة رجال يتجاذبون أطراف الحديث ويدخّنون قرب قواربهم، فسكتوا فجأة محدّقين بالغرباء الخمسة الذين كانوا يتقدّمون ببطء أو ربّما في حالة واحدة، وقد ترنّحوا نزولاً من الطريق بين الأشجار، غير أنّهم اعتادوا على الغرباء من بلاد أخرى الذين كانوا يقطعون مسافات طويلة من الكيلومترات سيراً على الأقدام، أو يأتون على ظهور البغال، أو ربّما يتجرّأون على السير على الطريق الوعرة في سيّاراتهم من أجل رؤية الصّخور التّاريخيّة في بلدتهم. ويجد كثير من المشاة طريقهم بعيداً باتّجاه مجموعتهم الصّغيرة بحثاً عن الطّعام والمأوى عوضاً عن العودة إلى نوبليا Nauplia بعدما استكشفوا الآثار القديمة المجاورة.

خلال دقيقة تمّ تحديد مكان إقامتنا ومبيتنا من قبلهم، وكان بينهم تنافس ممتع على

مَنْ منهم سيقوم بتهيئة أمورنا. كان كلٌّ من جون وهيلدا وأوريستس Orestes يتدخلون في الحديث كلّما سنحت لهم الفرصة، بينما انتحيت أنا وهيلاري إلى جدار بحري منخفض. كانت هيلاري تتأفّف بين الفينة والأخرى وتقول: «إنّهُ غصروف ركبتى» وأمّا أنا فقد كان ألم قرح متورّم على كعب أحد قدميّ قد بدأ يغرز في يقظتي قبل وصولنا إلى الموقع، واستحوذ على انتباهي بشدّة طول مسافة الميل الأخير الذي قطعناه فعرفت ماذا كان يعني.

إن السّير الطّويل في اليونان كان يتمّ بشكل عمودي سواء كان تسلّقاً قصيراً أم جبلاً بعيدة، فالركب تتحمّل الجهد الكبير أكثر من الكواحل والأقدام، وكذلك الأمر أسوأ عند الهبوط في المنحدرات، ولكنك عندما تجلس وتسترخي وأنت تعلم أنّك قد وصلت إلى هدفك لذلك اليوم، ثمّ حين ترأّب المياه الساكنة والجبال الشّامخة الهادئة التي تحمي الخليج مع أصوات ضحكات اليونانيين ومزاجهم يملأ سمعك مسترجعاً الجمال الذي مرّرت به ذلك اليوم مع خيال تلك اللّحظة، لعلك تنسى بعض الشيء آلامك وكعب قدمك الدّامي، بل ويجعله جزءاً من المتعة وقد يشفيه.

انفضّ الاجتماع بعد فترة وتوجّهنا إلى منزل على حافة الماء عند الملح الهشّ العتيق، فحيّتنا زوجته السّمراء البشوشة وهي ملفّحة بشال⁽¹⁾ أسود، وأثناء ذلك كان أوريستس Orestes قد ذهب خارجاً إلى مكان ما مع رفاقه الجدد، وجلسنا برهةً بسعادة غامرة صامتين، نأكل حبّات الزّيتون الأسود الصّغيرة في ردهة الاستقبال الضيّقة التي كانت تملؤها طاولة غطيّت بغطاء من القטיפه⁽²⁾ الحمراء تحمل فانوس زيت صمّم بطراز قديم. بعد وقت قصير كنّا نأكل السمك الطّازج المقلّي الشّهّي، ولقيمات من أطراف الأخطبوط، ونحتسي خمر اليونان الشّاحب ذا النّكهة الغريبة التي جعلتني دوماً أفكر برائحة الأفحوان النّفاذة.

أقمنا يومين في ذلك المكان الجميل، فشفيت العضلات المتشنّجة وكذلك برئت

(1) شال: دثار.

(2) القטיפه: دثار مخمّل. (القاموس المحيط، ص 1093).

القروح. كنّا نسبح حول الزوارق الصّغيرة (الفلوكات) التي طُليتْ بألوان مرحة في الميناء الصّغير وتعرضنا لأشعة الشمس في حقول الزّيتون المشمسة في المنحدرات الخضراء. تابعنا المسير في صباح باكر باتجاه الشّمال لنجد طريقاً مختصراً يذهب إلى الشّاطئ الشّمالي من الپيلوپونيز وبدأنا على الفور بالتسلّق داخل بلدة منعزلة جبليّة، لم يكن جون وهيلدا قد زارا هذا المكان من قبل وكذلك أوريستس الفتى لم يكن قد ذهب شرقاً باتجاه نوپليا. كان سكّان إپيداوروس الجديدة New Epidaurus الطّيبون يعلمون بوجود قرية تُدعى سوفيكو Sophiko في مكان ما إلى الشّمال منهم في الجبال الشّاهقة، ولكن عبر طريق البغال فقط، ولم يستطيعوا تقدير عدد السّاعات التي نحتاجها للوصول إليها سيراً على الأقدام. لم يكن أحد في اليونان يحلم بإعطاء طول المسافة بالأميال لأيّ مكان، لسبب معقول وهو أنّ الأميال في المسافة الأفقيّة والعموديّة تأخذ أوقاتاً مختلفة لقطعها سيراً على الأقدام، والوقت هو المقياس الوحيد غير العملي عند التّطبيق.

وجد جون سوفيكو Sophiko على خريطته، ويبدو أنّها تقع على بعد عشرة أميال. وقال مبتهجاً بأنّ ذلك لا يعني شيئاً، إذ أنّ المخطّط يظهر بأنّها تقع في أرض صعبة إلى الأمام. وهكذا كان، فقد تتبّعنا دربَ البغال ننعطف ونتسلّق وننحدر، وخلفنا عدداً من الوديان المخفيّة والجروود العالية وأكتاف الجبال وراءنا، وبعد ذلك كنّا في المساء على سفح جبل عال في الجانب الغربي من وادٍ سحيق ينحدر مبتعداً إلى اليمين لمسافة ما يقارب ألف قدم. جلس جون وقدماه فوق الحاقّة، وأخرج خريطته، إذ أنّنا لم نرَ بشراً، ولم نمرّ على بيت طوال اليوم. قال متردّداً وهو يشير إلى الخارطة: «لا بدّ أنّنا هنا تقريباً، ولكنني لست متأكّداً أيّ واحد من تلك الوديان قد قطعنا». لم يكن لدى أوريستس أيّ دليل وبدا مبهوراً⁽¹⁾ كيف أنّ بلدته تبدو غامضةً وغير مألوّفة له. ومضينا نسير في طابور من شخص واحد نراقب ظلالَ الجبل الذي نحن عليه وهي تزحف إلى أعلى سفح الجبل الذي يُقابل الوادي، فقد كانت الشّمس في طريقها إلى الغروب. سيكون من الصعب جدّاً المتابعة إلى الطّريق الوعر في القمّة، ولن يكون الأمر ساراً

(1) مبهوراً: البهت: الحيرة. (القاموس المحيط، ص 189).

أبدأ إذا أُجبرنا على قضاء ليلة من ليالي مارس الباردة في العراء.

عندما انعطفنا في إحدى الزوايا سمعنا فجأة صوتاً قادماً عبر الوادي، إنّه صوتُ فأس حطّاب، ثمّ توقّف، ويبدو أنّ صاحبه قد لمَحنا وكان يراقب منظراً غير عادي لخمسَةِ أشخاص يقطعون واديه سيراً على الأقدام دون بغل. فحيّاه أوريستس سائلاً: «كم تبعد سوفيكو؟» جاء صوت عبر الأشجار: «حوالي ساعتين، ولكنكم في الجانب الخطأ من الوادي ويجب عليكم العودة». كان قعر الوادي يبعد أميالاً خلفنا. قال أوريستس ثمّ أضاف: «هل يوجد ممرّ على جانبك؟» أجاب صاحبُ الفأس: «*Malista, Malista*.. ماليستا، ماليستا.. نعم، نعم، في الحقيقة يوجد على امتداد الأشجار، هناك».

استطعنا حينئذ أن نراه، وهو عبارة عن آثار ضعيفة في الخضار تقريباً على مستوى العلو الذي نحن فيه. فقالت هيلدا: «جون، لن نستطيع العودة فالظلام سيحل قريباً، لنجازف ونترحل». حملقنا إلى أسفل نحو المنحدر الجانبي من الجبل وإلى عمقه المظلم المتشابك، ولكن أيّ شيء كان أفضل من العودة إلى الوراء. هبطنا خارج الممرّ، وبدأنا بالانزلاق في أسفل السّفح المنحدر بين الصّخور والشّجيرات أحياناً بسرعة غير صحيّة. لحسن الحظّ لم يكن هناك نقاط شفّافة وماء مسفوح في قعر السّفح. وصلنا مستوى الأرض دون أذى، وكنا مقطوعي الأنفاس، مصابين ببعض الخدوش، مع بعض العلامات الخفيفة على مؤخرات التّنانير⁽¹⁾ والسراويل، وإثر ذلك بدأ جهاد الصّعود إلى الجانب الآخر. كان الفأس صامتاً طيلة ذلك الوقت، بيد أنّنا لما استأنفنا المسير إلى الأعلى على الطّريق الجديد بسلامة سمعنا صوت ضربات الفأس وهي تقطع الأخشاب بخفّة ومرح. فلا بدّ أنّ عينا مهتمّة خفيّة كانت تحرّسنا طوال الوقت.

يا له من شعور مبهم سعيد أن تكون محروساً ومسيّراً ممّن لم تره أبداً.

كان هذا الجانب من الوادي مضاءً بشكل أكبر، وقد تقدّمنا بهمة وثقة متجدّدة وأجسام مرهقة. وبدا أوريستس متحيّراً فيما إذا كان عمله كدليل هو ما فكّر فيه. بدأت

(1) التّنانير: جمع تنورة: إزار يلبس في الجزء السفلي من البدن.

معنوياتنا تضعف مع اشتداد الظلام، وكان أوريستيس يسبقنا بالمسير وكأنه يتوجب عليه شخصياً أن يجد القرية المفقودة لنا. ثم بدأت الغيوم تتراكم فوق رؤوسنا، والرياح الباردة تصفر أمامنا. وعندما كنا قد مشينا مسافة أطول من الساعتين التي قال عنها الحطاب، وكنا ندور حول بروز جبلي آخر ظهر لنا، اقترح جون أن نرحل صعباً بهدوء لنرى إن كان بإمكاننا أن نلمح القرية فانعطفنا عند الزاوية وحملقنا. التففنا حول المنعطف، وحدقنا في أعماق واد فارغ آخر. ولكنه هذه المرة يمر عبر طريقنا، وعنده يرتفع جبل ضخيم، لم يكن هناك ضوء أو أي مظهر لوجود بشري كدخان حطب.

مال طريقنا نحو اليمين ورأينا أوريستيس وقد تقدمنا في ذلك الاتجاه مقابل الفتحة السماوية حيث كان قد تسلق مرتفعاً صخرياً عالياً على طول طريقنا ليرى بوضوح أكثر من فوقه، كان يلوح بقبعته ويشير بعيداً نحو المكان الذي لم نكن نستطيع رؤيته، فتبعنا طريقه الوعر حتى إن نعل حذائي الأيمن قد انفصل عنه، وكاد الظلام أن يخيم ونحن نتعث في طريقنا فوق الصخور الملساء باتجاه الكتل الضخمة القائمة. كان جون وهيلدا قد تقدما وأقبلت وهيلاري على ثلاثهم في الأعلى حيث وقفوا، وكان جون يتمم قائلاً: «جميل جميل»، فقد وجد أوريستيس لنا قرية سوفيكو Sophiko التي تقع غير بعيدة عنا عبر الوادي، حيث تتجمع بيوت باللونين الأبيض والبني تومض فيها نقاط الأنوار المتألثة. نزلنا مرة أخرى إلى الوادي الضيق وقطعناه، فصادفنا بعض القرويين عائدین إلى بيوتهم، نساء معهن حمير محملة بأحطاب الأشجار ورعاة وقطعان ماعز، وكلهم يبحثون عن الطعام والمأوى والاستراحة.

كان طريق الصعود المتعرج عريضاً باتجاه القرية، وكان سهلاً قياساً بالمرمر المليء بالصخور الذي طرقناه سالفاً، وعند وصولنا إلى الطريق المرصوف بالأحجار كان جون قد استعلم من مرافقينا عن المكان الذي قد نجد فيه نزلاً ناوي إليه في المساء.

عند وصولنا إلى باب الحانة المضاء كان الظلام قد أصبح حالكاً، وقد سار معنا معظم سكان القرية. نظرت إلى الخلف لبرهة من فوق الجدار الحاجز المنخفض على جانب الطريق، فوجدت ذلك الجدار مفيداً جداً في مكان كهذا، إذ لولاه قد يقع كثير

من القرويين في الوادي.

تطاولت الجبال الضخمة من جهة الجنوب نحو النجوم، وعندما دخلت في أجواء التزل المحصورة الدافئة، وسمعت صوت صرير الباب الخشبي القديم وهو يغلق خلفنا أحسست بالمتعة البدائية بالحصول على الدفء والمأوى، وهي الأشياء الأساسية في الحياة وكأني حصلت على كسب ثمين.

عادت الركب والكواحل تنبض نبض الراحة قريباً من الكانون المتوهج، وروح الدفء في النار ترسل رسائل السعادة للحناجر المتجمدة من البرد، بينما كان أصحاب التزل الطيبين يحركون رؤوسهم باهتمام حول تفاصيل العشاء القادم. والرجل ذو العباء والحذاء العالي يسأل أسئلة كثيرة عن رحلتنا وطبيعة عملنا ووجهتنا، ويسأل عن عائلتنا، وكانت النافذة قد أغلقتها الوجوه المهمة فأطبقت عليها.

اكتشف جون في الصباح التالي طريقاً حقيقياً يمتد في الجانب الآخر من القرية، وخلافاً للظاهر فهو يصل بعيداً باتجاه الشمال عبر الجبال إلى كورنثة، كما توجد حافلة تقطعه ذهاباً وإياباً مرتين في الأسبوع. فقرّرنا بأن مسيرة الأمس كانت تعادل ثلاث مسيرات طبيعية، وشعرنا بأن ركوب الباص كان مكسباً وتكريماً في هذه الحالة. كان من المفترض أن نركب أنا وهيلاري مركباً يذهب إلى بيرايوس Piraeus بعد ثلاثة أيام؛ ولم نجد محاولات الترميم التي قامت بها هيلاري نفعاً في إصلاح حذائي الأيمن الذي أصبح قطعتين، ولم توصلها الخيوط الكثيرة والعقد لمدة أطول من نصف ساعة. بعد أن أخبرنا مضيفنا بأنه ربما يكون هناك حافلة مغادرة حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً، ذهبنا وجلسنا وانتظرنا في طابور تحت أشعة الشمس في الساحة الصغيرة المرصوفة بالحجارة، ولم يحدث شيء خلال ساعة كاملة.. ثم أوضح لنا أحد السكّان القدامى في القرية بأن الرحلة لا تبدأ من قريتهم ولكنها تبدأ من كورنثة، ومن الممكن أن يكون أمر ما قد حدث في طريق قدومه. فعدنا أدراجنا إلى التزل، وطلبنا بعض الطعام، وأثناء تناولنا الطعام سمعنا صوتاً في الخارج كصوت فرسان يقومون بعرض موسيقي برقائق حديدية مموّجة. فهرولنا خارجاً لنجد حافلة متداعية في منتصف

السّاحة، والبخارُ يتدقّق من جميع مفاصلها، ويتدقّق خارجاً من بابها حوالي خمسين شخصاً. عدنا مسرعين إلى النّزل، ودفعنا كلفة الطّعام بهلع، وعدنا فوراً إلى الحافلة، وأنا في آخر المجموعة أجزّ قدمي فقد برز قسم آخر من رباط الحذاء.

مررتُ بهيلاري عائدة بسرعة إلى النّزل. فصرخت بملء فمها: «كنا نسير باتجاه طريق ثمّ انقلبنا باتجاه طريق آخر».. «كنت سأنسى كاميرتي المتهالكة». كانت السّاعة الواحدة ونصف وسائق الحافلة قد اختفى، فعاد القروي القديم نفسه ليخبرنا بأن قيادة الحافلة صعوداً من كورنثة إلى هنا صعبة جداً لذلك توجّب على السّائق أن يأكل ويأخذ قسطاً من الرّاحة والثّوم الهادئ قبل العودة. فذهبنا وجلسنا في طابور تحت الشّمس في السّاحة الصّغيرة الحجريّة وانتظرنا. وبعد حوالي السّاعة أشيع بيننا بأنّ السّائق مازال نائماً وغالباً لن يستطيع العودة إلى كورنثة في ذلك اليوم بل في صباح اليوم التّالي، باكراً جداً جداً. فعدنا أدراجنا إلى النّزل.

تحوّل الصّباح الباكر جداً إلى السّاعة الحادية عشرة والنصف، عندما رافقنا حشد من النّاس يحاولون الصّعود إلى الحافلة. انطلقت الحافلة تزحف مترنحة على الطّريق المرصوف بالحجارة باتجاه الطّريق الذي يدور حول التّواء الجبلي، ولديّ اعتقاد بأنّ حمولتها قد تجاوزت مستوى حمولة السّلامة، واختفت Sophiko عن أنظارنا إلى الأبد. لاحظتُ بعصبية كيف أنّ بعض السيّدات من المسافرين قد اندسّسن أثناء الصّعود إلى الحافلة.

قال جون: «لأنّ السّائقين في هذه البلدة عادة ملهمون. فليس من دأع بأن تشعري بالتوتر إلا إذا رأيتني قد بدأت بالارتعاش».

لم أشعر بالسّعادة لسماع ذلك. أظنّ أنّنا كنّا نسير بمحاذاة الشّاطئ معظم الوقت، وندور حول المنعطفات بسرعة عالية مشرفين على أعماق سحيقة تحتنا تثير الدّوار، ماّرين فوق بقايا انهيارات صخور تحدث أحياناً حول الممر.

في إحدى المناطق وقع أحد اللوالب الأماميّة فأصبحنا نمشي الهوينى وترنّحنا في

بركة ماء ضحلة، بينما قفز كلُّ الرجال من الحافلة، وركضوا إلى الأمام لرؤية ما حدث. فبدوا كأنَّهم ضائعون وهم يفرعون الذئاب كما علَّمهم بطرس بالنظر إليها من الأعلى إلى الأسفل بين ركبهم. كان الهياج في ذروته، واستطاعوا أخيراً أن يكسروا قطعةً مما كان متديلاً ويقرقُع طوال الطريق ثمَّ صعدوا عائدين إلى أماكنهم في الحافلة حاملين تلك القطعة معهم، وهم يتناقشون بسعادة.

علّق السائقُ غيارَ السرعة رافعاً يديه الاثنتين عن المقود ليشير بهما بحركة استكانة جميلة يقوم بها اليونانيون. قالت هيلدا وهي تغمضُ عينيها عندما كنَّا نستجمع السرعة لندور حول المنعطف التالي: «وداعاً لها طالما أنها ليست قطعةً أساسيّةً في الفرامل».

ظهر البحر فجأةً مرةً أخرى. كنَّا ننظر إليه من مكان مرتفع جداً على جانبي برزخ كورنثة وبعيداً باتجاه الشمال الشرقي استطعنا رؤيةَ خط هيميتّوس Hymettus معلّقاً فوق أثينا؛ وهناك في الشمال الغربي ما وراء اللون الفيروزي رأينا أمواج خليج كورنثة المتوجّهة بالبياض، وارتفعت قبالة السماء قممُ پارناسوس Parnassos المتلاثلة المغطّاة بالثلوج.

قمنا بعمل دورة كاملة حولَ هذه الزاوية من أرغوليد Argolid. وبعد ساعات قليلة كنَّا نلوحُ بالوداع لأوريسْتِس Orestes حيث كان واقفاً على حافة رصيف في كورنثة، لأنَّنا كنَّا قد استقلّينا القطارَ الوحيد في ذلك اليوم عندما كان يسخن محرّكه للانطلاق في طريقه الطويل حولَ الساحل عائداً إلى أثينا. بدا أوريسْتِس وحيداً ودقيقاً وظلّ يتسم متابعاً التلوّيح بقبعته حيث كان واقفاً هناك وهو يتضاءل شيئاً فشيئاً ونحن نتقدّم في طريقنا باتجاه القنال؛ ألم يصبح دليلاً؟ لقد وصل إلى سوفيكو Sophiko وهو الآن في طريقه عائداً إلى إخوته وإلى عمله اليومي في التزلّ وإلى كتاب الجُمَل الصّغير، كلُّهم ينتظرونه تحت ظلال ميسينا⁽¹⁾ Mycenae الذهبيّة.



(1) اللفظ اليوناني الأصلي للاسم: ميكيناي Μυκῆναι، أو ميكينِه Μυκῆνη. لكننا نضطر إلى إدراجه حسب ما اعتادته الأسماع نقلاً عن الصيغة الشائعة في الإنكليزية والفرنسية.

بعد يومين كانت سفينتنا تترنّح وتدور حول ميناء بيرايوس Piraeus لتدخل في فم الميناء صاح جون: «السّنة القادمة إلى كريت». نعم كريت Crete السّنة القادمة. لم يكن كلُّ شيء قد انتهى، فربّما سأعود إلى هذا المكان السّاحر لدفع الشّمس والقمر الثّلجيّة للبحر، للأرض الحمراء والهواء العابق بعطر العسل لأتمايلَ عبرَ وديانها وأتسلق بمشقة مرتفعاتها مرّةً أخرى، إنّها لفكرة تتواسى بها عندما كنت وهيلاري نسافر باتجاه الشّمال، وهي فكرة تبعث الدفء عندما وطئنا البندقية Venice التي كانت مكلّلة بالثلوج الكثيفة، إنّها البندقية الغربية التي لُوت باللّونين الأبيض والأسود.

كنا نرتجف متّحدين في معاطفنا عندما نَقَلْنَا زورق سريع صغير من السّفينة إلى المحطّة، وهو يثزّ في الممرّات في المياه السوداء السّاكنة التي توجد بين الجدران الصّماء والمداخل المغلقة والقضبان الموصدة وكنا نمّر تحت الجسور المقفرة وكلها نُحتت وحُدّت بشكل رائع تحت بهارجها الحديثة ذات اللّون الأبيض الفضيّ. أصبحنا في منأى كبير عن جمال جفاف شمس مصر وتألّق ربيع اليونان، ومضينا في طريقنا إلى الشّمال.

كانت لندن رطبةً باردةً وكثيئةً، ولكن ليس الطّقْس وحده الذي جمّد معنوياتي في الأيام الأولى، إذ كنا نصارعُ الرّياح الرّمليّة وشلّالات الأمطار القاتمة، ونرى حشوداً مسرعةً بوجوه شاحبة، بينما كانت طلائع الرّوابي لزهور الرّبيع تتوالى على طول شارع Oxford. وهناك كانت أكوام من زهر الميموزا باللّون الزّعفراني وأكوام الباقات الضيقة من شقائق النّعمان وفصائل الرّنبق المبهجة، فلم أستطع النّظر إلى شقائق النّعمان دون غصّة ودون أن تهاجمني ذكرى العشب الأخضر تحت بساتين الزّيتون حيث نثر أحد الآلهة الإغريق عدداً لا يُحصى من الجواهر، وتركها تتلأأ في الأعشاب. لا لم يكن الطّقْس وحده، ففي صحيفة التايمز The Times ورد في فقرة من تقرير بأنه وقعت في اليونان هزة أرضيّة عنيفة أدّت إلى انهيار قرية صغيرة انهياراً كاملاً وهذه القرية تقع في الشّمال الشرقيّ من الپيلوپونيز، وتدعى قرية سوفيكو، وكذلك كانت الأخبار عندما راجعتُ المكتبُ تزيد انخفاض درجة الحرارة أكثر، إذ مازال يلوح في الجوّ الحاجةُ

إلى التخفيضات والاقتصاد المريع، وقد يستمرُّ إلى عدَّة سنين، وأصبح من المؤكَّد تقريباً إنهاء التَّقيُّب في تلَّ العمارنة، وفي هذه الحالة من المستبعد تعيين سكرتيرين اثنين في مكتب لندن.

كم كنت غيَّبة أن أعتقد بأنَّ هذا النمط السَّاحر سيستمرُّ بلا نهاية: لندن - مصر - اليونان، ثمَّ لندن - مصر - كريت، ولندن - مصر - ومن ثمَّ إلى أين؟ لا لقد انتهى الأمر، ومن الأفضل لي أن أبدأ البحث عن عمل سكرتاري عادي.

سوف أكون محظوظة إن لم يخلص إلى شيء تقليدي جداً محشوبين رحلتين يومياً في طريق الأنفاق في ساعات الذَّروة القصوى. جيد، ولمَ لا؟ ولم يتوجَّب عليَّ أن أتوقَّع أكثر بكثير من العمل السَّكرتاري الاعتيادي؟ لقد أفسدني الحظُّ الذهبي الذي حظَّيتُ به فانبهرت بكثرة الشَّمس الذهبيَّة السَّاطعة. كريت في العام القادم؟ لا - لقد انتهى كلُّ شيء.



الفصل الثاني

انقضت الأسابيع الأخيرة في لندن بسرعة، فتدلت أوراق شجر الدّلب في ساحة تافيستوك Tavistock في حرّ الصيف، والتي تتحرك فقط عندما تفرقع الباصات وهي مارة بقربها فتتحرك الهواء، والتي كانت لتوها بدأت بالتحول إلى اللون القاتم إلى أن تأخذ لونها البنيّ الخريفيّ. كنت ما زلت أتابع بفتور قراءة الإعلانات المسماة «مطلوب سكرتير» على أن يكون لبقاً، مرحاً، لا يشترط إجادته مسك الدفاتر (الحسابات)، يستطيع قيادة سيارة، أو تمشيط كلب، أو قراءة اختبارات باللغة الغالّية الاسكتلندية، أو أخذ قريب مجنون للنزهة.

لم يكن واضحاً الحاجة إلى سكرتير يحبّ الاستماع إلى عامل مصريّ يغني وهو ينقّب عن معابد قديمة، أو سكرتير يحبّ الجلوس قرب مجمرة في حانة يونانية.

تابعت بفتور بعض الإعلانات، وكنت سعيدة أيضاً عندما وجدت نفسي لسبب أو لآخر على الرصيف بعد المقابلة وأنا أشعر بالطمأنينة، كنت أعلم جيداً أيضاً أنه كان من المستحيل تقريباً أن أجد عملاً آخر في حقل الآثار من النوع نفسه - لبعثة منقبي آثار إنكليز تواجههم دوماً مشكلة كيف لهم توسيع تمويل غير كاف لأماكن تنقيب يمكنهم الذهاب إليها - انتابني فكرة أن أندمج في البريد العادي، مهما كانت المتعة التي يمكن أن تتحقق بالنتيجة، وعزلت نفسي عن السعادة التي عرفتتها، وعندما أسمع في وقت متأخر جداً بأن معجزة ما قد حصلت، وأنّ شخصاً مثلي قد طُلب للتنقيب، وأنني قد فقدت فرصتي.

علمتُ أخيراً أنّه يجدرُ بي التخلي عن سياسة الهدنة اليائسة ومواصلة البحث.

انصرفْتُ ذاتَ يومٍ قبلَ موعدِ الغداءِ بساعةٍ، وذهبتُ إلى المدينة لأرى مديرَ مستودعِ التوزيعِ لشركة مشهورة تُصنِّعُ بضائعَ من جلدِ الشَّاموا، غالباً قفازاتٍ ومعاطفَ، بدا المديرُ بحاجة ماسّة إلى سكرتيرٍ يساعد في مكانٍ ما في نهاية شارعِ وود wood street الذي ينتهي إلى شارع تشيپسايد Cheapside، فقلتُ لنفسي لأجعلها تبدو أكثرَ رومانسية إنّه ربما من الممتع العمل في المدينة في جوار St. Paul's.

كان السيد أوماني Ommaney مفاجأة، فقد كنتُ متوقّعةً أنّ مديرَ شركة كبيرة كهذه أن يكون أحمرَ الوجه، وسميناً، وصارماً، لكنه كان نحيلاً جداً، شاحباً، ولطيفاً، أجرى المقابلةَ معي في مكتب صغير خارجَ طابقِ المستودع الرئيس، والذي كان أشبه بمحلّ تجاريّ ضخمٍ من دون زبائن، امتدت منضدتان طويلتان واسعتان على جانبي باب المدخل، ورُصّت الرفوفُ خلفَ الطاولاتِ بصناديقَ من الكرتون الأبيض. ملئت المساحة بين الطاولات والرفوف رجال يدفعون سلالهم هنا وهناك مندفعين أعلى وأسفل السلالم، ويسحبون الصناديقَ عن الرفوف، مطلقين صيحات غريبة، ثم يرمون الصناديق بعنف على الطاولات. بينما يقوم أشخاص آخرون برفع الصناديق عن الطاولات بصرخات أقوى وينطلقون بها إلى المسافة البعيدة.

لاحظتُ رقعةً على واحدة أو أكثرَ من الصناديق التي مررتُ بها، تقول إحداها:

“Handsewn Nutria Prickseam Velbex Gauntlets”.

ظهر وكأنه كان عليّ أن ألقُ اختصارات جديدة. كان الضجيج قد خمد قليلاً في المكتب، ولكنني لاحظتُ أنّ مستر أوماني Mr. Ommaney أغلق عينيه عند كلّ صوت ارتطام، وضاعت نهايةُ حديثه. كان صوته هادئاً جداً، وتكلم في فترات الهدوء فقط، وأخبرني أنه عوفي لتوّه من انهيار عصبيّ، ولقد أراد بشكل ملحّ المساعدة بالعمل الكتابي الذي كان مستواه كثيفاً وأعلى من قدرة ضارب الآلة الكاتبة في قسم المحاسبة. «أنا متأكد من أنك ستعتادين الضجيج بعد بضعة أيام» شعرتُ بموجة دعر لدى افتراضه بأنني سأخذ العمل. قال بهدوء: «أريد منك الذهاب إلى وورستر Worcester في الغالب، حيث يوجد المعمل»، وتابع بهدوء: «وهذا يمكن أن يحقق

لك تغييراً لطيفاً عن هُنا». (خبطة! «هيا هيا أيها الولد! أزل هذه القطعة المهرتة ابتسم وابدأ» صوت ارتطام وصوت خبطة!).

همس مبرراً: «أعلم أنها ساعات طويلة، ولكنني أعتقد أنه سيعجبك المبلغ، إنه جيد جداً». ولقد كان فعلاً كذلك.

«وأنا بحاجة ماسة جداً لشخص يرفع عني كلَّ العمل المكتوب الذي عليَّ إنجازه - شخص يمكنه الكتابة بإنكليزية صحيحة» تساءلتُ محدقةً بجبينه الجعد القلق، كيف كتبت بإنكليزية صحيحة جملة:

Handsewn Nutria Prickseam Velbex Gauntlets.

قلت: سأفكر بالموضوع. وقع نظري عندما كنت أتأمل البضائع على سترة جلدية صفراء ناعمة نسائية معروضة على حامل، استطعتُ رؤيتها من خلال الباب الزجاجي. همس عبر المكتب: «باستطاعة موظفينا الحصول على بضاعتنا بسعر التكلفة. هل تعتقدين أنه بإمكانك العمل في الأول من أغسطس؟» قلتُ مرةً أخرى سأفكر بالموضوع. انتقلنا مرةً أخرى من خلال قطع الصناديق المكدسة البيضاء نحو الباب الرئيسي، تصافحنا، وغاب عائدًا إلى مملكته الغربية.

فكرتُ وأنا في الباص أدور حول شارع St. Paul's العائد إلى محلة هولبورن Holborn بأنه يمكنني أن أقبل العمل لمدة معينة على أية حال. لقد كان عملاً غريباً، ولكنني أحببتُ مستر أوماني، كان هناك شيء أكثر من كونه عملاً، فلربما أستطيع عمل التغيير له بإعادة هدوء أعصابه، وإعادة التحكم بحياته مجدداً، أو منع لانهايار آخر، قد يكون النهاية في تلك المرة لمسؤوليته في العمل. وربما كان لديه في مكان ما زوجة متلهفة قلقة عليه. وبالنهاية كان عملاً جيداً بالنسبة لي يربطني بسلسلة لا تنتهي من المعاطف القصيرة ذات الألوان الزاهية لبقية الوقت إن أحببتُ.

نزلتُ من الباص في كينغزواي Kingsway وانعطفْتُ إلى جهة الشمال، ولكن في الوقت الذي وصلتُ إلى نسق ساوثامتون Southampton Row، علمتُ بأنني كنت

أخذت نفسي داخلياً، فأنا أكره الفكرة بشكل عام، وأكره الصراع اليومي في الباصات أو الأنفاق المزدحمة في طريق الذهاب والعودة إلى وود ستريت Wood Street وفي جميع حالات الطقس المختلفة؛ وازدحامات المدينة، والظلمة والضجيج في المستودع، والعمل الروتيني. عند ساحة رسل Russel Square كنت أفكر بتلك السترات القصيرة وبالعقدة التي فوق عينيه البنيتين الودودتين، ولدى وصولي باب المكتب في الطابق الأول للمنزل في ساحة تافيستوك Tavistock Square قررت أن أتصل به بعد فترة الغداء لأقول له بأني سأبدأ العمل في آب.

لم تكن سكرتيرة المجمع قد عادت من غذائها بعد، ولكن باب المكتب لم يكن مقفلاً، مما قد يعني بأن أحد الأعضاء دخل ليقراً في المكتبة قبل أن تغادر هي. كنت سعيدة لوجود أحد ما هناك ليشغل أفكاري إلى أن يأتي الوقت لأتصل به. وبكل بساطة يمكن أن يكون عضواً فتيماً في المنظمة، طالب يخطف بعض لحظات سعيدة من ساعة غذائه للبحث عن بعض حقائق علم الآثار المصرية، أو عالم قديم - اشتهر ربما - يميل على امتداد رفوف المكتبة للبحث عن بعض المجلدات المطلوبة. سمعتُ صوت إغلاق كتاب، فدخلت لأرى مَنْ كان هناك.

ما رأيت فتى غراً، ولا رجلاً كهلاً، ولكنني رأيت رجلاً نحيلاً، أسود الشعر، بحلاقة أنيقة، يرتدي بزة بنية، وله عيانان داكتان تحت حاجب ضخم، كان واقفاً ويده كتاب ضخم، يراقب الباب ليرى مَنْ القادم، حرّك رأسه اليقظ قليلاً. قلت: «أوه، مرحباً هانز».

أجاب: «هذا أنت.. جيد. كنت أريد رؤيتك». التفّ بسرعة باتجاه أرفف الكتب، معيداً الكتاب إلى مكانه والتفت إليّ.

كان هانز فرانكفورت⁽¹⁾ Hans Frankfort - البالغ الخامسة والثلاثين - معروفاً جداً

(1) هنري (هانز) فرانكفورت (1897-1954) عالم آثار هولندي ومستشرق وباحث في المصريات. ولد في أمستردام ودرس في جامعتها، ونال شهادة الدكتوراة من جامعة لايدن عام 1927. شغل بين 1925 و1929 منصب مدير التنقيب في الجمعية التنقيب المصرية بلندن، التي كانت تنقب في تلّ العمارة وأبيدوس، وفي عام 1929 دعاه جيمس هنري برستد ليصبح المدير الميداني

في أوساط علم الآثار القديمة، هولندياً، جاء كطالب من هولندا ليعمل تحت إشراف سير فليندرز پتري Sir Flinders Petrie. كان قد قرأ مصادفةً كتاباً صغيراً لپتري يتحدث فيه عن أهداف علم الآثار ومجالاته، أيقظ للمرة الأولى طموحه ليصبح هو نفسه عالم آثار. ولكي يحقق خبرته الأولى في مجال العمل فقد وجد له پتري مكاناً كمساعد ميداني في موقع التنقيب عن آثار ما قبل التاريخ في مصر. بدأ بحشد المعلومات والأدوات لكتابه المنشور الأول بسرعة، والذي كان دراسة مقارنة للآنية الفخارية للشرق الأدنى القديم، كان عملاً مرجعياً حتى هذا اليوم. كان مديراً للحقل في تلّ العمارنة في العام الماضي قبل جون پندلبري John Pendlebury. والآن هو مديرُ المواقع لبعثة التنقيب التابعة للمعهد الشرقي في جامعة شيكاغو:

Iraq Expedition of the Oriental Institute of the University of Chicago.

كان جيمس هنري برستيد James Henrey Breasted مؤسس المعهد الشرقي ومديره مسافراً عبر مصرَ في فريق مع جون د. روكفلر الابن⁽¹⁾ John D. Rockefeller Jr منذ عدة سنوات، الذي كان قد زاره في تلّ العمارنة. بعد عودته بفترة بسيطة إلى شيكاغو كتب له طالباً منه أن يتسلّم قيادة البعثة في ما بين النهرين إن أمكن، والتي شكّلت جزءاً من بعثة أثرية ضخمة نُفذت من قبل المعهد الشرقي بدعم من روكفلر. قال: «سمعتُ أنّك ستغادرين هذا المكان».

أجبت بحزن: «نعم، أعتقد أنه عائد لأسباب مالية، بدأ أنهم يعتقدون بأنني كنت

لبعثة تنقيب المعهد الشرقي (OI) التابع لجامعة شيكاغو، العاملة في العراق، فكانت حصيلتها اكتشاف حضارة إشنونا السومرية وقناة ستّحريب في جروان. كما نشر بعدها دراسة هامة جداً له عن الأختام الأسطوانية عام 1939، وله إجمالاً 15 مؤلفاً و73 مقالة علمية.

(1) الملياردير الأميركي جون دافيسون روكفلر الابن (1874-1960) John Davison Rockefeller Jr. ثري أميركي وصاحب أعمال خيرية كثيرة. وهو الابن الذكر الوحيد لجون روكفلر، أغنى أغنياء أميركا في عصره، وأحد مؤسسي شركة ستاندرد أويل أوف أميركا Standard Oil of America عام 1880، الذي صار عام 1916 أول من يملك مليار دولار في العالم. يُعرف ابنه المذكور هنا بجون الابن Junior.

مفيدةً هناك في الخارج».

أخرج تعبيراً بلعومياً جميلاً يقوم به عندما يكون متحمساً جداً.

طبعاً لقد كنت مفيدة - وكلُّ مواقع التنقيب تتطلب سكرتيرة - فلم الخجل؟

نوّت بأني كنت أشعرُ بحياء شديد في تلك اللحظة، ثم قال بهدوء: «آه لقد سمعت من شيكاغو بأنهم ما استطاعوا، ولن يستطيعوا تحملَ طباعتي أو مسكي للدفاتر لفصل آخر».

فكرتُ بطباعة هانز الركيكة حين كان عليّ مراراً أن أوضحها عند إرسال التقارير العائدة من مصر - وقرّرت بأنه لا بدّ أن شيكاغو لديها شيئاً ما.

تابع: «حاولتُ أنا وجايك Jake الفصل الماضي القيام بكلّ الحسابات - لأربعة أشهر منها - في القطار في يوم واحد وأنا مسافر بين أنطاكية واسطنبول، لكن شيكاغو لم تعجبها النتيجة».

سألته بأدب، وأنا أحاول أن أبعدَ نظري خوفاً من حدس يفاجئني، جعل قلبي ينبضُ بطريقة غريبة: «منْ يكون جايك Jake؟». لم يخضع جايك للتذكير بلا جدوى وقال: «إنه عالم ألمعي في الآثار السومرية - ولكن لم يكن محاسباً جيداً. وكذلك لم أكن أنا - مرّ بنا وقت عصيب وانتهى بما يقارب ألف دولار في حقل كان علينا أن نوجده أسميناه «مواد مجهولة».

ضحكتُ للمرة الأولى منذ أسابيع. ولكن كنت مرتعشة قليلاً.

«حسناً، ماذا تنوي أن تفعلَ بشأن ذلك، يا هانز؟ إنه لأمر سيء تبديد وقت عالم ليقوم بهذا الجانب من العمل. أظن أنني أثبت هذا في العمارنة لأنه يجب أن ينفذ بشكل صحيح، وهذا يأخذ من الوقت الكثير».

أجاب: «بالضبط، وقد أخبرتهم، كتبْتُ إلى شيكاغو حول ذلك منذ أسابيع - ووافقوا بحماس». (لا يمكن، لا يمكن، لا يمكن أن يحصل ذلك). «أريد أن أعلم

فيما إذا كنت ستصبحين سكرتيرتي، لتفعلي فقط كما فعلت في العمارنة. عدنا في أكتوبر - نفكر في ذلك ليوم أو يومين».

قلت: «لست بحاجة للتفكير بذلك ليوم أو يومين، أنا قادمة».



كانت خطوتي الأولى باتجاه منطقة ما بين النهرين نصف ميل جنوباً من ساحة تافيستوك Tavistock Square. كان مكتب لندن للبعثة إلى العراق عبارة عن غرفة صغيرة في الطابق العلوي من مجموعة غير واضحة، مكاتب متواصلة في الانحراف الذي يخترق الشارع. الذي يتداخل في نقطة ترابط كينغزواي وهارت ستريت Hart Street، عُرف بشارع صقلية Sicilian Avenue. هنا في لندن، بما أن هانز عاش في هامستد Hampstead وليس في شيكاغو، فكان كل العمل يتم بعد كل فصل داخل الحقل، والذي هو تحضير لنتائج مرحلة التنقيب من أجل نشرها في شيكاغو.

رغم صغر حجم المكتب فإنه كان تيراً ومُرتباً، وعلى شكل سفينة. كان الجدار الخارجي كله عبارة عن نافذة، والتي تُدخل الحد الأعلى من الضوء إلى طاولة رسم موجودة أسفل منها. ولدى تواجدي لأول مرة هناك في بداية سبتمبر كان هناك شاب طويل نحيل، منحن على لوح رسم مائل تحت النافذة. إنه ستون لويدي⁽¹⁾ Seton Lloyd، الذي كنت أعرفه. كان مهندساً معمارياً قيّداً للتدريب، أما الآن فهو يطبق معلوماته في البناء، ومهارته في الرسم في مهمة حل الغاز الأطلال المتشابكة لحضارة قديمة، وبالتالي أصبح بسرعة عالم آثار بجهده الخاص وقد عمل أيضاً في تلّ العمارنة، ولقد خفّف بطريقة ما شوقي وحنيني إلى الوطن. استدار الآن، قال: «مرحبا». كان ذا

(1) ستون هاورد فريدريك لويدي (1902-1996) عالم آثار بريطاني، كان مديراً للمدرسة البريطانية للآثار في العراق، ثم شغل منصب مدير المعهد البريطاني للآثار في أنقرة (1948-1961) وأستاذاً لعلم آثار غرب آسيا في جامعة لندن (1962-1969). بدأ حياته العلمية بالتنقيب في تلّ العمارنة بمصر، وفي عام 1930 دعاه هنري (هانز) فرانكفورت للعمل معه في حفريات ديبالي (التي تروي المؤلفة هنا قصتها)، ودامت هذه الحفريات لستة مواسم بين 1930-1936.

قائمة نحيلة متناسقة الطول، ينظرُ إلى الأسفل نحوي بتعابير وجهه التي تخفي ابتسامةً خجولةً حنونةً، فانفرجَتْ أساريرُهُ الطبيعيةُ إلى ابتسامة ودودة. قال: «أتساءل كيف يمكن لك أن تحببها بعد العمارنة. كان من الجيد التفكير بأنه كان لديه صورة لذلك المكان اللطيف مرسومة في ذاكرته، صورة النهر الواسع المشرق، وبساتين النخيل والمنحدرات الذهبية.

سألت: «كيف يمكن مقارنة ذلك بالعمارنة؟ ليس لديّ أيّة فكرة عنها».

استدار إلى رسوماته، وبدأ يمعنُ النظرَ إلى الأسفل، بعينين نصف مغلقتين فوق عظم وجنة مرتفع، ويأحدي يديه مسطرة على شكل حرف T، وسيجارة في الأخرى. قال: «لا يمكنك مقارنتها، أمل أنك لن تكرهها - حيث لا شجر، لا ماء، ولا زراعة فهي نائية بشكل لا يصدق».

لم تكن تبدو جذابةً - ولم تفعل الصور القليلة على الجدران أيّ شيء لتعارض ذلك الموجز الواضح. التقطت إحدى الصور من الجوّ بشكل واضح، تبدو كخارطة فلكية للمريخ وقنواته، عبارة عن امتداد لأرض ذات ندوب وعرة بشبكة محفّرة تقاطعت هنا وهناك بخطوط مظلمة حادة.

أشار ستون إلى مجموعة منخفضة واضحة المعالم قائلاً: «هذا قصرُ الحاكم، وهنا - حيث انتقلت إصبعة الطويلة إلى الأعلى نحو مجموعة أخرى: «البيوت الخاصة للمدينة - ونرى هناك الشارعَ الرئيسي، وإذا أمعنت النظرَ بإمكانك رؤية الخطوط لبيوت أكثر تمتد تحت الرمال، والتي لم يُنقَب عنها بعد، حيث يمكنك مشاهدتها من الجوّ فقط، وليس على الأرض مطلقاً». أضاف: «وهذا»، مشيراً إلى بناء مربع في الحافة السفلى للصورة، والتي بدا في الواقع وكأنه مسقوف، وهذا منزلُ البعثة. طلابُ القوة الجوية هناك صوروا لنا هذا المنظرَ من الجو، أليس عملاً جميلاً؟».

لقد كان شيئاً ممتعاً بالتأكيد، وإن لم يكن كذلك بالنسبة لي، فهو ممتع تماماً، وقد قلت ذلك، ولكن لم أضف. على أيّة حال عن أيّة مدينة نتكلم؟ كنتُ متأكدةً أنه يمكن

أن يُصدم من سؤالي لذا قررتُ أن أقرأ المزيدَ قبل أن أسأل أسئلةً ساذجة.

«هذا الرسم الذي أقوم به الآن عبارة عن قسم من القصر الذي أريثك إياه، على الأقل ما لدينا منه الآن».. حدّقتُ فيه باحترام. كان الرسمُ مقسماً إلى عدة خطوط أفقية، كلُّ واحد بعدد رومانيّ فيها، مثل خط پليمسول Plimsoll. «ماذا بالضبط؟».

«الطبقات؟ كلُّ طبقة تمثل فترةً زمنيةً مختلفةً للبناء، حيث تابع كلُّ حاكم بإعادة البناء وفق أفكاره وحاجاته على الأسس القديمة ذاتها، مختلفة جداً عن العمارنة، أليس كذلك، بفترة بنائها المفرد؟ إنه تنقيب صعب بشكل لا يُصدّق».

نأى جداً، معقد جداً، شعرت بقشعريرة لتلك المقدمة لمغامرة مجهولة سلفاً. ثم جاء هانز فتراجع شعوري بالكآبة لأنني غريبة جاهلة.

قال بسرور: «لديّ عمل بسيط غريب لك قبل أن تغادري الشهر القادم، أريدك أن تأخذي مذكرة الملخصات، وتغادري إلى قفار هامستد Hampstead كل صباح ابتداءً من يوم غد. هناك ستجدين پيير Pierre - والذي لديه بعض الأفكار والتي يجب بطريقة ما أن تُستخرج منه وتوضع على الورق، قبل بداية الفصل الجديد، لكنه يعلم القليل من الإنكليزية - حيث يمكنك مساعدته. اكتشفي ماذا يريد أن يضع، ثم ضعيه أنت - حسنٌ؟».

قلت مرتابةً: «نعم».

قال هانز: «جيد».

طوال الشهر التالي كنتُ أجلسُ كلَّ صباح في بيت صغير منحني الواجهة في شارع فيتز جون Fitzjohn's Avenue مقابل بيت روسي صغير مقوّس، بينما استخرج من نفسه بنفسه دراسة علمية عن شيء يدعى القرميد المحدّب المستوي (Planoconvex Brick). في الوقت الذي وصلتُ فيه إلى منطقة ما بين النهرين كنتُ أعلم الكثير عن الآجر المستوي المحدّب - بغض النظر عن طريقة كتابتنا المختزلة للاسم - ولا

أعلم شيئاً عن أي شيء آخر يمكن عمله مع الحفر. كان عملاً شاقاً جداً في الأسبوع الأول تقريباً، وكان بيير يعلم تماماً ما أراد قوله، ولكنه لم يستطع أن يقوله، وربما كنتُ استَطَعْتُ أن أقوله فيما لو كان عندي أي فكرة حول ما كان يتحدث عنه. كان خجلاً جداً بسبب صعوبة اللغة. وقد أخبرني هانز بأنه شخص عبقرٍ في العمل الميداني، ولديه الكثير ليقوله عن أهمية الآجرة المذكورة آنفاً، والتي صُنعت واستُخدمت فقط في مدة واحدة خلال تاريخ سومر. ولقد تم صنعها بتعبئة إطار خشبي مستطيل صغير، وُضع على قطعة مستوية من الأرض، بقدر ما يمكن أن يستوعب من طين ناعم، مُزجَ بقش مقطّع، يُضغَطُ جيداً ومن ثَمَّ يُمهَدُ سطحه بخشونة باليد، ثم يُرفع الإطار وتُترك الآجرة في الشمس لتُجَبِّزَ حتى تقسو. كان لدى بيير بالطبع، العديد من الصور عنها، والتي أراني إياها، وعندما تَبَبَّعْتُ آثارَ صنّاع القرميد شعرتُ بخدر بيدي لوجود بقايا تركتها آثارُ صنّاع القرميد القدماء عندما كانوا يدفعون القرميد الطريّ خارجَ الإطار. وقد أوجد علماء الآثار مصطلحاً لهذا النوع من الآجرّ بالتحديد، وأشاروا إلى القسم الأعلى من القرميد الذي يُترك مُدَوَّراً قليلاً مثل غطاء علبة قصدير محدّب قليلاً، وأشاروا بالتأكيد للسطح السفلي المستوي.

كان الشكلُ الغريبُ مربكاً للبنائين القدامى في استخدام السطح المستوي في الطريقة العادية، ومن الأشياء الأخرى التي أراد بيير أن يسجلها هي الأساليب المختلفة في إنشاء البناء حيث وُجد ذلك الآجر.

«وُضع هذا الآجر بعضه فوق بعض بميل نحو اليسار في الأول، ثم بعد ذلك الآجر الآخر فوقها مثل تلك التي في الأسفل، ولكن تلك التي على اليمين وضعتُ بالطريقة الأخرى». قال ذلك وهو يلفظُ الإنكليزية بلكنة أجنبية. أصبح الموجزُ الذي كتبته بدائياً جداً، وذلك لأنني تعقّبتُ الآجرة منذ البداية بطريقة، ثم اتّبعتُ طريقةً أخرى. «إنها تميل نحو الحافة عن بعضها بطرق مختلفة، هذا ما تقولين؟».

قلتُ بجديّة: «Erringkbone؟»، فقد كانت تلفتُ النظر.

« إيرينغبون⁽¹⁾ Erringkbone؟ ماهي أرجوك؟ ».

« أنا أقصد بأن الخط على الحافة يبدو كهذا » ورسم على كراستي مُحْطَطاً كأنه أشعة إكس. وقال: «آه نعم إيرينغبون»، ثم ابتسم يبير مبتهجاً وعيناه البنيتان تشعان خلف نظارات مضيئة واستمرينا.

* * *

بعد عدة أسابيع كنتُ أهبطُ بسيارتي من القدس إلى المطار في الرملة قرب الساحل لمقابلة هانز وزوجته يتي⁽²⁾ Yettie وابنهما يون⁽³⁾ Jon ذي الأعوام الثلاثة وبيير الذين كانوا قد وصلوا لتوهم عبر البحر، ومن ثم نذهبُ معاً للإقلاع إلى بغداد التي تبعد 600 ميلاً شرقاً. كنت مع راحيل ليفي Rachel Levy فقد كنا سافرنا معاً من قبل إلى خارج إنكلترا، وأمضينا أسبوعاً في القدس. اهتمت راحيل بجميع الأشياء التي وجدناها في الموقع، ولكن، وكما كنتُ أعلمُ مسبقاً من خبرتي، بأنَّ عملَ أيِّ فرد من المجموعة يمضي أبعد بكثير من مدى العمل التقني الذي كلّف بالقيام به بشكل رئيس.

وفي حالة راحيل⁽⁴⁾ فقد ذهبتُ أعمق، كذلك بالنسبة لها فقد كان لديها معلومات هائلة عن الشرق الأدنى القديم، معرفةٌ تغني جميع النقاشات التي دارت بين المختصين أثناء أحداث الحفر، عندما ظَهَرْتُ لُقيَ جديدة، ربما، أو براهين جديدة في بعض الأبنية لتثبت أو تدحض بعض نظريات الصنع.

(1) ترد في الإنكليزية: Herringbone وتعني النقش الهندسي المؤلف من خطوط أو أشرطة متكررة أفقياً أو شاقولياً، كما في قماش التويد مثلاً.

(2) اسمها بالهولندية: Jettie واسمها الكامل: Henriette Antonia Groenewegen ولدت في لايدن عام 1896 وظلت مع هانز ثم انفصلا، وتزوج عام 1952 من امرأة أخرى هي إنريكيeta Harris لكنه مات بعد عامين. وتوفيت يتي عام 1982، أما إنريكيeta فتوفيت عام 2006.

(3) طالما أن هانز فرانكفورت هولندي الجنسية، فالمفترض لفظ اسم ابنه يون وليس جون.

(4) غرترود راحيل ليفي (1884-1966) Gertrude Rachel Levy كاتبة اهتمت بالميثولوجيا المقارنة والأديان الأنثوية والشعر الملحمي.

لم أسافرَ جواً من قبل، واعتقدتُ بأنَّ الطائرةَ الفضيةَ الضخمةَ بدتْ متينةً بشكلٍ مطمئنٍ بعدَ أنْ عادتْ سيارتُنا من المهبط الإسفلتي ومشتُ فوق العشب باتجاهها لكنَّ السَّيارةَ لم تكن تبدو أنَّها ستَقفُ، دارتْ كذيل الوحش، وتوقَّفتْ في الجانب البعيد، حيثُ كانتُ مجموعة من الموظفين واقفةً تتحدَّثُ مع فريقنا، قربَ طائرة بحجرة صغيرة لشخص واحد.

بدتْ مثل سمك الزامور الملتجئ إلى ظل سمك القرش، فوقَ قلبي، بدا بأنَّ الطائرةَ الأخرى قد حطَّت لتوها قادمةً من الشرق الأقصى، ولولا وجود تلك الطائرة لبدتْ طائرنا أقلَّ ضِعفاً مما هي عليه الآن بقليل. صَعَدنا إليها حيثُ كان هناك ثمانية مقاعد فقط، لذا فقد كانت في الأغلب فريقَ تنقيب. جلسَ يون Jon مقابل ركبتي يتي وحدَّقَ بوقار بي. كان يضغُ بيريه (beret) على مؤخرة رأسه، ويحملُ تمساحاً مطاطياً بلون أخضر زاه يُنفخُ جداً لدرجة الانفجار. أجلسَ بيريه نفسه مبتسماً أمامي، وبدا أكثرَ سعادةً عما رأيته من قبل. ولعلَّ ذلك بسبب الأجر المحدث الذي سيراه قريباً مرة أخرى.

هدر المحركُ بضع دقائق، وبعدها أقلعنا عبرَ الحقل، أسرعَ كثيراً. شاهدتُ عبرَ نافذتي العجلة اليُمْنى ترتفعُ عن العشب، وتدورُ في فراغ الهواء بضع دقائق، حتى غابتُ بشكل هادئ عن الرؤية عن الجناح وابتعدنا. بعدَ لحظات قدَّم الطيارُ المساعدُ ملاحظةً لنا - كان صوتُ المحركات عالياً جداً، وكان من الصعب سماعُ الكلام: «ستكون القدسُ عن يميننا في غضون دقيقة، وبحرُ الجليل⁽¹⁾ إلى الشمال». كنا نرتفعُ على علو شاهق الآن حيثُ أصبحنا فوقَ الجبال. نعم، إنها هناك تمتدُّ القدسُ، قبب ومآذن، وأبراج وجدران، وبوابات وأشجارُ سرو، في الأسفل بعيداً جداً، بدتْ القدسُ مظلمةً بظلال ذهبية وبنفسجية، يحتضنُ القدسُ تجويف لهضاب منعزلة. وإلى الخلف استطعتُ رؤيةَ بدايات الصخور الحمراء الكثيرة للبراري المؤدية بعيداً نحو أريحا Jericho، ومن ثم كنا نعبرُ وادياً أسوداً كلما اقتربنا من جبال مؤاب التي تحدُّ فلسطين. والتوى مجرى مائيّ فضيٍّ في الوادي إلى الشمال - إنَّه نهر الأردن.

(1) تسمية قديمة يراد بها: بحيرة طبرية في شمال شرق فلسطين.

كُنَّا نُحَلِّقُ الآنَ بَعِيداً عَنِ الْجِبَالِ، وَبَدَأَتِ الْأَرْضُ الصَّحْرَاوِيَّةُ الْمَمْتَدَّةُ بِالانْفِتَاحِ أَمَامَنَا. كُنَّا عَلَى حَافَةِ الصَّحْرَاءِ الْعَظْمَى الَّتِي تَمْتَدُّ بَيْنَ شَرْقِ الْأُرْدُنِ وَالْعِرَاقِ. تَغَيَّرَ الضَّوْءُ السَّاطِعُ الَّذِي أَظْهَرَ كُلَّ صَخْرَةٍ وَكُلَّ قِمَّةِ شَجَرَةٍ، فِي فِلَسْطِينَ، نَظَرْنَا أَسْفَلَ مِنَّا عَبْرَ السَّرَابِ الْمَهْتَرِّ كَأَنَّا نَنْظُرُ عَبْرَ التَّيَارَاتِ الْمَائِيَّةِ الْمَتَبَدِّلَةِ ببطءٍ إِلَى مَسْتَقَرِّهَا فِي قَاعٍ مُحِيطٍ بِمُتَعَدِّدِ الْأَلْوَانِ بِاللُّونِ الْأَسْوَدِ الذَّهَبِيِّ وَالرَّمَادِيِّ، يَمْتَدُّ بَعِيداً فِي كُلِّ جَانِبٍ إِلَى مَا لَا نِهَآيَةَ، بَيْنَمَا كَانَتْ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرٍ تَنْجَرُفُ سَمَكَةٌ بِيضَاءً بِلُطْفٍ أَسْفَلَ سَفِينَتِنَا.

بَدَأَتْ أَشْيَاءٌ تَحْدُثُ، وَفَجْأَةً شُعُورٌ بِالْهَبُوطِ، أَتْبَعَتْهُ هَزَةٌ عَنِيفَةٌ، وَتَلَاشَى الْأَفْقُ الْغَائِمُ، عِنْدَمَا بَدَأَتْ مُقَدِّمَةُ الطَّائِرَةِ بِالْارْتِفَاعِ مُجَدِّدًا لِنَعُودِ إِلَى الْارْتِفَاعِ. كَانَ التَّحَلُّقُ فَوْقَ الْجِبَالِ مَرِيحاً جَدًّا - حَيْثُ تَخِيلْتُ أَنَّهُ كَانَ مِنْ الْمُمْكِنِ أَنْ تَكُونَ قَاسِيَةٌ فِي أَيِّ مَكَانٍ - وَلَكِنَّا الْآنَ أَصْبَحْنَا مُنْطَلِقِينَ بِسُرْعَةٍ فَوْقَ الصَّحْرَاءِ الْمُنْبَسِطَةِ، شَعُرْتُ بِوُجُودِ شَيْءٍ غَيْرٍ طَبِيعِيٍّ. يَبْدُو أَنَّهُ ظَهَرَ عَلَيَّ الذَّعْرُ. إِذْ رَأَيْتُ الطَّيَارَ الْمُسَاعِدَ يَبْتَسِمُ وَهُوَ يَكْتُبُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى وَرْقَةٍ، ثُمَّ مَدَّ ذِرَاعَهُ إِلَى الْخَلْفِ حَتَّى أَقْرَأَ: «دَائِماً تَتَخَبَّطُ بِشِدَّةٍ فَوْقَ هَذَا الْجِزءِ - هَوَاءٌ سَاخِنٌ فَوْقَ بَازِلْتِ - لَا شَيْءٌ يَدْعُو لِلْقَلْقِ». شَعُرْتُ بِحَالٍ أَفْضَلَ - إِلَى أَنْ اسْتَدْرَجْتُ وَسْطَ انْخِفَاضٍ يَدْعُو لِلغَثِيَانِ لِأَرَى كَيْفَ كَانَ حَالُ الْآخَرِينَ، وَأَصْبَحْتُ وَجْهًا لَوَجْهِهِ مَعَ تَمَسَّاحِ يُونِ جُونِ المَرْوَعِ، الَّذِي كَانَ أَلْقَاهُ عَلَى الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَطْفُو الْآنَ وَسْطَ الْهَوَاءِ عَلَى مَسْتَوَى النِّظَرِ، مُحَدِّقًا بِي بِتَبْعِيرٍ شَاحِبٍ عِنْدَمَا يَتِمَّائِلُ. نَظَرْتُ جَانِبًا بِسُرْعَةٍ، أَظْهَرَتْ سَاعَتِي بِأَنَّا حَلَقْنَا لِمُدَّةِ ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِ السَّاعَةِ فَقَطْ لَطِيرَانٍ يَسْتَغْرِقُ خَمْسَ سَاعَاتٍ. هَلْ يُمْكِنُ لَتِكَ الرِّحْلَةِ أَنْ تَنْتَهِيَ؟!

بَعْدَ ذَلِكَ قَامَتْ رَاحِيلُ، الَّتِي كَانَتْ تَجْلِسُ خَلْفِي تَمَامًا، تُرْبِتُ عَلَى كَتْفِي، التَّفْتُ وَرَأَيْتُ أَنَّهَا كَانَتْ تُشِيرُ إِلَى الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ. نَظَرْتُ إِلَى أَسْفَلَ، وَشَهِدْتُ بِأَنَّا كُنَّا نَعْبُرُ خَطًّا أَسْوَدَ يَمْتَدُّ بِشَكْلِ مُسْتَقِيمٍ كَمَسْطَرَّةٍ شِمَالًا وَجَنُوبًا. هَمَسْتُ فِي أَذْنِي: «إِنَّهَا سَكَّةُ الْحَدِيدِ مِنَ الشِّمَالِ إِلَى مَكَّةَ، كَانَتْ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ اسْتَمَرَّ لَوْرَنْسُ Lawrence فِي قِطْعِهَا لِیُوقِفَ اسْتِخْدَامَ الْأَتْرَآكِ لَهَا». نَسِيتُ خَوْفِي عِنْدَمَا حَدَّقْتُ فِي الْأَسْفَلَ إِلَى الْخِيطِ الْأَسْوَدِ الَّذِي اِمْتَدَّ فِي الصَّحْرَاءِ الصَّفْرَاءِ، وَفَكَّرْتُ بِالْمَغَامِرَاتِ الْغَرِيبَةِ لَجَرَأَةِ سُرِّيَّةِ

ومفاجئة، والتي جرت أحداثها هناك في الأسفل على يد القائد ورجال قبيلته.

عندما لمحنا للمرة الأولى ضواحي بغداد بعيداً أمامنا، كانت الشمس تتلاشى خلفنا. عبرنا منحنيات نهر الفرات Euphrates الممتدة، حيث بتنا أقرب من الأرض. لم أكن أعلم أنّ الجزء القديم من بغداد كان في الجانب البعيد لنهر دجلة Tigris؛ وكل ما استطعتُ رؤيته في البداية كان حشداً مخيئاً للآمال لأكوخ وخطوط سكة حديدية، ثم بدأ كل شيء يميل ويدور إلى أمام النافذة، أغلقتُ عينيَّ وعندما فتحتهما كنا على سفينة مستوية، في الأسفل تقريباً، نشق طريقنا مازين ببعض الأبنية البيضاء، ثم وطننا بلطف على طول الأرض المقدسة.

لقد انتهى - وها نحن هنا نمشي عبر الأعشاب القصيرة، هبّت ريح علية، في مبنى المطار. كان يون مبتهجاً جداً بعد نوم طويل؛ وثني التمساح بثبات تحت ذراع واحدة؛ وأخذ يدي بيده الأخرى. ثم قابلنا جبرائيل Gabriel الذي كان سائق البعثة، ورجل الأعمال الغريبة الذي لا يُستغنى عنه - كان يُفضّل أن يُدعى Agent (الوكيل) - ولكن أي شيء كان يُدعى به كان يقلل من قيمته، وكنتُ قد سمعتُ سلفاً عن شخصيته الحيوية. فقد كان رجلاً ممتليء الجسم - هو فلسطيني عربيّ وجهه مدور أسمر، وأنفه مدور أسمر، عيناهُ بنيتان مستديرتان جاحظتان، وابتسامته عريضة. كان يرتدي ثياباً غالية الثمن تتألف من قميص حريري بلون بنفسجي زاه، وبنطال قصير لركوب الخيل - شديد الصفرة، وضيق جداً - ويتعلّ حذاءً عالياً لامعاً، وقبعة سوداء واسعة ناعمة - دُفعت إلى الخلف على قمة رأسه المغطى بشكل رقيق. وفي كل جانب من وركيه العريضين كان يهتز مسدس. كان يملك القليل من بيارات البرتقال في يافا Jaffa، والقليل من الترحال من أجل تحصيل ديونه؛ ذهب ذات مرة في حياته إلى أميركا، وعاد ومعه بعض قصص المسافرين. ومن أجل ذلك يبدو أنه عاش في نيويورك وقام برحلات يومية إلى ديترويت Detroit للعمل عند مستر فورد Mr. Ford. أخبرنا جبرائيل مرة: «أَنْ المستر فورد قال لي، : جبرائيل، إنك حرفيٌّ ماهر جداً».

حتى الآن فقد كان هو نفسه مسروراً بقاء أعضاء من الهيئة مرةً أخرى، ثم قدّم

لي، ووجدت نفسي أملُّ عندما تصافحنا، إنَّ جبرائيل يمكن أن يوافق إضافتي الأخيرة لبعثته المحبوبة. لقد أصبحَ لديَّ لمحة سريعة عن طبيعته. في الحال قال: «هل هذه هي الأنسة ضاربة الآلة الكاتبة؟ عندما يكون هناك واجب ثقيل في تلك الأشياء - هنا أعطيه لجبرائيل، بسرعة» وذهب أمام عمال الجمارك وحول زاوية البناء ليمرَّ بعيداً في عمق حافلة المحطة.

بدأنا نقوم بإجراءات جواز السفر، مع جمع لأشخاص كانوا قد وصلوا التَّوهم من دمشق. تحرك صفُّ المسافرين المتعبين ببطء إلى الطاولة حيث يقف شاب عراقيّ بسماء كثيبة، يخيم عليه الحزن، مركب باعتقادي من عدم الثقة والكبرياء اللتين تتصارعان مع كلِّ مدخل محيّر في كتاب. نهض جبرائيل مرة أخرى لبحث عني، حيث كان الآخرون في السيارة، كنت ما أزال مختلطةً في الصف، وأشارت إلى جواز سفري له، حيث استطعت رؤيته بعيداً أسفل الكومة على المنضدة، راوغ جبرائيل خلف المنضدة، ثم التقط جوازات السفر، تصفّحها، ثم التقط جوازي، ربتَ على وجنة الموظف الصغير مطمئناً، استلَّ الختم المطاطي من يده وختم به على الصفحة الأولى الفارغة، أعاد الختم، ربت على الشاب مرة أخرى، وأخرجني بسرعة من المكتب إلى السيارة، متبوعاً بصوت احتجاج ضعيف من المعترضين. «هذه هي طريقة العمل هنا، يا آنسة - أنا صديق جيد لكلِّ أولئك الناس، ولكنهم بطيئون، بطيئون جداً - أرسلُ لهم بعضَ الحلوى اللذيذة غداً؛ ولكنَّ يجب علينا الخروج إلى المعسكر - مازال أمامنا طريق طويل لنقطعه».

سرنا (بالسيارة) شرقاً لدقيقة أو دقيقتين، على طول طريق واسع، مزروعة حوافه بالنخل، إلى أن وصلنا إلى خط من البيوت البيضاء الجميلة، كانت السفارة البريطانية بينها، وقد بُنيت بناءً عالياً على الجسر، لتكونَ علامةً مميزةً على الضفة الغربية للنهر. انحدرَ الطريقُ بين البنائين، وهناك في الأسفل امتدَّ نهرٌ دجلةً ضخماً وبلون أسمر مصفر، يجري خلال الفجوات بين الزوارق الكبيرة للجسر المعلق الذي امتدَّ عبر المدينة القديمة.

عندما نزلنا على المنحدر الصخري إلى مستوى المياه، تقدَّمتنا بحذر إلى الجسر المرتفع المقعقع، فظهرت بغدادُ القديمةُ للمرة الأولى بشكل كامل، في تلك اللحظة

عرفت للمرة الثانية الشعور بالراحة وبالتحرر، وهذا الذي كان يحدث في كل مرة كنتُ أعبُرُ فيها نهر النيل لأصل إلى العمارنة. كان هنا تحوّل رمزي آخر يُعبّر عن التحرر من كلّ شيء كنتُ قد عرفتُه سابقاً. تجربة التدلي للحظات فوق المياه التي تجري بين الماضي والمستقبل، تجربة تجددتُ لديّ عندما كانت السيارة تمرُّ بصعوبة عبر الجسر الطويل المتموّج، وتقبلُ على مجموعة المباني المتداعية للسقوط المعلقة بشكل فوضويّ على الضفة الشرقيّة الطينيّة لنهر دجلة.

وقفت الجدرانُ البنية مرتفعةً في المياه المظلمة والتي تصبُحُ ذهبيةً عندما تضربها أشعةُ الشّمس أفقيّاً بشكل كامل، وتكونُ بلون بنفسجيّ داكن في البيوت التي انحرفتُ على جانبي الطريق أو في الممرّات الضيّقة والشوارع التي شطّرت الواجّهة المائيّة كصدع في جرف منهار.

يقود الجدارُ المنحدرُ من رأس الجسر مباشرةً بشكل مستقيم إلى واحدة من تلك الوهاد، حيث يختفي كلّ من النّهر وضياء الشمس في آن واحد. ويتقاطع مع الممرّ الذي نحنُ فيه على بُعد بضع ياردات إلى أمام الشارع الرئيس لبغداد - وهو شارع جديد، شقّ على يد الأتراك. ينطلق شمالاً وجنوباً، بموازة النهر. انعطفنا يميناً، وسرنا باتجاه الجنوب الشرقي خارج المدينة. كان الظلامُ قد بدأ يخيّم الآن، ولكنّي استطعتُ رؤية الطريق الغباريّ الطويل يتعرّجُ عند كلّ مُنعطف، وتبرزُ مجموعات البيوت والنخيل بين الحقول المحروثة والمنخفضة. كانت شجيرات الدفلى ماتزال مزهرةً، ولكنّها مثقلة بالغبار، تتأرجحُ عند هبوب الرّيح في كلّ جانب. ارتفع الطريق الآن إلى قمة السياج المكشوف؛ أشعل جبرائيل المصابيح الأمامية فبدّد الظلام بشكل لطيف عند النوافذ. عبّرنا جسراً طويلاً مرتفعاً، أنشئَ عبر نهر ديالى، الذي يصبّ في مكان قريب في نهر دجلة. سمّي الجسر باسم لانكشاير بريدج Lancashire Bridge، إحياءً لذكرى عدّة رجال من الفوج الذين غرقوا في تلك البقعة أثناء تقدّمهم إلى بغداد في العام 1917.

قامتُ على الضّفة البعيدة أكواخ قليلة، لقرية عرب خان Arab khan وبيت حراسة صغير. كان رجل الشرطة قد تظلل بالمدخل من وهج ضوء النار، فتحرك إلى الأمام

رافعاً يدهُ لإيقافنا، وكأنه نوع من التفتيش. أبطأ جبرائيل حتى بات يزحف، انحني خارجَ السيارة قدر استطاعته، وصاحَ بصوت مرتفع جداً: «إنها جامعة شيكاغو». ابتسم الحارس الذي ربما لم يكن يعلم الكثيرَ عن جامعة شيكاغو، لكنه وبشكل واضح يعلمُ الكثيرَ عن جبرائيل، ابتسم وسمح لنا بالاستمرار. وقعت الأضواءُ الأماميةُ على لافتة معدنيّة صغيرة تشيرُ إلى الطريق: إلى: «كُوت العِمارة» - والتي جعلتنا نعودُ بذاكرتنا لوجوه مذهولة لبالغين يقرأون أخبارَ حرب سيئة⁽¹⁾، منذ عهد بعيد.

سرّنا خلفَ تلك النقطة في فراغ تام، لم تُظهر أضواءُ السيارة في المقدمة التي كنا نعلوها ونخفض عنها في المنحدر، إلا امتدادَ مسافة متفاوتة لطريق رملي غير مستو. أصبح عندي شعور بأنّ البقيّة يتوقعون تغييراً ما في الروتين، ثمّ أبطأت السيّارة، ومالت الاضواءُ يساراً وانعطفَت السيارةُ فجأةً يميناً خارجَ الطريق إلى طريق الصّحراء الذي يمكنُ أن يقودنا إلى منزل البعثة، على بعد خمسين ميلاً إلى الشمال الشرقي. لم أستطع مشاهدة أيّ أحد في السيارة، ولكنّي استطعتُ الشعورَ بكرهتهم للصّحراء يشدُّ على قلبي المرهف، وقال هانز: «أشعر أنّ الشعرَ في رقبتني يقف».

قلت: «هذا جميل، وأنا متأكدة بأنّي أستطيع أن أشمّ رائحةَ البحر».

قالتُ ييتي من المؤكّد أنّها كانت تمطرُ، كما بدا دائماً هنا، من رائحة الملح في الهواء عندما تكون الرمالُ مبتلةً.

أخبرنا جبرائيل أنّ المطر هطلَ بغزارة في الليلة الماضية. تديتُ من خارج النافذة لأنشّق ما استطعتُ من تلك التّكهة الأولى للصّحراء الكُبرى التي تمتدّ بينَ نهر دجلة وجبال فارس.

امتدّ الطريقُ بين كُتبان رملية وروابٍ باهتة بحيثُ لا يمكن رؤيتها تحت السماء

(1) تقصد المؤلفة أحداث المعارك الدّامية بين الإنكليز والأتراك إبان أحداث الثورة العربيّة الكبرى 1916-1918، ومن ذلك ما جرى من معارك بالقرب من البصرة وكوت العِمارة، وأشهرها معركة كوت الزّين في 7 نوفمبر عام 1914 التي أعقبها احتلال الإنكليز للبصرة في 22 نوفمبر. انظر كتاب: رحلات المغامر العربي وليمسون، الفصل 29.

المظلمة، مثل حوت نائم مغمور نصفه في محيط أصفر - لم أستطع التخلص من صورة سراب الماء في كل مكان حولنا - ثُمَّ اتَّجَهِنا للأعلى عبر فجوة في سدِّ رَيِّ قديم، ثُمَّ للأسفل إلى قعر القناة الجافِّ، ثُمَّ عدنا إلى الأعلى فوق الضفَّة الأبعد. قطع جبرائيل هذه الطرق المتعرجة الخطرة بزحف شديد، وهو حذر جداً، ولكن بعد لحظة بدأنا نسرُعُ عبر امتداد واسع مُنْبَسَط باتجاه عقدة من كُثبان رملية تبدو في البداية باهتة من خلال الأضواء المرتعشة وعندما اقتربنا منها أصبحت حادةً ذهبيةً براقّةً بالتفاصيل الكثيفة للمنظر تحت تركيز الضوء عليها، عندما مررنا بين زوج من قواميع رملية وانخفضنا عبر كُثبان بالية، لنصبح في ظلام دامس مرةً أخرى.

هناك بدا أنه لم تظهِر لنا وجهة في تجوالنا، لأننا كنّا نترنح بين منعطفات كبيرة نحو اليمين واليسار. لحقَّت السَّيَّارةُ علامات العجلات المتشابكة لعدد لا يُحصى لرحلات سابقة والتي ذهبت وعادت كنقاط سكة حديد، في نصف دائرة الضوء أمامنا. كان من المطمئن أن نرى في كلِّ عَشْرَةِ أقدام أو أكثر، هرماً أجرد من الرمال بعلوِّ قَدَمين، يبدو أنه كَوَّم على طوال الطريق لوضع علامات على الطريق. أخبرني جبرائيل بأنَّه يجدُّ هذه القواميع كلَّ صيف، بعد أن تكون قد سُويّت بالأرض بفعل الأمطار والرياح كلَّ بضعة أشهر، قام بذلك عن طريق إنزال مجموعة من العُمال من الشاحنة كلَّ بضعة أميال للعمل على طول الطَّرِيق إلى أن يصلوا إلى المجموعة التالية، ثُمَّ يحمِّل المجموعة الأخيرة في الخط، ويأخذها إلى أمام الأخريات إلى الامتداد الآخر للطَّرِيق التي تحتاج لإعادة بناء قواميع الرَّمَل.

«ولكن لماذا هي قريبة جداً من بعضها؟ لا بدَّ أنَّها تأخذ وقتاً طويلاً في العمل؟».

«ليست قريبة جداً عندما تقع عاصفة رملية».

«إذاً، هل العواصف الرملية سيئة جداً هنا؟».

رفع مخلباً ثقيلاً من الدولاب، وكأنه كان يُعيد رُعباً خيالياً عنه.

«يجدر بك فقط أن تنتظري وترَي، يا آنسة - عندما تأتي تكون سيئة جداً، فلا يمكنك

رؤية أيّ من ذلك الرُّكام، عندما تكونين عند التالية».

من الصعوبة تخيُّل ذلك تحتَ سماء هادئة مليئة بالنجوم.

ومض ضوء ثابت بعيداً أمامنا وقريباً من الأفق، وكانت شدّة لون اصفراره وشدّة استقامته ينفيان احتمال أن يكون نجماً. قالت بيتي: «هناك المنزل، إذ أنّه يوجد دائماً ضوء على البرج بعد حلول الظلام عندما تكون سيارة خارجه». سألتُ متعجبة، حيث لم يبدُ أنه مرّ وقت طويل عندما غادرنا الطريق: «ولكن هل اقتربنا من هناك؟ ظننت أنّ المخيمّ يبعد خمسين ميلاً عن بغداد».

قال هانز: «لا تقلقي، ذاك الضّوء مازال يبعد تقريباً حوالي عشرين ميلاً - ولن شعري تماماً أنّك في ضاحية بغداد في الوقت الذي نصل به إلى هناك».

وهكذا كان، تابعنا بانحدارنا وانحرفنا وتسلقنا - نفقذ الضّوء على ظهر المنزل في كلّ مرة ننعطفُ للأسفل؛ ولكنه يظهر هناك مرة أخرى عندما نعتلي المرتفع، وظل بعيداً وصغيراً - كم هو مثير للدهشة ذاك الشعورُ في السفر السريع فإنّك تصل إلى اللامكان مما جعل تلك المرحلة الأخيرة من الرحلة تبدو طويلة جداً. (قالت الملكة الحمراء Red Queen: «بالطبع إننا لا نتحرك. يجدُرُ بك السفر بسرعة أكبر من هذه إذا كنت تريدان الوصول إلى مكان ما في تلك البلاد»).

كان هانز على حق، في الوقت الذي لَقّت السيارة آخر كتيب وأظهرت الأضواء الأماميّة الحدّ الباهت لبيت منخفض بعيد، شعرتُ بأننا بالفعل كنا بعيدين جداً عن بغداد، وفي تلك الحالة عن أيّ مكان آخر، ذاك البيت بجدرانه القائمة يخترقها ضوء بهيج تدفق خارجاً عبر بوابة واضحة في المدخل.

كان الخدم والحراس وبعض أعضاء الهيئة الذين وصلوا قبلنا محتشدين على الدرجات للترحيب؛ لأنّ أضواء سيارتنا الأمامية كانت قد شوهدت من البرج منذ وقت بعيد ولأنّ جبرائيل افتقد البوق الذي وحده يمكن أن يُعبّر عن مشاعره الملائكيّة، فأعلن سلامة وصول رئيس البعثة وزوجه بإطلاق بوق السيّارة بشكل متتابع ومصمّ للأذان،

وقفز على درجات البيت مسروراً. فانتني رؤية الطقوس التي تُمارَس دائماً عند عودة الرئيس في الفوضى السعيدة لظلال المصاييح التي تلعب على الوجوه، فلم أرَ السكين التي كانت تذيب الخروفَ على شرف هانز عندما كان يتقدم بأول خطوة باتجاه المنزل. داخل المنزل كانت هناك نار تلتهم جذعاً وتنفذ في غرفة المعيشة الكبيرة، جذب لي اجتماعُ الوجوه الجديدة مع الرائحة الخفيفة لأثاث خشبيّ دُهِنَ بشمع العسل حديثاً، جذبَ إحساساً واضحاً لبدء مرحلة كآبة؛ مثل كآبة العودة إلى المدرسة. فكنت سعيدة عندما كان استطعتُ التسلّل بعيداً لأنظّم مشاعري مع تنظيمي لحقائبي.

بعد ذلك في المساء وجدت بضع درجات تقود إلى سطح واسع مستو، وعبرَ الجدار المنخفض على السطح نظرتُ إلى الأسفل إلى ساحة مربعة كبيرة؛ امتدَّ حولها ممرٌّ مغطى، وفي ظلاله كانت توجد الأبواب المغلقة والنوافذ المضاءة للغرف الخاصة. ابتعدتُ عن ما يذكّرني بتلك الشخصيات المغلقة المجهولة الموجودة هناك في الأسفل لأنّ التعب والوحشة جعلاني أشعر بالكآبة. ذهبتُ إلى الشرفة الخارجية ونظرتُ للمرّة الأولى إلى الصّحراء، وبالتّدرّج أعادت لي سعادتي رؤية مساحتها الشاسعة وهدوئها.

هَبَّ هواء عليل من الجنوب مازال يحمل رائحة البحر المالح، وسطعَ قمر بهدوء، تضاءل قليلاً، حلقتَه أقواس قوس قزح تتلألأ عبر لوحة موزاييك عالية من اللآلئ. وحيثما نظرت يمتد النظر بعيداً باتجاه الأفق، إلا في الشمال حيث ارتفعت هضبة منخفضة باتجاه النجوم. إنها المدينة المدفونة التي جلبتنا إلى هذا المكان.

امتدّت الصّحراء الهادئة مظلمة ورطبة، وأضاءت خطوط الكثبان الرملية التي تتباعد وتتقاربُ هنا وهناك متلاثلة بأشعة فضيّة في الفجوات التي مازالت فيها مياه الأمطار. وبدت تلك الهضبة المنخفضة كأنها قطعة منها، فهي فارغة وباردة ومجهولة. ولكنني كنت أعلم أنّ في داخلها أطلالاً لأعمال رجال كانوا فيما مضى فخورين وطموحين بمعابدهم وقصورهم وبيوتهم وشوارعهم وساحاتهم؛ وكذلك يوجد حطام نتائج عقولهم الباهرة وأيديهم الماهرة.

سمعتُ همهمةً لأصوات، وعندما نظرتُ إلى الأسفل رأيتُ شكلين منحنيين على جانبي نار صغيرة بُنيتُ بفراغ عند الجدار الخارجي للبرج، كانا حارسين تلفّحا بعباءات داكنة وعصبا رأسيهما بكوفيتين بيضاويتين. كان أحدهما ينفخ في النار، وكلما ارتفع اللهب وانخفض كان الوجهان السمران يضيئان ويعتمان بشكل متناغم. وأومضَ ضوءُ القمَر على ماسورتي بندقيتهما، كان أحدهما مشغولاً بمصب القهوة، الذي وضعه في دائرة من الرماد قرب الفحم المتوقع. كان الفحم يتوهج محمراً وهو حيّ ثم يخمد فيموت. مثلهُ كمثُل الرّجال عندما نهضوا من التُّراب فأصبحت الأرضُ خضراءَ ومزهرَةً بمهاراتهم، لمدّة من الزّمن ثُمَّ اختفوا. وأنمَحى عمل أيديهم عندما مسحَ عاملُ الخزف بإبهامه المتسرّع قطعةً من الصِّلصال صرّفَ في صنْعها مجهوداً كبيراً. وتذهبُ الأرض الميتةُ إلى هناك أيضاً، تدورُ بين عصر الجليد نحو نهايتها بالوقع نفسه في كلّ مكان؛ حرارةً وبرودةً، ارتفاعاً وهبوطاً، طاقةً وخواءً.



الفصل الثالث

كيف جرت الأحداث في كلِّ من الزمنين القديم والحديث لتختتم بوصولنا إلى هذه البقعة المقفرة الصَّغيرة جداً المَعَيَّنة على الخارطة، الواقعة في مكان ما بين بغداد وجبال فارس، والمُحاطة بأُميال مُتعدِّدة من صحراء مجهولة؟ ما هي المدينة التي كُنَّا نُنَقِّبُ فيها؟ وكيف أمكِنَ لدارة بعثة التنقيب أن تكونَ هناك؛ وكيف استطاعت هيئة ضخمة وعمَّالُها المحليون أنفسهم العيشَ شهراً بعد شهر في أرض مقفرة لا وجودَ لدلائل الحياة فيها فيما عدا بعض الهطولات المتفرقة، إلا ضفاف ومجاري لأقنية مغبرة جفت كالعظم منذ أزمنة العصور الوسطى؟

من أجل إجابة شاملة على هذه الأسئلة عليك مغادرتنا للحظة في مستهل موسمنا الجديد، وتأخذ رحلة طويلة في الزمن والمسافة - 6000 سنة في الزمن؛ وفي المسافة حوالي 200 ميلاً في الجنوب الشرقي. الزمن حوالي 4000 ق. م؛ والمكان أعالي الخليج العربي، تشير الخارطة (انظرها في هذا الكتاب) كيف أنَّ كلاً من النهرين، دجلة والفُرات، يتقاربان مع بعضهما في الداخل في الشمال قرب بغداد لعشرين ميلاً ومن ثم يفترقان، ثم يعودان للجريان مع بعض مرةً أخرى جنوباً، قبل أن يصبَّا في الخليج العربي. ليس بعيداً نحو الشرق، تظهر هضاب فارس، وإلى الغرب تمتدُّ الصَّحراءُ القاحلةُ بشكل متواصل باتجاه جزيرة العرب. امتدَّتْ مياهُ الخليج في الماضي البعيد إلى الدَّاخل لمسافة أبعد مما هي عليه اليوم، ولكن تدريجياً اندفع الطميُّ من الجبال على طول النهرين الكبيرين، وشكَّلَ سداً هائلاً عبَّرَ المياهَ الراكدة، في مكان ما حيث تقع البصرة اليوم؛ ومن ثمَّ بدأ ليتراكمَ خلفَ تلك الحواجز، مشكلاً دلتا ضخمة من

أرض سبخية⁽¹⁾ بخصوبة غير اعتيادية. وبالتأكيد فإن أراضي بدو الصحراء امتدت في الغرب والشمال، والجبليون في الشرق وهم يتصارعون بأساليبهم المختلفة من أجل حياتهم غير المُستقرّة بدأوا باختراق المستنقع المحتشد وهو يَجُفُّ بالتدريج، لينسوا في البداية فيه أكواخاً من القصب، ثمّ منازل من الطابوق الطيني، حيث كانت الأصوات المباركة لجريان المياه لا تهدأ، وحيث نمّت الحبوب طويلة ووافرة. كانت تلك البدايات الأولى للحضارة السومرية.

قبل الأزمنة التاريخية، تقريباً - قبل حوالي 3000 سنة ما قبل الميلاد - عندما عرفنا بظهور ثلاث ثقافات متميزة في سومر واحدة تلو الأخرى، من خلال القوائم المرسومة في أزمّة متأخرة، وأسماء الملوك الذين بدأوا الحكم في تلك الأيام. تميزت تلك الشعوب ما قبل التاريخية بأعمال يدوية مختلفة من صنعهم عثرَ عليها علماء الآثار، لُقِّبَتْ بأسماء أماكن لمنطقة ما بين النهرين Mesopotamia حيث اكتشف للمرة الأولى دليل وجودهم. كان الأقدم منهم شعب العصر الحجري المتأخر، وبسبب آنيّتهم الفخارية المتميّزة الجميلة وأدواتهم الحجريّة، ومناجلهم الطينيّة التي ظهرت لأول مرّة من بلدة صغيرة تُدعى العُبَيْد قرب أور Uruk بالقرب من الساحل القديم، فحيثما وُجِدَتْ آثارهم - التي وُجِدَتْ بعيداً جداً من هنا في شمالي العراق وحتى في سوريا - يشار إليها بأنها تعود إلى فترة العُبَيْد. وعلى الأكثر جاؤوا في الأساس من هضاب فارس الجنوبية الغربية، وربما استقروا في مستنقع دلتا ما بين النهرين قبل 4000 سنة.

ينتمي المستوطنون التالون إلى ما عُرف بفترة أوروك Uruk، وبالمثل تسمّى آثار تلك الشعوب، الذين عملوا في المعدن وبنوا أبنية من الآجر المعقد، وعرفوا عجلة الخزاف، التي وُجِدَتْ للمرّة الأولى في أوروك، والتي تُدعى في أسفار العهد القديم أرك Erech (لوركاء). وقد اكتشفت بقايا آخر المستوطنين لفترة ما قبل التاريخ في سومر في رابية صغيرة قرب بابل Babylon تدعى جِمْدَت نصر Jemdet Nasr، وبناء عليه فإنّ فترة وجودهم سُميت بهذا الاسم. ووصل معهم ابتكار مهم جداً، ألا وهو

(1) السبخة: أرض ذات نرّ وملح، جمعها سباح. (القاموس المحيط، ص 323).

البدايات الأولى لشكل من أشكال الكتابة على الألواح الطينية.

بقي المستوطنون الأوائل في البداية قريباً من مياه جداول المستنقعات الصالحة للشرب، وعلى طول مجاري الأنهار؛ ولكن مع تضاعف أعدادهم، نمت مهاراتهم. فقد تعلموا أن يمددوا شبكة قنوات الري ويحافظوا عليها، ويحول مياه النهر الغزيرة إلى أي مكان احتاجوا إليه، لاستصلاح الأرض الصحراوية وجعلها مثمرة. واستطاعوا الآن العيش على مسافة من الأنهار؛ وبسبب أعمالهم المهمة تلك احتاجوا جهوداً موحدة للحفاظ عليها وتنظيم استخدامها. وبدأت العائلات والعشائر المتفرقة بالتجمع معاً حتى أصبحوا مستوطنات قروية كل واحدة وسط الحقول المثمرة والمراعي.

ومع نمو القرى وتوسع أملاكهم من الأراضي، أدى هذا النجاح المنظم لحدوث مشاكل جديدة؛ وأصبحت الأقاليم المجاورة أقرب وأخيراً أمست متحاذية؛ وكانت هناك حوادث حدودية متواصلة. اندلع النزاع في حروب كاملة على خلافات لحقوق الأرض وحقوق المياه، وبدأت مستوطنات القرى تطوق بالحصون، وبذلك أصبحت مدناً مسورة. وفي الأوقات المحفوفة بالمخاطر كان جيداً بالنسبة للراعي والمزارع وعامل التُّرعة أن يقوموا بحماية بيوتهم ويناموا خلف جدران محصنة عند حلول الظلام.

أصبحت الأرض سهلاً خصيباً فسيحاً - هي أرض شنعار Shinar - منطقة مملوءة بمدن مسورة، كل واحدة منها تتحكم بحقولها الخصبة وطرقها المائية، غيرة على حقوقها، تحرس أملاكها من أن تُنتهك؛ وبالضرورة طورت أساليبها الحربية من أجل البقاء. كان لدى كل مدينة حاكمها الأميري، وإلهها المحلي، وطريقته في العبادة. وقد ينشأ في بعض الأحيان ملك له حاشيته وسلالته ذات قوة وعدوان فتسيطر دولتهم الخاصة على الدول الأخرى فيصبح ملوكها تابعين للحاكم المطلق فيها.

يسجل هذا الطور، الذي استمر من حوالي 3000 ق. م لمدة 600 عام تقريباً، بزوغ سومر التاريخية، ويعرف بعصر السلالة الحاكمة الباكرة، كقوة لعائلات ملكية نمت وانحسرت، قوة تتناوب بين مدينة وأخرى. وقد احتفظت أور Ur بتلك المكانة المسيطرة.

كانت كتابات اللغة السومرية على الألواح الطينية (الرُّقْم) قد تطورت بشكل كامل في ذلك الوقت مع نمو الحاجة لكتابة سجلات دقيقة تتنامى مع التوسع المعقد للحكومة والعمل والتجارة الخارجية. فتجارة مواد النسيج والمعادن والحبوب أصبحت الآن نشطة، وتوسعت تدريجياً بعيداً نحو الغرب حتى مصر وبعيداً نحو الشرق حتى وادي السُّند Indus Valley. وبالمصادفة اعتمد نظامهم العددي على وحدة مكوّنة من 60، وهو التنظيم الذي استمرّ حتى هذا اليوم في تقسيمنا للساعة إلى ستين ثانية في الدقيقة، وستين دقيقة في الساعة. ومن الغريب على سبيل المثال، التفكير بأن السومريين القدماء هم الذين قرروا الطريقة التي يتم فيها حساب الميل في ميل روجر باننيستر Roger Bannister.

كان ذلك العصر عصر قوة وازدهار هائلين، لكنّه أفسد بالثورة المتواصلة للصراع الداخلي بين مجموعات جيوش صغيرة لسومر كان بينهم كَرّ وفرّ ضدّ بعضهم بعرباتهم الحربية التي تجرها الحمير الوحشية، وسلسلة كُتائب بخوذ جلدية وتنانير من جلد الغنم، حمل بعضهم فأسّ الحرب، وبعضهم قضياً شائكاً، وحمل بعضهم رماحاً، كانوا يتجمعون شمالاً عندما انفجرت الحرب ووضعت نهاية لـ 200 سنة من تلك الصراعات المنافسة. لقد كان اجتياحاً ساحقاً من شعب سامي، كانوا بُدأة حتى ذلك الحين، عرفوا بالأكاديين⁽¹⁾ Akkadians، وكانوا قد بدأوا بالاستقرار على طول الفرات. وفجأة، وحوالي 2400 ق. م ظهر زعيم قبيلة من بينهم، وهو سرغون الأكادي الأكبر؛ وتحت قيادته الشعبية التحم الأكاديون ليصبحوا جحافلَ فعالة تزحف باتجاه المدن السومرية.

كان نزاعاً غريباً، فقد كان على سومر أن تستسلم وتصبح جزءاً من أمة كبيرة حكمها سرغون وسلالته المباشرة، وهو شعب امتدّ من بلاد فارس إلى البحر الأبيض المتوسط،

(1) المعتاد لدى مثقفينا في العراق الشقيق كتابة الاسم: أكّد، على اعتبار أنّ اللغات القديمة في المشرق تسقط أكثر حروف العلة، لكن القراءة بالعربية اليوم لا تستطيع مجازة هذه الطريقة، ودفعاً للالتباس لا بدّ من استعمال حروف العلة حيثما لزم، كقولنا هنا: أكاد.

وشمالاً حتى آسيا الصغرى Asia Minor. ولكن في زمن الأكاديين الرحّالين الذين استقروا وقتئذ في مدن سومرية، وامتزجوا مع خصومهم السالفين، متناسين الطرق العنيفة للحرب، حيث كانوا متلهفين لأن يتعلموا من المغلوبين فنونهم المتطورة. لم يكن الأكاديون يستطيعون الكتابة حتى هذا الفتح، فقد تعلموا ذلك من السومريين، الذين كتبوا لغتهم برموز مسمارية. سكنت السلالتان جنباً إلى جنب. وتدرجياً أثبتت قوة الساميين المتزايدة نفسها بعد أن أضعفت قوة السومريين القدماء بالتدرج. ثم أخيراً ظهرت مدينة أور القديمة مرة أخرى لتتولى قيادة أمة خليطة واسعة، والتي عُرفت الآن بسومر وأكاد. وحتى ما يقارب القرن الأخير من الألفية الثالثة تقريباً من 2100 حتى 2000 ق. م - فيها حكم ملوك السلالة الحاكمة الثالثة العظيمة لأور بقوة وسيادة وسيطرة هائلة على كل الأراضي. ومرة أخرى، تطلّع ملوك الدولة المدنية المُقطعون، تطلّعوا جنوباً إلى الحكم المطلق في أور.



ظهرت إلى النور تدرجياً في العصور الحديثة أكوام هائلة من الوثائق على شكل ألواح طينية (رُقُم)، خلال تنقيب علمي لمواقع المدن القديمة، وبدأ تاريخ سومر يتكشف للعلماء الذين اكتشفوا كيفية قراءتها، كان من الممكن تحديد الكثير من الأماكن التي أشاروا إليها مع الآثار المرئية في ما بين النهرين Mesopotamia؛ من بين كثير غيرها، على سبيل المثال، مواقع مثل آشور ونمرود، وبابل وكيش، وأور وأرك. ولكن لا بُدَّ أن تكون قد وُضعت مراجع في تلك الوثائق لبعض الدول المدنية، والتي كان بعضها مهماً بشكل واضح، وضعت أعلى وأسفل الأرض، والتي يمكن للمترجمين أن يعرفوا الكثير عنها، ما عدا حقيقة مهمة حاسمة - وهي أين كانت توجد تلك المدن موجودة.

كان الموقع الفعلي لتلك المدن والتي سَمَت فيما مضى بكل فخر على حقولها الخصيبة سرّاً بدا وكأنه لا دليل عليه. ووحدها المصادفة يمكن أن تكشفه.

تم تسمية إحدى الدول المدنية المهمة باسم إشنونا⁽¹⁾ Eshnunna. فقد صرّحت الوثائق باسمها، وذلك وفقاً لإلهها المحلي تَشْپاك Tishpak؛ كما أعطت الوثائق أيضاً أسماء للعديد من حكامها، بعضهم كانوا حكاماً مقطعين للحكام المطلقين لأور في السلالة الحاكمة الثالثة لأور، وبعضهم كانوا ملوكاً متأخرين بأسماء غريبة مثل إباليل وإبق أدد، اللذين عرفا بكونهما أباً وابنه. وبعد أن اكتسح العيلاميون ودُمّرت إثر ذلك قوّة أور حوالي عام 2000 ق. م، قاتلت إشنونا للحصول على استقلالها حتى ما يقارب عام 1800 ق. م؛ عندئذ برز قائد ساميّ عظيم، وهو حمورابي العظيم، المحارب والمشرّع، ليحكم من بابل، ويصدّ هذا الملك ملك العموريّين Amorits أولاً الغزاة الجبليين إلى حدودهم الجبلية، ويسيطر على المدن التي قاومتها في السهل، ثم يؤسّس سلطة ذات سيادة مطلقة على الأرض.

كانت هذه نهاية إشنونا كدولة مدنية؛ ولكنّ المكان الذي ازدهرت فيه ذات مرة ما زال غامضاً تماماً.



في صباح أحد الأيام الحارة بأواخر عام 1928، كان المدير الإنكليزي لقسم آثار العصور القديمة في بغداد يعمل في مكتبه في المتحف. كان قلقاً، لأنّ تاجراً أو اثنين في دكانيهما الغريبيين في الشارع الجديد، وجدوا مؤخراً يبيعان آثاراً قديمة من الممكن أن يكونا قد حصلوا عليها من عرب رُحّل يتابعون نهباً محظوراً لمواقع قديمة. فالتنقيب وبيع بعض الأشياء التي من الممكن أن تكون بالغة الأهمية لم يكن وحده مجال اهتمامه، رغم أنه كان سيئاً بما يكفي. ولكنّ الألم الفكريّ لأيّ عالم آثار كان معرفة أنّ الاتجار يوماً بعد يوم والتهرّب لبعض المواقع القديمة وتهريب آثارها يمكن أن يُدمّر بشكل مؤكد وإلى الأبد معلومات تاريخية لا تُقدّر بثمن، والتي كان من الممكن الحصول عليها فقط من خلال خبير في العمل الميداني للمواقع الأثرية وفي تفريغ

(1) قد ترد التسمية في بعض الدراسات المقالات الحديثة بالعربية: إشنونا، لكن الصواب فيها بإسقاط الياء حكماً.

وتسجيل الأبنية القديمة. ولكن لم يكن هناك أية طريقة لإيقاف تلك التجارة السرية باستثناء المكان الذي اكتشفوه، ووضعوه تحت سيطرة بعثة راشدة.

دخل موظف عراقي إلى مكتبه وأخبره بأن هناك بدوياً يرغب برؤيته. أجاب: «جيد جداً؛ أين هو؟». «أسفل في الفناء - هل أحضره؟». أوماً المدير برأسه، واتجه نحو النافذة. كان رجل القبيلة العربي مقرصاً في ظل حائط الفناء، يدخن بسلام، بعينين مغمضتين تقريباً مقابل وهج أشعة منتصف النهار، كان يحيط بوجهه الملتهجي القاتم شال⁽¹⁾ أبيض ملفوف وفوقه عقاب أسود. راقب المدير الموظف الشاب، المتأنق بزيته القطنية البيضاء، وهو يدعو البدوي للدخول. أطفأ البدوي سيجارته، ودسها برفق بعيداً في مكان ما في أعماق عباة البنية الرثة، وانتصب واقفاً على قدميه. ومن ثم انحنى ببطء والتقط حزمة مغبرة قرب الحائط بحذر فائق وسار باتجاه باب المتحف. (قرر المدير: لقد أخذ شيئاً ما ليريني إياه، فكّر متجهماً بأن التاجر لن يأخذه).

عاد إلى مكتبه وانتظر بينما صعد البدوي ببطء درجات السلم الحجرية. فقاد التاجر الرجل داخل المكتب، وانتظر إلى أن بلغ المكتب. رحّب بالمدير بلطف، وضع حزمته وبدأ يفكها ببطء.

انتظر المدير بصبر وهو يفكر (من الصعب أن يكون ساذجاً بما يكفي ليحضر لي غنيمة - أتساءل يا ترى، ماذا أحضر؟) حُلّت العقدة الأخيرة وفتح المنديل المتسخ. كان فيه آجرة رمادية كبيرة. أخرجه البدوي برفق وسلمها له عبر المكتب، مشيراً بإصبعه الطويل إلى شيء ما على سطحها العلوي.

قال المدير وهو يأخذها في يديه: «آه، نعم». كانت آجرة عليها كتابة منقوشة؛ لُقية عادية شائعة، إذ كان من المعتاد في الأزمنة القديمة أن تنقش الآجرات في أبنية الحاكم بالكتابات.

راقبه البدوي بدهاء بينما كان يجول بناظره على الخطوط المنقوشة على الآجر.

(1) الشال: دثار، لكن المراد به هنا الكفّية (الشماع أو الغترة).

(الله كريم معي؛ لأنَّ أمثال هؤلاء الناس يعرفون قيمة أمثال ذاك الآجر الذي عليه كتابات منقوشة، ولكن لا يمكن لك أبداً أن تعرف قيمة أي من الآجر في الصحراء، ما يساوي وزنه ذهباً، وما لا قيمة له أبداً - كما لا يمكنك أبداً أن تعرف بماذا يفكر هؤلاء الناس. ولكنَّ الله رحيم، وربما سيعطيني بعض النقود؛ بما يكفي لبعض السجائر، أو حتى بما يكفي لشراء زوج من الأحذية - إن شاء الله، إن شاء الله...).

قال فجأة أشبه بضربة سوط جملة سريعة: «أين وجدت هذه؟».

مال برأسه نحو النافذة: «بعيداً، بعيداً جداً، أيها المدير؛ في مكان ما في الصحراء - على بُعد مسيرة يوم».

هل تحمل اسماً؟

تسمى «تل أسمر».

همس المدير بتردد: «The Brown Mound، ولا شيء هناك سوى رواب مبنية أينما نظرت، هل بإمكانك إيجاد هذا المكان بالضبط مرة أخرى؟».

«نعم حضرة المدير.. أستطيع بالتأكيد».

نظر المدير حوله إلى الموظف الشاب الذي كانت عيناه الداكنتان تشعان بالاهتمام.

«أريد السيارة، أخبر عبد الله أن يتأكد من خزان الوقود إن كان ممتلئاً، ويأخذ صفيحة احتياطية منه، ولكن جاهزين خلال دقائق».

أسرع الفتى خارجاً.

بعد قليل تحركت السيارة خارجة عبر بوابة مقنطرة نحو الطريق الترابي، وانعطفت إلى الجنوب الشرقي، جلس المدير قرب السائق، وأقحم رجل الصحراء نفسه بين غطاء العجلة الخلفي وغطاء محرك السيارة بأسلوبه اللامبالي لأمثاله حين يذهبون إلى مكان ما بواسطة سيارة، وإحدى يديه على غطاء المحرك لتأكيد سلامته.

مرّوا فوق جسر لانكشاير Lancashire Bridge، وتجاوزوه إلى مسافة ميل أو اثنين، إلى أن صرخ العربي فجأة: «هاه! هاه! محرّكاً ذقنه بلحيته البارزة نحو اليسار. تمايلوا بطريقهم للدخول إلى الصحراء الحقيقية - لم يكن هناك ركام رملّي صغير ولا آثار لأيّ عجالات ذاهبة آتية لتقودهم وقتئذ. وفي ذلك اليوم كانت عجالاتهم تطبع أوّل آثار لرحلات لا تُعد. ولم يتردّد العربي أبداً في تقدمهم أعمق وأعمق في الأرض القاحلة.

«هاه! هاه!.. وأشار بوجهه الملتحي إلى السائق لينعطف يساراً. «هاه!، هاه! - يمين، والآن - نحو اليمين! وإلى الأمام، تابع تابع».

وبعد خمسين ميلاً من ذلك، كان ابتهاج أخير: «هاه!»، وأمامهم قريباً منهم ظهرت تلة بنية منخفضة قبالة الأفق.

«هنا وجدتُ الآجرة، أيها المدير - هنا تل أسمر».

تسلق المدير ببطء، ومدّد أعضائه المتشنّجة، ثم نظّر حوله. لا شيء سوى كُثبان رملية بنية رمادية، مكسوة بالجصّ، فارغة تحت سماء هائلة. مشى بتمهل إلى أعلى منحدر الرابية اللطيف نحو القمة وبدأ بالتحرك عليها، يضرب هنا وهناك بعصاه. فكّر (آجرة واحدة طليقة لا تُعدّ دليلاً). التقط بعض القطع الصغيرة لفخار متكسّر، وتفحصها؛ ووضع بعضاً منها في جيبه، وقذف الأخريات إلى الأرض. ثم توقف ناظراً نحو الأسفل نحو شيء ما آخر على السطح - آجرة - ولكنها طليقة. جلس القرفصاء، وبدأ بإبعاد التراب بيديه عن الآجرة حيث وُجدت. كان هناك آجرة أخرى أسفل السطح، وتحتها استطاع أن يرى الأخريات - وكانت مترابطة معاً كما بُنيت لأول مرة. ولم يكن هناك شك من وجود قسم لجدار من اللبنة الطينية في موضعه الأصلي. أخرج المدير سكيناً وبحذر رفع الآجرة العليا؛ ثم نفخ التراب بلطف عن السطح. نعم، هنا كانت للمرة الثانية النقش ذاته:

«إبق أدد الملك الجبار»

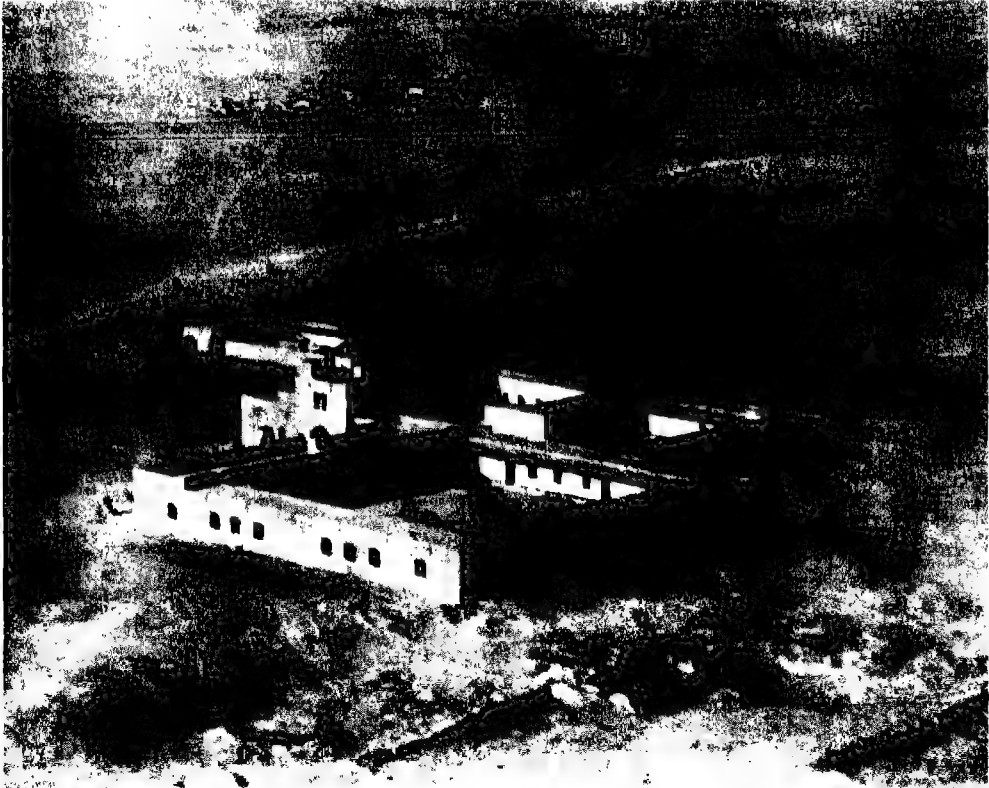
«موسّع إشنونا»

«محبوب تشپاك»

«ابن إباليل».

وهكذا.. فقد تم اكتشاف إشنونا أخيراً!!

* * *



«بعد أكثر من 3000 سنة قامت الجدران من جديد في هذا المكان الثاني»

كانت مشكلة التنقيب في تل أسمر على المحك، فبالإمكان أن تكشف التاريخ الكامل لإشنوناً القديمة - وبالتأكيد، كانت مشكلة التنقيب على جميع الأحوال مشكلة هائلة. حيث لا ماء، ولا منزل. إضافة إلى أن ما يزيد المسألة تعقيداً اكتشافنا المهم بأن ما وصل إلى أيدي التجار من آثار كانت تعود إلى رابيتين قرب نهر ديال، والتي قد تكون على أي حال جزءاً من الدول المدنية القديمة، ولكنها بعيدة عن تل أسمر؛ وللحيلولة دون وقوع سرقات أكثر، فقد كان يتوجب على أية بعثة في تل أسمر أن تكون تلك الروابي داخلة في الامتياز التي حازت عليه للتنقيب في تلك المنطقة، وبذلك يمكن لهم التنقيب فيها وحراستها بشكل جيد. وهذا يعني هيئة تنقيب كبيرة، وبالتالي منزل لهم كبير، وكل شيء بالقياس يحتاج لمقدار ضخمة من المال. وكان لهذا السبب بعيداً عن مستوى أية مؤسسة بريطانية للتنقيب عن الآثار، والتي كانت تعتمد ميزانيتها في تلك الأيام في الدرجة الأولى على منح قليلة من المتاحف وعلى التبرعات من أعضاء جمعيات مثقفة. كان الحل الواضح للاكتشاف الجديد أن يكون مندمجاً في كيان ضخمة لأعمال علماء التنقيب التي يقوم بها المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو Oriental Institute of the University of Chicago، الذي كان يتولى تنقيبات في مصر وفلسطين وسوريا وشمال العراق وإيران.

أرسلت رسائل سريعة في مطلع عام 1929 بين بغداد وشيكاغو. ولقد أدرك البروفسور برستيد Breasted مباشرة أهمية المكان المكتشف مؤخراً، وقرّر أن يقدم طلباً للحصول على امتياز للتنقيب فيه، مما شكّل رابطاً عظيماً آخر في سلسلة الاكتشافات المستمرة حول الشرقي الأدنى والأوسط. ولكنه علم أنه سيحتاج لمبلغ من المال أكبر من الكبير لهذا الموقع، كما علم بأنه يجب أن يكون لديه رجل من الدرجة الأولى يعمل كمدير حقل، رجل يستطيع أن يتفوق لا في حقل العمل وحسب، بل أيضاً ليضع النتائج في مكانها المناسب بشكل لا يُخطئ في مخطط العمل الكبير للكشف عن تاريخ سومر القديم غير الواضح؛ رجل يجمع في شخصه شدة الإتقان في العمل كمخبري، مع نظرة واسعة لمؤرخ عظيم؛ كما وعليه أن يحوز على صفات

أخرى أكثر من مجرد مقومات منقب آثار، كأن يكون قادراً على معالجة مشاكل الإدارة، والتي يمكن أن تكون هائلة على نحو كبير في مكان منعزل كهذا. وأخيراً، وليس آخراً، يجب أن يكون رجلاً من صنف يستطيع قيادة فريقه ويجعلهم يقدمون أفضل ما عندهم من عمل في الأوقات العصيبة التي تقود إلى الانهيار بسبب طريقة الحياة التي عليهم أن يمارسوها في عزلة قد تمتد لشهور طويلة في الصحراء.

استطاع عدد قليل من الرجال تحقيق جميع تلك المتطلبات، والتي كان كل منها مهماً بشكل أساسي - وكان برستد يعلم ذلك. ولكن ومع تأمله بتلك المشكلة، تحولت أفكاره إلى التنقيب في مصر، التي كان زارها قبل سنة فقط؛ حيث يقوم مدير حقل شاب - بتوجيه هيئة بدت أنها في أفضل الشروط بعلاقتها معه من جهة وبين أفرادها بعضهم مع بعض من جهة أخرى، ومع تقديم نتائج ممتازة تحت قيادته - فقد حصل مؤخراً على درجة الدكتوراة Ph. D في التنقيب على الآثار لنشره عملاً يدور حول الآنية الفخارية في الشرق الأدنى القديم. شخص يملك سعة أفق أبعد بعيداً من المشاكل ومن أهمية التنقيب الفردي. رجل تواق عبقرى، ومعه زوجة شابة متألفة. نعم، فكر برستد؛ وكتب رسالة طويلة جداً...

كانت أول حركة لفرانكفورت Frankfort بعد قبوله العمل في وظيفة مدير موقع البعثة العراقية للتنقيب هو تعيين ستون لويد Seton Lloyd مهندساً معمارياً له ليقوم الأخير بالخطوة الأولى ببناء منزل في تل أسمر، وهكذا بكل بساطة اعتقد المقاتل الذي تعاقد معه للبناء حسب المخطط الذي وضعه المهندس بأنه إذا قام بحفر بئر عميق بشكل كاف في الموقع فسيكون بالإمكان صنع الآجر في المكان نفسه، وبالفعل وعلى عمق 600 قدماً وجد ماءً، ولكن لكونه مالح جداً تفتت الآجرة إلى قطع فور جفافها.

كاد المقاتل أن يجن، وكان عليه أن يعيد التفكير مرة أخرى. فوجد أن على بُعد اثنتي عشرة ميلاً باتجاه الشمال كانت نهاية قناة حديثة، فزود صهر بج ضخمة بخزان كبير وأرسل إلى القناة مع ستة من البدو مسلحين بعدد من صفائح البنزين الفارغة، وضعت

على طول جوانب الصهريج. وقد تمَّ حلُّ مشكلة المياه، لصنع الأجر وللاحتياجات المستقبلية للبعثة، ما عدا في ناحية واحدة - وهو مياه الشرب. أرسلتُ عينة من ماء القناة إلى طبيب في بغداد من أجل التحليل؛ وقد كان رأيُه بئناً وقاسياً، ولكنه غيرُ مفاجئ؛ لأنَّ عدداً من القرى امتدَّ على طول ضفاف القناة؛ حيث قال إنَّه من الممكن استخدام الماء للغسل فيما لو صُفِّي بشكل دقيق جداً، وقال: - يمكن أن يُغلى لمدة طويلة، ومع ذلك يبقى غير قابل للشرب. الإمكانية الوحيدة كانت بالحصول على مياه معالجة بالكُلُور تُرسل من بغداد - وأضاف بلطف، أو هناك بالطبع دائماً البيرة.

بُني المنزل على امتداد أرض قريبة جداً من أقصى جنوب التل، وتألَّف من ثلاثة أفنية مترابطة مشكلة حرف (L)؛ كانت جميعُها على مستوى الأرض، ماعداً البرج الذي فوق مدخل السيَّارة، والذي يُرقى إليه عبر درجَات خشبيَّة قاسية، ويحتوى البرجُ على خزان ماء تُضخ إليه المياه المُتَّفة الخالية من الشوائب أولاً. وفي زاويته سارية نحيلة تحمل المصباح الكهربائي في أعلى قمتهَا، ينير 15 قدماً أخرى أو أكثر.

اشتمل الفناء أسفل البرج على محطة ديلكو Delco لتوليد الكهرباء، ومغسل لغسيل الثياب، ومساكن الخدم، ومساحة مرآب تكفي لثلاث سيَّارات. واشتمل الفناء قريباً من المرآب على مكتب رسم، ومخبر، والغرفة المظلمة (لتظهير الأفلام)، وغرفة طويلة جداً مليئة بمقاعد خُصِّصَت للعمل على اللُّقى عندما تصل من الموقع، ورفوف لخزنها. أما الفناء الأكبر فقد تألَّف، في جهات ثلاث من غرف تصلح للجلوس والمنامة لأعضاء البعثة، ومكتب مزوَّد بمكتبة مراجع؛ وعلى الجانب الغربي كانت هناك غرفة معيشة طويلة بموقدها المفتوح وكراسيها المريحة؛ وتتصل من خلال أبواب متأرجحة مزدوجة بغرفة الطعام.

بعد زمن امتدَّ لأكثر من 3000 سنة، ظهرت جدران من جديد في هذا المكان الصامت؛ أبواب تُفتح وتُغلق؛ خطوات مشغولة للعمل أو للمتعة مرة أخرى على أراض مرصوفة؛ وسُمعت أصوات في الهواء الجاف النقي.





فتى يمتطي جواداً في حفل



فتيان القفف



بدوي يحمل صقراً

اكتشفتُ بأنَّ الاسمَ الحقيقي لعالم اللغة (الفيلولوجي) الذي يُدعوه الجميع جايك Jake كان توركيلد ياكوبسن⁽¹⁾ Thorkild Jacobsen. كان دنماركياً، كما قامت زوجته ريغمور Rigmor بتصوير جميع أعمال التنقيب. كانت لدى هانز قاعدة وهي أنه يمكن قدوم الزوجات إلى موقع التنقيب في حال قيامهنّ بعمل حقيقي - فقد أتلّف التناغم في العديد من أعمال التنقيب بقدوم زوّار من الجنسين - لذا فقد قامت ريغمور بتدريب مكثّف في الدنمارك، مما جعلها مصوّرة فوتوغرافية متميزة من الدرجة الأولى.

إنّ التباينَ الشديدَ لمظهرهما وأساليهما، ينفي خلطتهما الغربية، ويؤكد ارتباطهما الكامل.

كان جايك شاباً طويلاً، منحنيّاً قليلاً، كما لو أنه متلهف دوماً لالتقاط تعليقات من أناس من ذوي الطول العادي؛ يمتلك ملامحَ هادئةً تحت موجات شعره المتموج بالشيب مثل زهرات الربيع المتكسّرة؛ وعيناه رمادية غائرة، متأملة دوماً كعيون راهب، وتضيق تلك النظرة عندما يضحك، وله فم صغير قابل لأن يُصبحَ ذا خطوط قاسية فوق ذقن ضخم كبير، وعلى الغالب معلق فيه الهايب الاسكندنافي المعقوف.

كان عمله الخاص طبعاً ترجمةً لجميع نصوص النقوش التي وُجدت في موقع التنقيب. كان جايك يعود كلّ مساءً إلى غرفة صغير ليعملَ على ألواح طينية صغيرة ثقيلة، وبصبر يحلّ ألغازَ تسجيلات قضايا قانونية وتجارية كانت تعني فيما مضى نصراً

(1) توركيلد بيتر رودولف ياكوبسن (1904-1993) مؤرخ دنماركي شهير مختص بالنصوص الآشورية القديمة، وأحد أشهر الوجوه العلمية فيما يخص الشرق الأدنى القديم. درس في جامعة كوبنهاغن، ثم نال الدكتوراة من جامعة شيكاغو. عُيّن من قبل المعهد الشرقي (OI) التابع لجامعة شيكاغو بصفة الأخصائي الميداني في النصوص الآشورية، ضمن بعثة المعهد في العراق التي دامت بين 1929-1937. وفي عام 1946 أضحى مديراً للمعهد المذكور ومدرسا 1946-1962. ثم في عام 1962 غدا ياكوبسن أستاذاً للدراسات الآشورية في جامعة هارفارد، حتى تقاعده عام 1974، ثم شغل منصب أستاذ زائر في جامعة كاليفورنيا بلوس آنجلز UCLA حيث أسّس فرعاً مهماً للدراسات الآشورية. ويعدّ إجمالاً أهم من درس الثقافة الآشورية والأكاديمية.

أو مصيبةً لخصوم متحفزين وتجار قبل 4000 سنة. حملت مشاعره لدقائق اللغة عبر العصور إلى أنه درس اللهجة الحديثة - فعلى سبيل المثال، كنت ألاحظ أنه يمكن أن يشير إلى كلمة "autumn" لو كان يتحدث معي، ولكن يمكنه أن يُبدلها بعناية إلى "fall" إذا كان مستمعه أمريكياً.

وبقدر ما كانت ريغموور سمراء ومفعمة بالحيوية، كان جايك أشقر وهادئاً. لها عينان شهلاوان جميلتان واسعتان استقرّتا تحت حاجبين طويلين، في وجه أسمر صافٍ؛ وكانت حركاتها سريعة ورشيقة حتى أنّه يندر أن يظفر المرء بفرصة لمشاهدة وجهها وهو بحالة استرخاء. وأنا أحبُّ النظر إلى الوجه عندما يشرّد العقل بعيداً عن منافذه ويتجه الى الداخل؛ حين لن تتمكن الشخصية المعقدة أن تفسد الشكل المطلق، والذي يكون في بعض الأحيان كل ما يرغب الشخص ملاحظته. ولكن ريغموور لم تكن شاردة أبداً، كانت متألقة دوماً؛ وإن لم تكن كذلك، فإنّها متيقظة متحفزة. كنت أفاжئها بالطريقة ذاتها التي نصّح ريتشارد جفريز⁽¹⁾ Richard Jefferies الناس بأن يراقبوا الطيور بها، دون أن يظهر وأبداً أنهم ينظرون إليها، محاولين جعلها تعتقد أنهم غير مهتمين.

كانت صورها التي التقطتها للتنقيب واللقى غاية في الوضوح. وكانت المشاكل التي توجب عليها حلّها في التنقيب في تلك الأوقات صعبة جداً؛ فربما وُجدت قطعاً آجر ملتصقتين معاً في أسفل حفرة ظليلة، ذات أهمية فقط بسبب تجاورهما، ويجب تصويرهما في موقعهما كما هما حيث عُثِرَ عليهما حتى لا يذهب البرهان الصغير الذي وُجد أدراج الرياح. ولا أعتقد أن ريغموور في النهاية أخفقت أبداً في تقديم نتيجة مرضية مهما كان الثمن بصراعها مع الرّكائز الثلاثية وقطع القماش في النقاط المنعزلة والرملية، أو لساعات طويلة في الغرف الباردة المعتمّة. ولا أعتقد أيضاً أن الصبر كان سهلاً عليها، لكنها كانت تماسك بنوع من سخط هادئ إلى أن تصل إلى درجة الرضا التام عن عملها.

(1) جون ريتشارد جفريز (1848-1887) كاتب إنكليزي اعتنى بوصف الطبيعة، وخاصة في الريف الإنكليزي.

وصل في اليوم التالي لمجيئنا ثلاثة من أعضاء الهيئة الأمريكية، كانوا جميعهم وافدين مثلي: الدكتور ماك إيوان Dr. McEwan وزوجته، وهارولد هيل Harold Hill. جاؤوا إذن؛ لكنني لم أدرك لعدة ساعات قبل مجيئهم أنهم ماك وبتي وهال، وكانوا تقريباً أول أمريكيين أقابلهم في حياتي. كان ماك Mac وبتي Betty قد جاءا للعمل في هذا الفصل فقط، لكي يكتسب ماك خبرةً في ذاك النوع من العمل قبل ذهابه لإدارة تنقيب جديد في سوريا. كان شاباً ضخماً، في الثالثة والعشرين من عمره، ولكنه يبدو أكبر من عمره إلى حد بعيد؛ ذا عينين ناعستين، وأنف أفطس، وصوت بطيء، بعقل حر، وملاحظة قوية مرحلة. كان ذاهباً في البداية للعمل مع بيير في واحد من المواقع قرب نهر ديالسي والذي كان وقتها داخلاً في نطاق صلاحياتنا، وكان يُدعى خفاجة، فيما كانت بتي ذاهبةً لإدارة المنزل الصغير هناك.

أما هال Hal فقد كان مهندساً معمارياً، وجاء عضواً دائماً؛ ليشارك ستون بالعمل الضخم في مسح الأراضي ورسم التنقيب في تل أسمر، كل مستوى كان على حدة. كان شخصاً نحيلاً أسمر وقوراً، له عينان داكنتان مظللتان. ولم يتطلب طويلاً ليتضح أنه كان حساساً بشكل هائل للمقياس الذهني، فهو يبقى دائماً محتفظاً ومنعزلاً، رغم سحره ما لم يكن مع أشخاص كان يسمح لنفسه بحذر تصديق أنهم مغرمون به حقاً. وعندئذ فقط، تستطيع مشاعره الدافئة أن تبدد حالة الاكتئاب عنده، ليظهر محتفظاً بهدوئه - فهو لا يرفع صوته أبداً أعلى من الهمهمة الخافتة التي ذكرتني بنحلة حُبست في علبة كبريت - ولكن بعين متألفة وذكاء متقد. لم يظهر أي من ذلك في الأيام الأولى - فقد كان هو وماك وزوجته قد انتقلوا في باص نظامي من دمشق إلى بغداد عبر عاصفة رملية شديدة، وكانوا جميعاً متعبين، وبدا هال مريضاً فقد سبب له الغبار في الجوّ سعالاً جافاً.

بدأت الآن أشعر أنني أخذت كفايتي من الناس الجدد كي أستمّر معهم، ولكن الجميع ألحوا بالسؤال: «ماذا يمكن أن يكون حصل لغوردون وهام؟». وأنا أتساءل إلى أين يمكن أن يكون وصل غوردون وهام؟» بعد يوم آخر من التفريغ والتصنيف

والتنظيم، وكنت ما أزال أشعر أنّ كلَّ شيء في الواقع يقع على عاتقي، وافقتُ شاكراً على اقتراح راحيل للسير إلى موقع التنقيب بعد شرب الشاي؛ انطلقت الرحلة في نور غروب الشَّمس الدافئ. عبَرنا مجموعة الأبنية التي كان ستون قد أراني إيّاها في مكتب لندن بدايةً في الصُّور الجويّة، ثم على لوح رسمه. استطعتُ أن أُميز بسهولة البناءين الأساسيين منها - وهما: القصرُ وبناء آخر اتّصلَ به عند إحدى الزوايا.

وصَلنا إلى أعلى نقطة في الرّايّة المُنخفضة، كانت ساكنة تماماً. وعندما نظرتُ شرقاً ظننتُ أنّني أرى خيطاً رفيعاً لدخان أبيض قريب جداً من الأفق. نظرتُ راحيل أيضاً، وابتسمتُ ابتسامتها اللطيفة الخجلة. قالت: «لا. هذه القمم الثلجية لجبال فارس - التي تبعد مائة ميل تقريباً - وهذا ما جعلها تبدو منخفضة جداً». حدّقتُ مندهشة؛ واستطعتُ أن أرى الآن عندما نظرتُ بدقة أنّ هناك خطأ طويلاً منقطاً لقمم بيضاء امتدّت شمالاً وجنوباً. حيثُ أخفى الخداعُ البصريُّ للغلاف الجويّ مستوى سلسلة الجبال ذاتها - وكأنّ القمم قد ارتفعتُ وحدّها متحررةً على طول سماء المساء. لقد كانت رؤيةً نهاية الفراغ مريحةً بشكل غريب عندما نظرتُ في ذاك الاتجاه.

بعد ذلك سَمعنا أصواتَ رجال يتحدثون - ولكن لم يكن بالإمكان رؤية أيّ شخص في أيّ مكان. في الواقع كان هناك شيء مخيف؛ هل يمكنُ أن يكونَ هناك رجال اختبأوا في الخرائب الرّمليّة حولنا؟ قالت راحيل مشيرةً: «أعتقدُ أنّ هذين الشئيين بعيداً شمالاً هما بقعتان سوداوان صغيرتان متحركتان باتجاهنا؛ ولا بدّ أنّهما على بُعد أكثر من ميل. كما كان هناك ظاهرة أخرى في هذه المدينة الغريبة؛ أعتقدُ أنّه السُّكونُ وحالة الفراغ من جانب يدعمهُ توجُّهُ الصّوت على لوح الأرض الميتة المسطح القاسي - ولقدُ سَمعتُ أصواتهم في آذاننا كما لو أنّهم كانوا على بُعد بضع ياردات منّا.

قالت راحيل: «أتوقّع أنّهم أولُ العُمال، فقد تلقوا بطريقة ما كلمةً تعلنُ أنّ الموسم الجديد قد بدأ، وساروا إلى هنا فوراً من قراهم في مكان ما على طول الأفق، وسيكونُ غداً ازدحام شديد».

«ولكن أين يعيش هؤلاء بحقّ السماء؟!».

أشارت غرباً إلى الأرض المستوية خلف التل، إلى خط من حُفر وعرة وخنادق.

قالت: «لقد قاموا بحفر حُفر في الأرض وتغطيتها بحصير وجلود. وقد كفلنا لهم تأمين الماء، وعليهم إحضار طعامهم. وفي كل أسبوعين من بدء يوم الدفع يعودون إلى قراهم مدة يوم واحد ثم يرجعون في الليلة التالية مع مؤن أكثر». كان الرجال قد أصبحوا أقرب الآن، يحمل كل واحد منهم في يد حزمة صغيرة.

مشينا ببطء عائدين إلى المنزل، وذهبنا إلى غرفنا للاستعداد العشاء. كنت متلهفة لبدء العمل الفعلي. كان الجميع في غاية اللطف؛ وأعطت اللّمحات الأولى للحطام المتشابك خطوطاً عريضة لمنزل البعثة بغرفه المُعقّمة المُرتّبة، بُنيت بشكل مُستدير، وحُصرت ثلاث ساحات صغيرة اقتطعت من الصّحراء، تبدو غير متناسبة أبداً حتى إنّها تبدو غير طبيعيّة؛ ممّا يبعث على الاكتئاب. قال عنها ستون إنّها منعزلة بشكل لا يُصدّق، ولكن ربما كان يفكرُ بواقع الجغرافيا فقط عندما قال ذلك.

شعرتُ بعزلة عن الناس؛ وكأني نزيلة جديدة في نُزل إحدى الجامعات للطلّاب الأجانب. وقد كنتُ أشعرُ أنّي الأكثرُ غربّةً. اجتمعنا كلّنا هنا، معارف مهذبين، بالنسبة لي شخصياً: هولندي، روسي⁽¹⁾، أميركي ودنماركي، يُحضرون لعمل فريق فقال وعلمي. هل سنستمرُّ طوال الوقت هكذا؟ هل يمكنُ أن أفهم ما كان كنه هذا العمل؟ هل سأنجرفُ معهم في كلّ ما كنا نقوم به؟ نظرتُ حولي في غرفتي اللّطيفة بأثاثها الحديث، والذي كان يمكن أن يقدّم سُفحةً حسنة لفندق جيد، وذلك بمصباح القراءة الكهربائي عند السّرير، وبحوض الغسيل الّلامع في الزاوية. حاولتُ جاهدةً أن أكون عقلائيّةً، ولا أمقتُ كلّ ذلك، عندما فكّرتُ متشوقةً لغرفتي الصّغيرة البسيطة في تلّ العمارنة بمصباحها الزيّتيّ المجنون الذي علّق على الخطاف، وحوض الاستحمام المصنوع من القصدير على الأرض.

عندما بدلتُ ثيابي ذهبْتُ عبر الفناء إلى غرفة المعيشة، ووجدتُ أن العضوين

(1) المقصود بنحاس پير دلوغا Pinhas Pierre Delougaz المولود في أوكرانيا.

الأخيرين من البعثة - الأميركيين - قد وصلا لتوّهما. كانَ غوردون لاود Gordon Loud يحدثُ هانز وييتي حولَ المغامرات المُتعبّة في طائرة خربة قادمة من نابولي قامتُ بهبوطَين مفاجئَين محطّمين للأعصاب، بينما كان رفيقهُ جالساً على طاولة يؤرّجُ ساقيه، ويضحكُ مع هال وريثمور. كانَ وجههُ شاحباً عليه بقع من الكلف وعيونهُ بنيّة مصفّرة، ترافقُ غالباً بشعر أحمر قاتم. بدا مُتوتراً مُتحمّزاً - ربما هي ردّة فعل بعدَ رحلته الجويّة الرهيبة. وعندما رأيَ انزلقَ عن الطاولة وأقبلَ نحوي.

قال بابتسامة سريعة: «أعلمُ مَنْ أنت، ولكنك لن تعرفيني. اسمي هاميلتون داربي Hamilton Darby - ادعيني هام Ham. تعالَ لي لشربِ سوّيّة، وأخبريني ما رأيك عن كلّ شيء هنا».

صافحتُني بقبضة محكمة، وأخذني خارجاً وعرّفني على البقيّة. جعلني الدفء المفاجئُ الفاتنُ وغيرُ المتوقع أُرغِبُ بأنْ أنفجرَ بشهقات بكاء عالية غيرَ بريطانيّة، فيما إذا كانَ هذا المكانُ الغريبُ سيلعبُ خدعةً مع قلبي. وذلك لأنّي لم أكنُ واجهتُ أبداً ذلك النوع من الودّ السهل السريع مسبقاً. هل كانت تلك تحيّة أمريكية عادية؟ - وإنْ كانت كذلك هل كانت تعني شيئاً، أم كانت تملّقاً؟ هل استطاعَ حقّاً أن يكونَ بدهياً جداً ليعلمَ كمُ كنتُ محتاجةً لأنْ أبتهجّ في تلك اللحظة؟ مهما كانت تعني فقد أصبحتُ أفضلَ بشكل كبير؛ وتساءلتُ فيما إذا كانَ هذا المكانُ الغريبُ سيلعبُ خدعةً مع قلبي، كذلك وأنا أُرشفُ جرعةً إضافيّةً من المارتييني Martini، وسمعتُ الضحكات، وفكرتُ بالأشياء الغريبة التي رأيتها وسمعتها في موقع التّقيّب ذاك المساء.

* * *

الفصل الرابع

كانت الصَّحراءُ طوال فترة صباح اليوم التالي شمالاً وغرباً مليئةً بأشكال سوداء صغيرة مثنى وثلاث، تتقاربُ عندَ المنزل كما لو أنَّها تجاذبتُ بواسطة مغناطيس. كانَ هؤلاء البدو شديدو البؤس، يكسبون معيشتهم بصعوبة شديدة في قراهم الطينية على طول الأقيية حيث أنهم الآن أقاموا وجوداً شبه مستقر؛ وقد كانَ المُتوقعُ بالنسبة لأجرة تُدفع أسبوعياً بشكل متواصل لمدة أربعة أو خمسة أشهر في السَّنة أن تكون ذهباً بالنسبة لهم.

انقضى اليومُ مُسرِعاً بوجود نصف دائرة ضخمة من بدو جاثمين صامدين متحلقين حولَ واجهة الباب، وبدأ هانز مع ستون وجايك مهمّة استخدام مئآت أو أكثر من الرجال والصبيان الذين هم بحاجة إليهم في أعمال الحفريات والنقل القاسية. كانَ معظمهم قد أحضرَ بطاقات تُثبتُ أنَّهم كانوا قد عملوا في هذا المكان في السَّنة الماضية، وإذا كانت التقاريرُ عنهم جيدةً، فيمكنُ أن يتمَّ اختيارهم مرةً أخرى.

كانتُ بعضُ الوجوه الشاحبة لطيفةً جداً، ولكنَّ معظمهم تقريباً كان هزياً. كانت ثيابهم باليةً، ومن كلِّ الأنواع. فبعضهم كان يرتدي ثياباً عربيةً صرفةً، وهي عبارة عن عباءة بيّنة طوّقت فوق ثوب أبيض كدر؛ وبعضهم كان يرتدي سترّة عسكرية قديمة زُرّرت فوق قمصانهم الطويلة، ولا بدَّ أنَّها تمثّل بقايا من الحرب العالميّة الأولى، التقطتُ من مكان لا يعلمه إلا الله، بعضها كان بريطانياً بلون كاكي، والبعض الآخر تركياً رمادياً.

وارتدى جميعُ الرجال غطاء البدو، الكوفية، بيضاء، أو بيّنة، أو ذات تربيعات، عُصبت

حول الرأس بحبل أسود مجدول (عقال)، لُفَّ كيفما اتفق حول الذقن والحنجرة؛ وبشكل ما تَمَّ طَيُّ أغطية الرأس ووضعها بحيثُ كانتُ متنفخةً ومحيطَةً بالوجه القاتمة، فأصبحوا كلباس الفزاعات، كما وحافظتُ نوعاً ما لمرتديها على وقارهم القبلي.

عندما انتهتْ مَهْمَةُ الانتقاء، كانوا جميعُهم قد تفرَّقوا بعيداً، وكان على غير المحظوظين العودةُ إلى قراهم سيراً على الأقدام كلُّ تلك الأميال. وكان عزائهم أنَّ رفاقهم الذين تَمَّ انتقاؤهم كانوا في دورة عمل قاسية طويلة وشاقة تماماً، حيثُ يمكنُ لهم جميعاً عند الانتهاء من العمل أن يصبحوا أغنياء؛ ولكنَّ كانَ باستطاعتهم هم على الأقل أن يقوموا بأعمالهم على مهل؛ لأنَّهم عادوا لكسب معيشتهم في المساحات الصغيرة التي يزرعونها من الأرز والبصل قرب القناة.

ذهبوا بعيداً، وذهبَ العمَّالُ المستخدَمون خارجاً إلى خط الحفر التي كانت راحيل أرنتي إياه؛ وبدأوا برفوشهم⁽¹⁾ ومجارفهم القاسية بتهيئته للموسم المقبل. كانوا قد فرَّغوا الرِّمالَ التي كانت انجرفتُ إلى الحفر في فترة الصَّيف؛ ثمَّ أعادوا حفرَ الحاجز القديم والعوارض الخشبيَّة في الأعلى، وغطَّوها بحصيرة. ثمَّ كدَّسوا رمالاً فوق الحصيرة لحفظها في مكانها بدأت أعمدة من دخان أزرق ترتفعُ على طول الحفر، كانت من النَّار التي أشعلتُ من روث الجمل وذلك من أجل الاقتصاد في استخدام الكميَّة القليلة النفيسة من الحطب، والني تَمَّ عليها طهي وجبتهم من الأرز والبصل ببطء، لقد كانَ مشهداً هادئاً.

في غضون ذلك كان جبرائيل قد جلبَ حمولةً إضافيةً من الماء لهم، ومن ثمَّ وضعَ صبيان الشاحنة في الخدمة من أجل مَهْمَتهم الأسبوعيَّة في سقاية الشجيرات في الفناء الرئيس. حيث كانت شجيراتُ الكينا Eucalyptus وأجماتُ الدُّفلى Oleander قد زُرعتْ قبلَ سنة في الوسط منها وفي الزوايا الأربعة، وكانت قد برَعمتْ وازدهرتْ. كان الصبيَّة وهم يحملون أوعية الرقود المتربة يهذرون جيئةً وذهاباً، مبتسمين بين شاحنة الماء والأشجار الصَّغيرة، وقد غارَ الماءُ بعيداً حولَ الجذور الممتنة في الدوائر

(1) رفوش: جمع الرفش: المجرفة. (القاموس المحيط، ص 767).

الصَّغِيرَة المحيطة بالأشجار. نظرتُ إلى اللَّون الأخضر الهزيل، واستمعتُ إلى حفيف الأوراق الطويلة بنوع من شوق شديد؛ واعتقدتُ أنَّه لا يمكنني أبداً مرةً أخرى أن أستخفَّ بأشياء خضراء تنمو بوفرة في التربة الخصبة الوافرة.

ذهبَ بيير وماك وهام في فترة بعد الظهر لبدأوا العملَ في خفاجة، والتي تبعد 20 ميلاً، حيثُ مكثوا مدةً أسبوع متواصل.

تجمَّعوا في سيارَة فورد Ford قديمة عُرفتُ باسم توتو Toto - وذلك لأنَّ هانز ذكر أنَّها هي وسيلة النقل التي تأتي بها مجموعةُ العمل الخاصة بخفاجة. ثم اختفَّضوا في كومة الرَّمَل تُطلِّقُها في الخلف على طول الطريق باتجاه بغداد. بدأ الطريقُ إلى خفاجة غرباً من هذا الطريق على بُعد 12 ميلاً تقريباً؛ وعند ملتقى الطرق كانتُ هناك عصا رفيعة عُرسَتْ على قمة الكتيب، تتمايلُ بائسةً في نسيم الصَّحراء لتوضِّحَ الطريقَ في الأحوال الجوية السيئة. إنَّني حقاً متأكدة أنَّ كلَّ ما تحتاجه توتو كان ضربةً وُدِيَّةً على خزَّان الوقود تُرسل بها عائدةً على الطريق المألوف باتجاه اصطبلها في خفاجة دونَ مساعدة من السائق.

عدتُ أنا وغوردون إلى المكتب، حيث كان ذاهباً ليريني طريقته في المحاسبة التي لاقت استحساناً لدى الدائرة المالية في شيكاغو والتي كانت في الحاضر أحجيةً مستعصيةً هنا. كان غوردون مغادراً في اليوم التالي، ولكنَّه جاء إلى هنا ليناقشَ أولاً خطتهُ الفصلية من أجل البعثة مع هانز. كان هو المدير الميداني في خُرساباد، والتي تقعُ على بعد 200 ميلاً شمالاً قرب الموصل؛ التي كانت جزءاً من بعثة العراق. كان هذا التنقيبُ الشماليُّ معنياً بشكل كبير بفترة متأخرة، ومن أجل ذلك كان غوردون يتابعُ الحفرَ في مدينة سَرغون الثاني الكبير والد سَنخَرِيب Sennacherib، مع قصورها ومعابدها إلى الشرق تماماً من نينوى Nineveh. ولقد حكم هذا الملك من سنة 722 إلى 705 ق. م، لأكثر من ألف سنة قبل سقوطِ إشنونا. كانت راحيل قد أخبرتني أنه من يمكن للبعض منا الذهاب هناك في الربيع؛ وراحت تتكلم عن ذلك بوجْدٍ⁽¹⁾ كما لو أنها كانت الجنة على الأرض.

(١) الوجد: الشوق والمعاناة في الحب. (القاموس المحيط، ص 413).

في غضون ذلك كان غوردون هنا، يُطلعني بوقار على ما كينة الجمع. لم أكن قد لاحظتها من قبل تحت غطاءها الأسود في زاوية المكتب المظلمة. سَحَبَ الغطاء، وهاهي قابعة بأسنانها المكشوفة وكأنّها تُزْمَجِرُ عليّ.

قال وكأنّه يعتذر: «إنّها معقدة قليلاً، فقد صُمِّمَتْ في الواقع من أجل الرُّوبيات والآتات⁽¹⁾، النقود المتداولة هنا قبل أن تصبح العراق مملكة. ولكنّها الآن عُدِّلَتْ لتتعامل مع الدينار والفلس. كل ما عليك أن تذكره هو أن تضغطي هذا المفتاح هنا قبل سحب المقبض الإضافي، وتتجاهلي الإشارتين اللتين لا معنى لهما اللتين تظهران في الجانب الأيمن من العنوان الفرعي، ومن بعد ذلك عليك أن تضغطي على ذاك الزرّ هناك قبل أن تسحبي القبضة النهائية. وإذا استطعت ذلك فتدبّري أمر استخدامهما بنجاح»، قال ناظراً إليّ بريبة، وكأنّه اعتقد بأن الإنكليز ربّما لا يزالون يقومون بالحسابات بواسطة أعواد مثلمة، «من الممكن أن تُوفّر عليك الكثير من الوقت، لأنّ الحسابات هنا في الحقيقة، مُعَقَّدة جداً».

حاولت ألا أريّه أنّ كلماته قد أصابني بالدُّعْر، وسألت بشجاعة ما هو الدينار والفلس.

يُسعّر الدينار وفقاً للجنه الإنكليزي، وهناك ألف فلس في الدينار - ولا توجد فيه تقسيمات أخرى ممّا يجعله بسيطاً جداً. ولكننا بالطبع نقبض حوالاتنا من شيكاغو بالدولار، لذا يتطلّب أن تكون حسابات الصرافة قد عملت - وسيقوم البنك بإخبارك بذلك، بالطبع.. غير أنّ هانز يقوم بالدفع من أجل عدّة أشياء أرسلت له من إنكلترا بالعملة الإنكليزية، ولذا يجدر بك الانتباه لذلك أيضاً».

فكّرت فجأةً بالمكتب الصّغير في ملجأ مستر أوماني Mr. Ommaney بين علب القفازات الضّخمة - ما هو الطائل ممّا أقحمت نفسي فيه؟

(1) الروبية العملة السائدة في الهند، ظلت متداولة في العراق والخليج حتى ما قبل الحرب العالمية الثانية. والآنة anna وحدة نقد قديمة في بورما والهند وباكستان، تساوي 1/16 من الروبية.

«دعي جبرائيل يُعطيك حساباته كلّ أسبوع - وقد تَحَدَّثْتُ معه بخصوص ذلك. هو لا يجيّد الإملاء أو الكتابة أبداً، ولكنّ باستطاعته تذكّر كلّ جزء إذا احتجّت أن تسأليه. كما يقوم بأعمال التّسوق الشّخصيّة لكلّ أفراد الهيئة، وفي كلّ مرّة يذهب فيها إلى بغداد يقوم بالتّسوق للحاجات الشّخصيّة لكلّ الهيئة، لذا عليك الانتباه أنّك استعدت الثّقود من أعضاء الهيئة - ومن ثمّ أعطيتهم جميعاً فواتير مفصّلة كلّ شهر».

(آه! يا قرّة عيني مستر أوماني).

تابع غوردون بحماس، حيثّ بدا أنّها فكرته للمزاح الحقيقي: «لديّ كتاب جبرائيل هنا لأريك كيف تُصنّفينه، لقد فعلت الشّيء ذاته مع كتاب عيسى في خُرساباد». لقد كان صبوراً جداً، وهذاتُ لسبب واحد، وهو أنّ قيود جبرائيل كانتُ نعيماً صرفاً، إذ بينها كانت هناك رقعات لمواد بيع صنّفت بمهارة، مُختلفة جداً عن خربشة⁽¹⁾ جبرائيل وأخطائه في التّهجئة، وأخبرني غوردون بأنّ هذه كانتُ قد كُتبت من قبل عمّ جبرائيل إسكندر في بغداد، الذي استطاع جبرائيل في بعض الأحيان أن يرشّوه ليقوم بكتابة الحسابات له عندما كان في بيته. وبمنظرة عليها تُظهر بأنّ جبرائيل قد عانى الكثير عندما أنجزها بنفسه.

«27 نوفمبر 1 صندوق من الحلوى لرئيس مراقبي الشرطة».

قال غوردون إنّ جبرائيل كان قد تمكّن من إخراج جهاز ديلكو Delco من الجمارك في ذلك التاريخ بسرعة غير اعتياديّة.

29 نوفمبر 1 صندوق من حلوى التوفي لرئيس الشرطة.

قال غوردون بأنّه كان هو اليوم الذي أخرج فيه جبرائيل المؤن القادمة من لندن برسوم مُنخفضة على غير العادة.

كانت تلك المداخل تحملُ نكهة اللّيبالي العربيّة، واستمرّت في مدينة هارون الرشيد، أسلوب تسهيل طرق الحياة الصّعبة بالفواكه المُجفّفة. وفكّرتُ بحسن الحلواني: «الآن سوف أصنّع حلوياتها، حلويات مدهشة، آه! إنني لم أصنعها في حياتي من قبل أبداً».

(1) خربشة: الكتابة غير الواضحة، خربش الكتاب: أفسده. (القاموس المحيط، ص 763).

شَعَرْتُ بتردد أخف عند نهاية الجلسة، وتحت عين غوردون اليقظة، قرَّرتُ أن أضع مَبْلَغا على الآلة فَخَرَجَ بالدينار والفلس؛ لكنني بقيتُ مُتوتِّرة لبعض الوقت بعد ذلك بسبب تلك البدعة (الآلة الغريبة)، وشَعَرْتُ أَنِّي إذا ضَغَطْتُ يوما ما على زر بالخطأ، يمكن أن يُضَيَّءَ داخلها وتعزفُ «وردة الصَّيف الأخيرة».

غادرَ غوردون في اليوم التالي إلى خُرساباد، غوردون الدقيق، الجَدِّي، المُنْهَجِي، تركني مع عدة كُتُب حسابات كبيرة بمداخل مزدوجة، و عملات بثلاث لُغات، وألم في الراس طفيف. كنَّا نحن الثمانية هُناك في تل أسمر، مع هال في وضع شاذ لكوننا الأمريكيين الوحيدين في بعثة تنقيب أمريكية. وكان هو وهام يعرفان بعضهما من أيام جامعة هارفارد Harvard ولا بُدَّ أَنَّهُ تَمَنَّى في بعض الأحيان لو أَنَّهُ تَمَّ اختيارُهُ للتَّغَيُّب في خفاجة، حيث كان يسكنُ هام ومواطناه الآخرين. أما الآن فَإِنَّهُ سَيراهُم مرَّةً واحدةً في الأسبوع. أَعْتَقْدُ أَنَّ كلانا هو وأنا شَعَرْنَا بارتياح بسيط في البداية حول إمكانيتنا التغلُّب على المُشكلات كما يجبُ في أعمالنا الخاصَّة الجديدة، لذا وَجَدْنَا عِزًّا في صُحبتنا معاً في تنظيم يَعْلَمُ الآخرون جميعهم الكثيرَ حوله بعدَ عملهم فيه في فَضْلين سالفين.

في وقت متأخِّر من ذاك المساء عندما كان بعضُنا يجلسُ على الدَّرَجَات في الشَّمس مُقابلَ المنزل، عادَ جبرائيل من بغداد مع شاحنة حُمِلَتْ بما يقاربُ العَشْرَةَ أَشخاص. أصدر صوتاً ميكانيكياً كالمعتاد كما عندما تجاوزنا، واختَفَى تحتَ البُرج في الفناء الخارجي، وابتسم الرِّجالُ على مَتْنِ الشاحنة وَحَيَّونا بحماس عندما مرُّوا قربنا. قال هانز: «أهل الشُّرقاط»، ثُمَّ نَهَضَ هو وَسِتُون وَتَبَعُوهم إلى الفناء. سألتُ بيتي: «أهل الشُّرقاط؟» أجابت: «كالأقباط تماماً في مصر، قدموا الطريقَ كُلَّهُ مِنْ الشُّرقاط⁽¹⁾، قرب

(1) الشُّرقاط بلدة عراقية (صارت في أيامنا مدينة) تقع شمال بيحي في محافظة صلاح الدين، وتعدُّ أكبر قضاء فيها بعد سامراء وتكريت وبيحي، ويمرُّ نهر دجلة عبر قضاء الشُّرقاط ويقسمها إلى نهرين (صوبين). ما يزال أصل التسمية مبهمًا غير معروف، فالبعض يقول إنه يعود إلى الكلمة الآشورية (أشور كات) أي بؤابة آشور، بينما يرى آخرون أنه اسم آشوري (شيركاتا) يعني: مدينة الذئب. ويبدو أن كلام ماري تشب هو الأقرب إلى الصواب، بأن المعنى في اللغة الآشورية: القرية.

الموصل. تعني الشَّرَاقَط القرية في آشور - وقد بُنِيَتْ في الأعلى مقابل التلّ تماماً، وهي كلُّ ما تبقى من مدينة آشور Assure القديمة: سوف تُشاهدونها عندما نذهبُ شمالاً. وهم خبراء في رفع الأنقاض عن حفر الآثار، مثلهم في ذلك مثل أهل قفط في مصر؛ وقد وُظِّفوا بالطريقة ذاتها في أعمال التَّنْقِيب في جميع أرجاء العراق. وبالطَّبع، فقد نالوا أجراً أكثر بكثير من الأشخاص المَحَلِّيِّين، فالقليل جداً من المَحَلِّيِّين يُسَمَّحُ لهم أن يكونوا مع مَجَرَفَتِهِمْ في أيِّ مكان بالقرب من الجدار الحالي لمدينة قَدِيمَةٍ.

عادَ الشَّرَاقَطِيُّونَ عبرَ المَدخَلِ المُقَنَّطِ سِيراً على الأقدام، وألقوا التحية على ييتي بلطف. وكانَ مَظْهَرُهُمْ بكوفياتهم وأثوابهم البِيضَاءِ النَّظِيفَةِ والسَّوَادِ الفاحم فوقَ عباةاتهم أكثر روعةً من رجال البَدْوِ السَّامِلِيِّينَ الفُقَرَاءِ. لهم أحذية قوية وأحزمة ومحافظ جلدية. انْتَقَلُوا إلى ساحاتهم قُرْبَ الإصطبلات.

قال هانز: «سَنَبْدَا الحَفَرَ غداً صَباحاً».

لم يكن الشَّرَاقَطِيُّونَ يعرفونَ القراءةَ والكتابةَ، ولكنَّ بعضاً منهم كانوا أذكىاء جداً، وجميعهم أدهياء. أخبرني سِتُونُ أَنَّهُ أَخَذَ ذاتَ مَرَّةٍ كِتَاباً حَوْلَ مكانِ تَنْقِيبِ آخِرٍ لمقارنة البناء الذي كانَ يدرسه معَ مُخَطَّطِ كانَ فيه. هَبَّتْ نَسَمَةٌ فَجأةً فطارَتْ إِحْدَى الورقات، فقامَ شَخْصٌ مَسَنَّ من الشَّرَاقَطِيِّينَ لِيَلْتَقِطَهَا. شاهَدُهُ سِتُونُ يَدْرُسُهَا بعناية وهو يُعِيدُهَا ببطء. كانتَ مسودةً لِمُخَطَّطِ المَنْسُوبِ الأَرْضِيِّ للمَعْبَدِ؛ وبالنسبة للعَيْنِ التي لا تَمْتَلِكُ خِبرة، فَإِنَّ كُلَّ مَعْبَدٍ في سومر القَدِيمَةِ يُشَبَّهُ الآخَرَ.

أخبر الشَّرَاقَطِيُّ سِتُونُ: «أنا أعرفُ هذا البناء، فقد عملت فيه مع المدير كبير⁽¹⁾ Mudir Chiera قرب كركوك عندما كنت غلاماً هنا، في هذه الغرفة، وأذكر هذه

(1) يقصد إدوارد كيريا (1885-1933) Edward Chiera عالم آثار أميركي من أصل إيطالي، كان عالماً بالآثار الآشورية وباحثاً في الأدب واللغات. درس عام 1924-1935 في المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية American School of Oriental Research وكان في الوقت ذات يجري حفريات في موقع نوزي الأثري بالقرب من كركوك، بدعوة من غرترود بل Gertrude Bell (الست خاتون الشهيرة)، وكان لاكتشافه رُفُم نوزي وفكّه لرموزها أهمية علمية كبيرة.

المشكاة في الأعلى هنا، والدّعامَة هنا». لقد كان على حق تماماً - لقد كان المعبدُ نفسه؛ وعلى الرغم من أنّ ذلك كان قبل سنة، فلم يكن بحاجة ليعرف أكثر من جدران وزوايا محددة كان عليه تتبعها، ولكنه لم يحفظ المخطط الكامل للجدران وحسب، بل واستطاع تمييزها بعد سنين على شكل نسخة مطبوعة على الورق، وهو شكل غير مألوف بالنسبة له.

أما الدّهاء... فإننا ندفع لهم كلّ فصل ما يكفي للرحلة إلى ومن الشّرقا، كان بعض منها بالقطار؛ لسكة امتدّت حينذاك لمسافة حوالي 150 كيلومتراً فقط شمالي بغداد. لم يتحدث حتى دفعت لهم للمرّة الأخيرة عندما كان الحفر يتوقّف في 1937 وجاء جبرائيل نظيفاً بلا نقود. اعتقد أنه لم يجرؤ أن يخبرنا من قبل.

«هل تعتقدين يا آنسة أنهم أهدروا تلك الأموال على بطاقات القطار؟ الشّرقاطيون؟ لا ليسوا هم من يضيعون نقودهم على البطاقات. لقد كانوا يختبئون في حظيرة مواش في آخر المحطة في بغداد. ثم حينما بدأ القطار بالتحرك ببطء شديد، و... بسرعة! وقبل أن يتمكن قائد المَحطّة من إيقافهم كانوا يركضون بسرعة ويقفزون في آخر عربة». لقد كانت صورة لطيفة؛ قهقهة الشّرقاطين الذين مكثوا خلف سياج حظيرة مواشيهم - ومن ثم هجموا هجوماً عاصفاً، وتدافعوا داخل عربة النقل، وهم يرفعون أطراف ثيابهم بينما كان ناظر المحطّة المدني الضئيل يقفز من الرصيف وإليه ويصرخ مهتاجاً ويدعو الله أن يصبّ فوق رؤوسهم الوقحة لعناته وغضبه. هؤلاء هم أنفسهم الشّرقاطيون الذين استلموا جوازات مرورهم قبل قليل بامتنان ودماثة⁽¹⁾، وعيونهم تنظر إلى الأرض وهم ينحنون عند الخروج. أما الآن فهم يتدرّجون خارجاً بابتهاج وهم ذاهبون إلى بلدهم في الشمال على شاحنة نقل البضائع وهم يهرشون لحاهم ساخرين من المسؤول الخائب.

بدأ الحفر في السابعة من صباح اليوم التّالي؛ وعند التاسعة نزل ستون من التل من

(1) دماثة: سهولة الخُلُق. (القاموس المحيط، ص 217).

أجل الإفطار، وقال على الرغم من أنه يرتدي أربع كنزات⁽¹⁾ صوفيّة فإنّ الرّياح الباردة تكادُ تقطعه نصفين، وهذا ما جعل الأولاد ذوي القفاف ييكون إلى أن ارتفعت الشّمسُ تماماً، لأنّ الأرض كانت باردة جداً تحت أقدامهم الحافية. وقال هانز إنه من الأفضل البدء بالعمل بعد ساعة عن ذلك؛ فقد قدّم برْد الشّتاء مبكراً.

أخذتْ يون Jon للسّير في فترة بعد الظهر إلى موقع الحفر بينما ذهبتْ ييتي إلى غرفتها لتقرأ. كان معظم وقتها مشغولاً بالعناية بالصّبيّ الصّغير، وبإدارة المنزل وترتيب المخازن (بغض الطرف عن موظفي المطبخ الصّعيين أيضاً فقد كانوا ميّالين للاتفاق ضدّ الطباخ الآشوري، وهو رجل مسنّ عصبيّ كان يخشى أن تكون نهايته كشهيد مسيحي في كلّ مرّة كان يدير ظهره فيها لهم عند تقديم الحساء). قامت ييتي بذلك كله بشكل فعّال؛ لأنها كانت متعدّدة المواهب، مستعدّة لأنّ تجرّب أيّ شيء عمليّ عندما ترغب في ذلك. ومن وجهة نظرها فإنّ نزعتها العمليّة كانت سوء حظ لها؛ لأنّ رغبتها كلّها كانت نحو عالم الفكر؛ فالحيّة في معسكر كان صراعاً مستمراً لإنجاز المهّمات الضّروريّة كي تجد الوقت لاهتمامها الأساسيّ. عندما يكون الأشخاص المفكرون غير عمليين بشكل بائس فإنه باستطاعتهم اعتبار أنفسهم محظوظين، بمعنى أنّهم لن يُكلّفوا بأية مهّمات عمليّة. فهم يملكون كلّ الوقت في العالم للجلوس والتفكير في أسباب ذلك كلّ، بينما يكون زملاؤهم الأرضيون مشغولين بمتابعة طريقة التّنفيد.

ولكن ييتي استطاعت القيام بعمل بارع على نحو لا يُصدّق في موقع الحفر، في إنقاذ وترميم اللّقى الهشة، وكُنْتُ قد رأيت سابقاً بعضاً من إنجازاتها في مُتحف القاهرة في قسم العمارنة؛ فقد استطاعت أن تتغلّب على آيّة حادثة غير مُتوقّعة ظهرت في الموقع خارجة عن الروتين المعتاد، سواء كان اجتياحاً مفاجئاً لعزلتنا من زوار أو فرع جديد للبعثة يجب تنظيمه، أو مرة عامل بيد مكسورة، حيثُ ارتجلتْ له بخبرة جيّرة إلى أن أتيح له الذهاب إلى المشفى. كان أعجوبة صغيرة كيف استطاعت إيجاد وقت للدراسة.

(1) كنزات: سترات من الصوف.

كان هانز متعاطفاً معها بشدة في تلك المشكلة؛ وبالنسبة له أيضاً تأتي الأمور الفكرية أولاً؛ وبفضل قراءتها الواسعة وتفكيرها العميق فقد أعطته في الحال مُحَقِّراً وأرضية اختبار لإلهامه، عندما يشعل البرهان في حقل العمل عقله الوقاد بالأفكار الجديدة حول الحضارة القديمة، سواءً هنا أو في أي مكان في الشرق الأدنى حيث كان شغله الشاغل أفكار جديدة عن فنون هذا الشرق وفكره ودينه. ومثل الحداد أحضر لها تلك الأفكار مسبوكةً وحارةً إلى سندان محاكمتها البارد، وهناك بين مطرقة وسندان، يطير متلألئاً، الشيء الجديد المبتكر ويتجسّد شكلاً مصنوعاً باتقان دائماً، وبقيمة عالية، ثم بعد ذلك ليأخذ شكلاً خارجياً في كتاب جديد قد يكون حدثاً في عالم علم الآثار.

كانا محورين مزاجيين متناقضين، ظهرا لي من أقوى الشخصيات التي عرفتُها في حياتي تميزاً، ومتناغمين بشكل تام في الوقت ذاته لدرجة أنه لا يمكن لأحد أن يُفكّر بأحدهما دون الآخر.

وأثناء وجودي هنا عندما كنت أتمشى يداً بيد مع ابنتهما إلى موقع التنقيب ونحن نتكلم بسعادة حول هذا وذاك. وكالأطفال الصغار المتألقين دون عبارات كافية في الذهن لتشرح أفكارهم المتزاحمة، كانت لديه الآن فأفة⁽¹⁾ بسيطة. ولدى وصولنا لأول منحدر من التلّ توقف كلٌّ من العُمّال والأولاد حاملِي السلال عن عملهم ليحدقوا به باهتمام شديد وابتهاج.

«الولد - ابن المدير. تبارك الله! الله العظيم». ولو كان فتى صغيراً ما نظروا إليه نظرةً واحدة.

كنا قرييين من قسم التنقيب حيث يقع القصر، كان الرملُ يرتفع تحت مستوى الأرض تحتها بعمق كبير. وعلى أعلى نقطة من التلّ، كانت هناك كومة نمل أخرى نشيطة، ركضت أشكالهم الأولاد حاملو السلال جيئةً وذهاباً هناك مقابل الأفق. علمت أن جايك كان هناك فوق، وقد أدخل هال في عمله الجديد، وذهبا ليحللاً معاً

(1) فأفا: ردّد الفاء وأكثر منه في كلامه. (القاموس المحيط، ص 60).

المنطقة حيث بُنيت جميع بيوت إشنونا الخاصة، شمالي القصر.

لاحظتُ في الحال أنَّ الموقع لم يكن مكاناً مناسباً لـ Jon في يوم عاصف. كان الغبار الخانق يتطاير في كلِّ مكان، وبالطبع كان المكان منقّباً ومحفوراً بشكل خطير. أعتقد أنَّه يمكنُ أن يكونَ قد شَعَرَ بخيبة عندما قلتُ بأننا لنْ نذهبَ إلى مسافة أبعد. ولكن يون سوّى الأمورَ بجلوسه على الرّمال الصّخريّة، وظهره إلى موقع التنقيب، وبدأ بغناء أغنية هولنديّة قصيرة. ثم وجدَ خنفساءَ كبيرةً تمشي قربَه، وقد أسعدته، فهو مفتون بجميع الحيوانات.

سألته: «يُـون هل من الممكن أن تكونَ على ما يرام لدقيقة، أريدُ فقط الذهابَ وإلقاء نظرة على الحُفرة؟».

قال مبتسماً: «اذهبي» ثم أضاف ببطء كما لو أنَّه كان متأكداً من أنه سيلفُظ الكلمة الجديدة الباهرة بشكل صحيح تماماً، «وفي غضون ذلك سأبقى هنا وألعب مع خنفساي السوداء الكبيرة».

ذهبتُ في الطّريق الضيّق ووصلتُ إلى حافة الحفرة، ونظرتُ إلى الأسفل، كانت على عمق عشرين قدماً تماماً من هنا. شاهدتُ تشابكَ جدران سميكة تمتدُّ على كلِّ الزّوايا، وأودية مُنحدرة ضيّقة، وأنفاقاً في الانقراض لا معنى لها، وطرقاً ملتوية؛ وفي مكان واحد سلسلة من خمس درجات بيضاء لا تؤدي إلى أيِّ مكان، أقيمت عالية وجافة على منصة من آجر طيني؛ حيث تتلوى بالوعة⁽¹⁾ فخاريّة حول زاوية. لقد كانت فوضى مذهلة لقبح قائم.

كان الأولاد يحملون السّلال ويدرجون بخُطرات سريعة أعلى وأسفل منحدر مرهق، كانوا يسرعون وهم ينحدرون بسلال فارغة تتأرجح، ويبطؤون عندما يصعدون محمّلين؛ لينعطفوا بعيداً باتجاه مستودع الانقراض الموضوع في الأرض على دواليب

(1) بالوعة: بئر تحفر ضيقة الرأس، يجري فيها ماء المطر ونحوه. كما تطلق على ميزاب تصريف المياه الآسنة (القاموس المحيط، ص 910).

تدور على سكة حديدية ضيقة بعيداً عن موقع الحفر. تعقبتُ حول حافة الحفرة إلى أن استطعتُ رؤية أين وصل العمل الأساسي؛ كان ستون في الأسفل هناك يراقب الشرقاطيين ينقرون على طول قاعدة جدار بمعاولهم الصغيرة. كان العمال المحليون يجرفون الأنقاض إلى السلال برشاقة. وطابورُ الأولاد يرسم متاهة متشابكة بدخولهم وخروجهم في الممرات المجنونة. نَظر ستون حوله وقدم عبْرَ المتاهة نحوي، قال رافعاً بصره، مظللاً عينه من الشمس: «تعالني وانظري إليها عن كثب».

أجبتُ: «لا أستطيع الآن، فمعي يون Jon في الأعلى هنا. لقد أتيتُ لتوّي للنظر هذه المرة. لا أستطيع فهم رأسها من ذيلها، فلم أَرِ أيةَ آجرة مميزة في أيِّ مكان. إنها تبدو كما لو أنك تقطع أشكالا من الطين القاسي».

ابتسم وقال: «لقد حذرتُك. ستعادين على ذلك».

«ما هذا الجزء من البناء يا ستون؟ يبدو عن كثب أنه غير مرتّب ترتيباً جيداً لا كما يبدو في الصورة الجوية».

«كنتُ أقفُ في القاعة الأساسية لقصر حاكم إشنونا - ولكننا كنا نتابع الآن فيما نعتقد أنه يمكن أن يكون مَعبدًا هناك باتجاه الشرق؛ أنهينا هذا البناء العام الماضي. يمكنك مشاهدة أطلال سبعة قصور من مكان وقوفك».

حدقتُ وأنا أكاد لا أصدق عبر زاوية جرفي الصغير نحو الأسفل إلى واجهة جدار يمتد على زوايا يمينية من الجرف على بُعد بضعة أقدام، حيث كان يُشير.

«هل بإمكانك مشاهدة تلك الطبقة الرقيقة من القرميد يميناً على القمة، على مستوى الأرض؟».

قلت حذرة: نعم أستطيع.

قال ستون: «كساها إبق أدد الثاني، قبل حمورابي - حوالي 1800 ق. م. وهذا الخط من الآجر في الأسفل يعود لزمان والده إبالل Ibalpel. ثم هذا الامتداد لجدار أدنى منه متجهاً نحو أسفل إلى مستوى الأرض الثاني هناك».

كُنْتُ قَادِرَةً عَلَى تَمْيِيزِ الْآجَرِ الرَّقِيقِ الَّذِي كَانَ قَدْ أَرَانِي إِيَّاهُ؛ وَلَكِنِّي الْآنَ ضَائِعَةٌ لَا أَسْتَطِيعُ رُؤْيَةَ شَيْءٍ سِوَى جِدَارٍ أَبْيَضَ فِي الْأَسْفَلِ.

سَأَلْتُهُ: «كَيْفَ بِإِمْكَانِكَ مَعْرِفَةَ أَنَّ ذَاكَ هُوَ مَسْتَوَى الْأَرْضِ هُنَاكَ؟ لَا يَوْجَدُ شَيْءٌ يَثْبُتُ ذَلِكَ؟».

كَانَ هَانَزٌ قَدْ دَارَ حَوْلَ زَاوِيَةٍ فِي الْأَسْفَلِ، وَكَانَ وَاقِفًا قُرْبَ سِتُون. يَضَعُ نَظْرَهُ شَمْسِيَّةً كَيْ تَحْمِي عَيْنَيْهِ مِنَ الْغُبَارِ الْمُتَطَايِرِ، مَرْتَدِيًا مَغْطَفًا عَشْكَرِيًّا هَوْلَنْدِيًّا لَوْنُهُ أَخْضَرٌ دَاكِنٌ. صَاحَ: «لَا يَوْجَدُ مَا يَثْبُتُهُ يَا امْرَأَةُ، انْظُرِي إِلَى ذَاكَ - مَاذَا تَتَوَقَّعِينَ أَنْ يَكُونَ؟».

رَفَعَ عَصَاهُ وَلَمَسَ شَيْئًا مَا بَارِزًا مِنَ الْحَائِطِ فَوْقَ رَأْسِهِ تَمَامًا. بَرَزَتْ حَافَةُ حَادَةٍ مِنْ حِجَارَةٍ رَصِيفٍ أَبْيَضَ مَسْتَوٍ لِمَسَافَةِ إِنْشَاءٍ تَقْرِيبًا مِنَ الْحَائِطِ؛ بَدَأَ الْجِدَارُ فَوْقَهُ وَكَأَنَّهُ حُفِرَ إِلَى الْوَرَاءِ فِي تَجَوُّفٍ طَفِيفٍ.

قَالَ: «ذَاكَ جِزْءٌ مِنْ عَتَبَةِ بَابِ الْبِنَاءِ، مَعَ مَشْكَاةٍ فَوْقَهُ. جَمِيلٌ، وَهُوَ يَعُودُ دُونَ رِيبٍ تَقْرِيبًا إِلَى دَادُوشَا Dadusha. وَهَنَا حَيْثُ دَخَلْتَ نَهَايَةَ الْعَصَا ثَلَاثَةَ أَقْدَامٍ أَوْ أَكْثَرَ، وَتَحَرَّكَتْ عَلَى طُولِ خَطٍّ وَاضِحٍ مِنْ حِجَارَةِ الرَّصِيفِ.

قُلْتُ لَهُ: «لَا تَخْبِرْنِي، دَعْنِي أَحَاوِلُ وَأُظَنُّ. إِنَّهُ سَطْحُ الْأَرْضِ».

قَالَ هَانَزٌ بِحَزْنٍ: «إِنَّهَا تَهْزَأُ بِنَا».

وَلَكِنِّي كُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أَرَى. لَقَدْ كَانَتْ شَدِيدَةً التَّعْقِيدُ، وَجَمِيلَةً جَدًّا. تَحْسَسُ سِتُونُ طَرِيقَهُ إِلَى الْأَسْفَلِ مِنْ خِلَالِ طَنْ إِثْرَ طَنْ لَجْدِرَانِ مِنَ الْآجَرِ الطِّينِيِّ (الطَّابُوقِ) الْمَرْصُوصِ بِقَسْوَةٍ، وَالْإِتْقَاضِ الْمُنْهَارَةِ أَعْمَقَ فَاغْمَقَ، دُونَ أَنْ يَخْسَرَ شَيْئًا أَسَاسِيًّا أَثْنَاءَ ذَهَابِهِ؛ وَتَمَّ تَمْيِيزُ الدَّلِيلِ لَزَمَنِ كُلِّ بِنَاءٍ بِشَكْلِ دَقِيقٍ وَتَرَكَ ذَاكَ الدَّلِيلَ مَعْلَقًا دُونَ أَدْنَى أَذَى مِنْ مَجْرَفَةٍ أَوْ مَعُولٍ، إِنَّهُ دَلِيلٌ غَيْرُ مَلْحُوظٍ كَمَا يَوْجَدُ فِي رَوَايَةِ بُولِيسِيَّةٍ ضَخْمَةٍ.

لَقَدْ كَانَ كَشْفًا بِالنَّسَبَةِ لِي، أَنَا الَّتِي رَأَيْتُ حَتَّى الْآنَ مُجَرَّدَ زَمَنِ مَدِينَةٍ بَسِيطٍ نَسَبِيٍّ وَاحِدٍ فِي تَلِّ الْعِمَارَةِ.

ذلك يُبيّن بوضوح كيف يؤدّي حَفَرُ البَعَضِ بلا رَحْمَةٍ مِنْ أَجْلِ غَنِيمةٍ مَادِيَةٍ أَنْ يَهْدِمَ
بِضَرْبَةٍ واحدةٍ غير مُبَالِيَةٍ كُلَّ برهانٍ باقٍ لبناءٍ قديمٍ.

تَابَعَ هانز: «ذاك الرَّصِيفُ يعود على الأَرْجَحِ إلى مبنى أورننمار Urninmar، وانظري
إلى هذه». أسفل الخطّ الواضح الحادّ لحجارة الرّصِف التي اسْتَطَعْتُ تحديدها مكانها
والجِصَّ على الجدار قد اسودّت في رقع، «ماذا تستتجبن مِنْ ذلك؟» قلتُ: «لا شيء». ثم
عاودتُ التفكيرَ وغامزتُ بقول: «هلْ يُمكنُ أَنْ يكونَ بسببِ النار؟» أجاب: «ليسَ
ممكناً بل هذا ما حصلَ، وذلك سبب كافٍ يجعلنا واثقين بأنّ تلك الأرض المُنْخَفِضَةُ
كانتْ هي أرضيّة بيلالاما Bilalama. وبالطّبع فإنّ هذا يعني وجود أرضيّة كيركيري
Kirikiri هناك أسفل منها». وأشار إلى عَتَبَةِ بابٍ أخرى مرئية بوضوح، بالقرب من
أسفل الجدار.

تَفَحَّصْتُ مَليّاً تلكَ العَلامَةَ، ولم أستنتج أيّ شيءٍ منها ذاك الوقت. لقد أَحْبَبْتُ
عِبارَةَ «طبعاً». وبدأ لي أنّها كانتْ لَحْظَةً مناسبةً لأخذ يون إلى المَنزَلِ لشُرْبِ الشّاي،
وهذا ما قُلْتُه، ضَحْكاً ثمَّ عادا عبْرَ مَتاهةِ تلة الرّكام باتجاه البناء الآخر.

قال يون عندما اقْتَرَبْتُ مِنْهُ: «ستأتي خنفساي معي للزيارة، وهذه هي». وكانت يده
قد كُورَتَا بعناية حولَ صديقه الجديد. بدأنا نمشي الهوينى عائدين إلى المنزل تحتَ
أشعة شمسٍ بعد الظهيرة الدافئة. «ماذا عليّ أَنْ أَسْمِيَهُ؟».

قلتُ: «أعتقدُ أنّ كيركيري اسم لطيف»، وأنا أفكر كم كانَ لطيفاً أَنْ تحظى بمحادثةٍ
مريحةٍ داخلَ أعماق شخصٍ ما. قال يون: «نعم، كيري-ك-كيرِي Kiri-kiri. إنه
اسم لطيف جداً».





جيك وستون يكشفان الحجر المحوري في الموقع

وصلت بعض الأشياء من الموقع في تلك الليلة الأولى؛ ذهبتُ وجَلَسْتُ قُرْبَ راحيل في غرفة الآثار القديمة الطويلة بينما كانت تسجلها؛ لأرى كيف تَمَّ صنعها. كان هانز قد قال إننا على الأغلب سنحتاجُ إلى شخصين هناك؛ لأنَّ الموقعَ كان في تحويل كامل. كانَ لديها سجلٌّ ضخْمٌ كُتِبَ بنسختين بالكربون، كانَ أشبهَ بدفتر فواتير، تُقَبَّتْ أعلى الصفحة من حافظتها ليكون بالإمكان انتزاعها. لقد كانت فكرةً عمليَّةً، لأنَّها تعني أنَّ الكتابَ الثقيلَ الكبيرَ يمكن أن يُترك هنا في الصيف، وتؤخذ الصفحات العليا فقط إلى لندن لأعمال النشر هناك.

كانت راحيل تُدخل شكلاً طينياً صغيراً لشخص بقبعة مدببة وبكرات مسطحة طينيَّة في عينيه. وكان يحمل حيواناً صغيراً في يديه.

قالت وهي ترسمُ مخططاً سريعاً: «من الممكن أنَّه إله، أو عابد» إلى أن وصلت إلى زوج مسماك⁽¹⁾ صغير. وهمست: «أبعاده 1.3 سم في 3.6 سم». ثمَّ نظَرْتُ إلى الصندوق الذي نُقِلَ فيه المجسم من الموقع إلى هنا، كُتِبَ ستون على الغطاء.

«الرقم 30-17 O - ذاك فناءُ بناءِ ستون»، قالت: «طبعاً 30-O هو المربع، فالموقعُ قد غُطِّيَ بنظام شبكة مؤلفة من أحرف في اتجاه وأرقام في الاتجاه الآخر، والساحة كانت هي الغرفة رقم 17 الفارغة في المربع.

«هل تريدون أن تضعي بطاقةً على التمثال الصَّغير؟ على أنَّه I/ 32 As؛ أي أنه الشيء الأول الذي وُجد في تل أسمر، موسم 1932».

صَنَعْتُ بطاقةً وربطتها حول عنقه.

كانت راحيل تتمتعُ بأسلوب مريح، كنت قد اكتشفته، في الاستماع والإجابة عن أسئلة أوليَّة دون أن تجعل المرأة يشعرُ بجھله. بدت تلك لحظة جيدة لاكتشاف بعض الأشياء.

(1) المسماك: مقياس دقيق للأقطار والسمكات يسمَّى في الإنكليزية: caliper وفي الفرنسية: pied à coulisse وانتقلت هذه العبارة إلى العامية في بلاد الشام: بياكوليس. وقد يسمَّى في العربية أيضاً: القدمة ذات الورتية.

بدأت بقياس الحيوانات الصَّغِيرَة من أجلها، ثم قلت: «راحيل، أبعاده تبلغ 3.2 في 3 بالمناسبة) كيف يمكن لهانز أن يقول: هنا إشاراتُ نار؛ لذا من الممكن وجود بيلا لا ما أسفلَ ذاك، وكير كيري أسفلَ ذاك؟ كيف علمَ بأسماء الأشخاص دون وجود أيِّ نقش؟ - وما علاقةُ النَّارِ بذلك؟».

قالت: «أتاحت النَّصُوصُ موجزاً لمقدار كبير من التاريخ، وحيث حُفرت الأُبْنِيَّةُ الحقيقيةُ حاول أن يربطَ بينَ ما يجده بما كان يعلمه؛ ليحصلَ بينَ الفَيَنَة والأُخْرَى على برهان صَريح أَنَّهُ على الطريق الصحيح عند عثوره على ألواح آجرٍ عليها كتابات منقوشة أو بعضُ نقوش أخرى لبعض الأصناف.

كانت بعضُ البقايا مُربَّكةً جداً، إذ أنَّ الأسماءَ التي أُعطيَتْ للمستويات المختلفة كانت تجريبيةً بشكل كامل؛ تعودُ إلى نوعٍ من ضربة متفائلة لرجل ضَرير - «يجب أن يكونَ هذا بناء دادوشا Dadusha؛ لأنَّنا علمنا بأنَّ الذي في الأعلى هو إباليل Ibalpel بسبب الآجرِ ذي النقوش الكتابية، ونعلمُ من النَّصُوصِ أنَّ دادوشا كان والد إباليل - وهكذا».

قلت: «نعم، فهمت» وأنا أرفعُ حليةً طويلةً جميلةً الشكل، بلون أسمرٍ مصفرٍّ مقابل المصباح الذي تدلَّى فوق المنصة، أضاءت الحلية وظهرَ لونُها الأحمرُ الداكن. قالت راحيل: «هذا عقيق أحمر - أليس جميلاً؟».

أجبت، وأنا ألتقطها: «جميل، وماذا عن تلك النار؟».

ضحكت. «جيد، لنبدأ أبكرَ قليلاً. تعلمين أنَّ إشنونا كانت مدينةً تابعةً للحاكم المطلق لأور في السلالة الحاكمة الثالثة. ولكن أور كانت قد سقطت في النهاية على أيدي العيلاميين Elamites، تقريباً حوالي 2000 ق. م. وكان آخرُ ملكٍ لأورٍ إبسين Ibisin، وقبله كان غملسين Gimilsin، وكلاهما تمَّ الاعترافُ بهما كحاكَمين مطلقين من الحُكَّام المحليين المعاصرين هنا، وهما: إلوشويليا Ilushuilial وأبوه إيتوريا. ولكنَّ المثيرَ هنا هو أنه بعدَ سقوط أور مباشرةً اكتسَبَ الحاكمُ هنا اسماً بدا كما لو

أَنَّ الحاكمَ نفسه جاء من مرتفعات عيلام - كيركيري. ومن الممكن أن تكون إشنونا تَمَرَّدَت على أور وساعدت العيلاميين على القضاء عليها، على أمل الاستقلال في المستقبل؛ ولكنها لم تَلْ أفضلَ من حاكم مطلق أجنبيّ تعويضاً لمعاناتها. أو بالطبع من الممكن أن تكون إشنونا تلك مواليةً بشكل كامل لأور، وأخذت تُقاتل الكيركيريين الذين كانوا من العيلاميين المنتصرين، قاتلتهم من أجل السبب نفسه، فكانت إشنونا حصّتهم من الغنائم، ونحن نعلمُ أَنَّ الابنَ بيلا لما قد حكمَ هنا أيضاً؛ وبعد ذلك تجدد الصراعُ السومريُّ لطرد العيلاميين، وفي سياق هذا القتال كان معظم إشنونا قد هُدمَ. سألت: «بالنار؟».

قالت: «نعم، توجد هنا إشارات لها تمتدُّ عبرَ القصر تماماً؛ ولا بدَّ أنَّ حريقاً هائلاً قد أضرم، هدفه محوُ المكان برمته من الوجود. وناسبَ الحفرة تماماً المكان الذي توقعينه في التُّنُوص؛ لأنَّ مستوى البناء فوقَ آثار الحُروق تقارب غالباً زمنَ حكم أورننمار Urninmar والمعروف عنه أنه حكم مباشرةً بعد تحرير إشنونا من حكم الدولة العيلامية.

فكَّرتُ بالجدار المليءِ بآثار الدُّخان الذي نظرتُ إليه في البداية نظرةً جهل، وإلى الخَطِّ النظيف لحجارة الرِّصيف فوقه، وإلى جميع تلك الكسر الهشة الأخرى من الشاهد الذي يرتفع فوقه حتَّى يصلَ إلى مستوى الأرض الحالي.

سألتُ: «وهل كان هؤلاء الحكام المتأخرون مستقلين بعد الحريق؟».

قالت: «نعم، فقد سقطت أور، وانسحب العيلاميون؛ وتابعت إشنونا حوالي مئتي سنة دولةً مدنيَّةً مُستقلَّةً حتى قدوم حمورابي؛ ولكنه وضعَ نهايةً لحكايتها، حسب ما نعلم».

وضعنا الأشياء القليلة الأولى على الرفوف، وأغلقتُ راحيل كتابها ثم اتجهنا نحو الباب، وأطفأنا المصباح، سألتُ راحيل: «لَمَنْ كانَ ذلك البناء المرفقُ بالقصر الذي اعتقدوا أنه يمكن أن يكون معبدًا، هل ثَمَّة أدلة ما؟».

«كان لبعض الملوك يدٌ فيه، ولكن يبدو أنه بدأ قبل القصر الأقدم، ومن ثمَّ تخلَّوا عن القصر لسبب ما - وما زال في مرحلة مجهولة تفتقر لأيِّ دليل ثابت ككتابات منقوشة على ألواح الآجر مثلاً، ربما لن نعرف مَنْ بناها أبداً».

حاولتُ لدى عودتي إلى غرفتي أن أصنّفها. فقد كانت تقصُّ مَصْجَعِي وتسحرني في الوقت نفسه. فقد قالت راحيل: «ربما علينا ألاّ نعلّم أبداً مَنْ بناها». وكنتُ قد نسيْتُ ذعري لدى رؤية التشابك القبيح للحفر، ببساطة لأن راحيل وهانز وبينهما ستون كانوا قد أعطوني أولَ لمحةٍ للتعقُّق في معناها وفي الأساليب الخادعة التي بواسطتها استعمل علماء الآثار مدخلين مختلفين جداً هما: الوثائق المكتوبة، والعمل في حقول التنقيب لحلّ المشكلة ذاتها.

يعطي عمل جايك نقط بداية لستون، ومن ثمَّ يملأ عمل ستون فراغ الهيكل العام للنصوص بموجودات ماديّة. علِمْتُ لاحقاً كيف أنَّ التشابك الغباري في تل أسمر يمكن أن يُظهر، ليس الكثير من تاريخه القديم فحسب، وليس فقط للأكثر من تاريخ سومر ككل، بل وحتى معرفة جديدة لصورة أكبر للعالم القديم خلفهما. وفيما لو كنا نحفر لنؤكد ببساطة أكثر قليلاً من حقائق ضئيلة معروفة من قبل عن إشنونا، فإنَّ النتائج ستسوّغ المشروع الضخم والنفقة بصعوبة.

تحتاجُ تلك النقطة إلى التوضيح: لأنَّ بعضَ الناس الذين يجهلون الأهداف الحقيقيّة لعلم الآثار أو يعرفون القليل عنها، يلاحظ المرء أنهم ينتقدون الجهود والأموال التي تبذلُ فيه ويتساءلون: «يا عزيزي لماذا لا تُمنح تلك الأموال للمستشفيات، وهي تفوقه أهميةً بكثير؟» ويكونون قد ضلُّوا بالتفكير أنَّ كلَّ تنقيب يشكلُ وحدةً مستقلةً يمكنُ أن تفيده منقبةً مُتعضِّباً على الموقع وحده دون أن ترتبطَ بعصر آخر أو مكان آخر.

إن عالم الآثار الجيّد لا يحفر أبداً أيّ مكان مستقل كوحدة منعزلة. فوجتُ نفسي اتّخيلُ بأنَّ رجلَ اليوم يجدُ ويحفرُ مدينةً سومريّة قديمة قد يشبه رجل المستقبل بعد 5000 عاماً من الآن. وهو يرغبُ بالحاح أن يعرف أقصى ما يمكنه على سبيل المثال عن التاريخ الطويل لمدينة قديمة تُدعى إنكلترا، وحول اتّصالاتها المحتملة مع الأمم

الأخرى؛ ويمكن أن يكون هذا الشخص قد حالفه الحظ في حلّ شفرة لقائمة الملوك الهانوفرين، فيحصل على دليل لأماكن وجود عائلة ويندزور⁽¹⁾ Windsor. وبالحفر أسفل تلك الرابطة الضخمة سيعرف أكثر عن قصة الأشخاص الملكيين أنفسهم الذين حكموا هناك وعن أبنيتهم، وربما سيجد أجزاءً وثائقيةً تُثبت روابطاً قديمةً مع أرض بعيدة تُدعى الهند؛ ربما تُظهر نصوص أقدم أن سكان المستعمرات البعيدة ما وراء البحار إلى الغرب يقاتلون من أجل استقلالهم. وأقدم من ذلك أيضاً يعرفون عن حاكم آخر يُصعّب تمييزه بسبب الملوك الأربعة الأوائل الذين حملوا الاسم نفسه -الذين هدّدهم من المرتفعات Highlands الشمالية شاب مدّع من الأقارب، يتجه جنوباً في محاولة للاستيلاء على العرش. ومن ثمّ فإنّ رجل المستقبل ذاك، يخرق أيضاً لمستويات أعَمَقَ من الرابطة، وربما يجد أثاراً لسلالات حاكمة أقدم لم يكن لديه شك في وجودها، بأسماء غريبة: ستوارت وتودر⁽²⁾ Stuart and Tudor، وبلانجينييه ونورمان⁽³⁾ Plantagenet and Norman - أثاراً ربما تسجّل تاريخهم الطويل الضائع، وتصل بعيداً خلف حصونهم القديمة إلى رجل يعلم كيف يفسرها، ويريد فوق ذلك كله أن يعيد تجميع العصور القديمة للعالم الذي يقطنه اليوم بنفسه.



(1) أي العائلة الملكية الحاكمة في بريطانيا، وكثيراً ما يُترجم الاسم بالغلط: وندسور.

(2) اسمان لعائلتين ملكيتين معروفتين في إنكلترا.

(3) أيضاً اسمان لعائلتين ملكيتين معروفتين في فرنسا وإنكلترا.



هانز يقوم بالتنقيب



«... فوضى مذهلة لقيح بلون قاتم»



هانز بصفت اللقى



ييتي ويون يقومان بالتنقيب

الفصل الخامس

انقضى شهر من العمل الشاق، وكنتُ بدأتُ أشعرُ أن حركته وإيقاعه قد أرهاقاني ولكن لم يقضيا عليّ، بدا ستون واثقاً من الوصول إلى حقبة ما قبل البناء الكبير المجاور للقصر، إذ أن الشرقاطيين وجدوا أن الجدران السميكة قد انتهت ولم يجدوا دونها سوى قطع من أبنية عشوائية أو حتى تربة بكر. وفي أعلى التلّ كان جايك وهال يقشران الطبقات العليا من الخنادق الممتدة والأعمدة الغائرة هناك؛ فالرّابية ذاتها قد تشكلت من البيوت القديمة، وفيما كان الحكام القدماء يملكون السلطة، والعمالة متوفرة لتسوية منطقة قصر قديم كاملة بشكل محكم قبل البدء ببناء قصر جديد عليها، لم يكن باستطاعة أتباعهم المتواضعين القيام بذلك إذ أن البيوت المنهارة في منطقة البلدة أو التي غارت كانت تسوّى فوق الأساسات بصعوبة ثم بنى البيوت الجديدة فوقها، فكانت النتيجة أن مستوى البلدة نفسه قد ارتفع أعلى فأعلى كلما بُنيت البلدة من جديد، حتى شكّلت رابية حقيقية من أنقاض البيوت القديمة. وفي الأزمنة التالية كانت تُبنى البيوت على منحدرات الهضبة، وذلك شكّل لجايك ولهال الظاهرة المدهشة التي صادف فيها العثور على بيوت بُنيت لاحقاً في مستويات أخفض من بيوت أقدم بكثير منها كانت قد بُنيت في قلب الرّابية.

وكانوا قد وجدوا بيوتاً في الأعلى تماماً تعدّ أقدم من مستوى القصر الأقدم الذي وجده ستون، إذ أنهم استطاعوا تأريخ بنائها إلى أيام ما بين 2400 و2200 عندما سيطر الأكاديون على البلاد. فعلى الرغم من وجود الكثير من الأدلة فإن الأواني الفخارية وحدها قد دلّتهم على ذلك، فقد أصبح الآن يُعرف الكثير عن أنواع الأواني الفخارية في كلّ مدينة قديمة، وبالمقارنة يسهل نسبتها إلى حقبتها من البقايا الموجودة منها،

وسبب ذلك بالطبع أن استعمالها المحلي لا يستمر طويلاً وعادة تبقى القطع المكسرة في مستوى البناء نفسه الذي صنعت فيه لأول مرة.

«إنها تتبعثر في داخلي»، قلتُ لنفسي باستخفاف وأنا أنظرُ إلى أعمدة جايك العميقة وإلى القطع الفخارية المدفونة في الوحل كل بضعة أقدام باتجاه الأسفل وبجانبيها عُرسَت علامات أنيقة للإرشاد. وكم من خادمة مستهترة في كلِّ زمان كانت قد قالت مقالتي أو ما يشبهها في مواجهة سيدتها الحانقة وهي لا تعلم كم ستساعدُ أحدَ علماء الآثار في المستقبل.

كان هانز يعملُ تارةً مع جايك وأخرى مع ستون، فقد كان متشوقاً لإنهاء عمل ستون الحالي؛ ليتمكن من البدء في التنقيب في منطقة شمال التلّ عند البيوت الخاصّة حيثُ يعتقدُ أنّه يوجد هناك بناء كبير قد يكون أقدمَ من البيوت ذاتها.

وبما أن ستون كان قد وصلَ إلى أخفض مستوى من البناء فقد اقتنع هو وهانز بأن البناء كان غالباً في الأصل معبداً، غيرَ أنَّ الطبقات العليا بشكل خاص كانت مربةكة إذ بدا أنَّ الحكام المتأخرين لم يستخدموها معبداً بل إنهم أنشأوا عليها امتداداً للقصور المجاورة. بينما الآن في الأسفل عميقاً تحتها عند التربة البكر انكشف مخططُ المعبد تماماً؛ له مدخل متقن وفسحة رئيسة تحيط بها الغرف وله مدخل مثبت يقودُ إلى فناء داخلي وُجدَ فيه مذبحٌ مواجهٌ للباب، وعلى المذبح ركيزة صغيرة لتمثيل الآلهة التي كانوا يعبدونها. وبرزت منصةٌ قبلَ المذبح حُفِرَ فيها فتحات سفليّة وبالوعة لشطف ما يُراقُ أمام الآلهة، وكان هانز يعتقدُ أنَّ مستوى البناء يعودُ إلى وقت ما قبل كير كيري الأجنيبي. وقد امتد ذلك المستوى يميناً من القصر عبر المعبد. كما يُظنُّ أنّه يجبُ أن يُنسبَ إلى حاكم يدعى نوراخوم Nurakhum. وقد أظهر ستون في المعبد الفترتين الزمنتين الأدنى حتى وصل إلى الأساسات الأكثر قدماً.

قال هام: «حسب ذلك المنسوب يجبُ أن تكون قد أنشئت على يد إلوشويليا وإيتوريا، إذ يبدو أنَّ الأساسات الأقدم للمعبد قد أسَّسها إيتوريا الملك التابع لغملسين Gimilsin ملك أور».

كل ذلك كان ظناً إلى حد كبير؛ إذ أن الدليل الوحيد هو تلك الأجزاء ذات النقوش الكتابية بعد سنوات عديدة، والتي تعتمد عليها النظرية الافتراضية بكليتها، فهل يمكن حقاً أن تكون الجدران المنهارة الخشنة تحوي على كوة هنا وحجارة رصف هناك، وطبقة من الرماد هنا، ومكان ارتشاح هناك، شملت كل أسماء الحكام المذكورين في القوائم القديمة التي عُثر عليها في قسم آخر من المنطقة، على الرغم من أن علامات النار في منتصف المسافة إلى الأسفل كانت علامات قد تكون مؤكدة، فهي تشير في النهاية إلى الحادثة الفعلية للهجوم السومري المضاد على المدينة العيلامية المحاصرة، والتي كانت افتراضية إلى حد كبير؟ وبدا مدهشاً أن يكون العمل الميداني أسفل الجدران المتشابكة وتحت علامات النار من الدقة والصواب بحيث يطابق الأسماء المعروفة للحكام، بيلالاما هنا وكيركيري هناك ونوراخوم تحتها، أو هنا لطبقتين اثنتين أدناها جميعاً، واللتين تعودان إلى إلوشوليا وأبيه إيتوريا.

تابع ستون تنظيف وإظهار الطبقات الدنيا من المعبد، وكان اثنان من الشرقاطيين يعملون في الأسفل على جانبي مدخل الباب المثبت الذي يؤدي إلى داخل الملجأ الداخلي، ولم يكن ثمة اختلاف أبداً في المظهر بين الانقراض الواجب رفعها وبين الجدار القديم الذي كان يجب تحريره، فكلاهما يتكوّنان من مواد متماثلة: من طين مجفف، وكانت معظم الانقراض قد تكوّنت من الأجزاء العليا المنهارة من الجدران ذاتها، وبفعل الرياح والأمطار التي عملت مفعولها لآلاف السنين أصبحت الجدران والانقراض المنهارة منصهرة في كتلة واحدة غير قابلة للتمييز. بيد أن الشرقاطيين قد طوّروا إحساساً غير عادي لمعرفة الجدار الأصلي فوقفوا حيث كان قد بني في القديم، فلديهم إحساس مرهف للنقاط الصغيرة التي يختارونها للتنقيب فينقرون بملاقطهم، وكأنها امتداد لأصابعهم، ويربتون ويضعون ملاقطهم بشكل عمودي أو منزلق بلطف، فتتبعثر قطع الانقراض ليظهر وجه الجدار الحقيقي الأملس كما ترفع قشرة البيضة المطبوخة نظيفة عن بياض البيض، وكان من المريب جداً الخطأ بتتبع الجدار بالنسبة للشرقاطي. وفي إحدى المرات وجد ستون صعوبة كبيرة في التغاضي عن أحدهم

عندما حفر إحدى دعامات آجرات الطين بالخطأ، وهو يتتبع القسم الخارجي لسور المعبد قبل أن ينتبه لفعلته.

كان اثنان من الشرقاطيين قد وصلا إلى الطبقة الأرضية في المدخل إلى الضريح، فلاحظ ستون وجود بناء مربع من الآجر الطيني على كل جانب قرب الفجوة التي كانت تحمل حافة الباب، وقد طلب من الرجال أن يحفروا أعمق قليلا، فقام كل واحد بالكشف عن صندوق سطحي مصنوع من الآجر الطيني ملئ بالأنقاض الرملية، كما كان هناك شيء آخر، شيء كبير وقاس. ترك الرجلان ملقطيهما وبدأ بنفض الأنقاض بأيديهما، فبرقت حجارة بيضاء عبر الغبار، فنفع الاثنان على الغبار حتى كشفوا عن السطح. كان يوجد في كل صندوق مربع الشكل حجارة كبيرة دائرية يبلغ طول قطرها قدماً وفي منتصفها تجويف مفرغ. أدرك ستون بالطبع أنها الحجارة الكبيرة التي قد تمحورت عليهما الأبواب المزدوجة المؤدية إلى حرم المعبد فيما مضى، ولكن لم يكن هذا الاكتشاف الهندسي المهم ليجعل قلبه يخفق بسرعة عندما حدق بها، بل كان شيئا يحيط بكل حجر ما بين المحيط والتجويف في الوسط، لقد كان نقشاً طويلاً منحوتاً بشكل واضح وعميق. أرسل ستون صبيّاً إلى تل برسالة عاجلة إلى جايك فوصل بصحبة هانز. قام جايك برفع أحد الأحجار المحورية وقلبها لبضع دقائق بينما كان الآخرون ينتظرون، ثم بدأ يقرأ ببطء وهو يدور الحجر:

«لعملسين الملك الإلهي، الملك ذي القلب الصافي لرعايته البلاد، ملك أور القوي إلهه، قام إيتوريا حاكم إشنوتا، خادمه، ببناء هذا المنزل».

De profundis clamavi ... (من الأعماق صرخت) ⁽¹⁾ لا بُدَّ أنهم أحسوا وهم يقفون هناك بأنهم قد سمعوا صوت شبح إيتوريا العميق ينهض من أنقاض مُعبّده مُنطلقاً بعد مرور 4000 آلاف سنة من الصمت، فتلك النقوش أخبرتهم عن إنجازاته في الماضي والنصر الحالي الذي أنجزوه. لقد كان نصراً مُحققاً بالتأكيد يتضمّن علم فقه اللّغة لدى

(1) التعبير باللغة اللاتينية، ومعناه: من الأعماق صرخت. وهو اقتباس من مزامير داود، المزمور رقم 130.

جايك وعبريّة ستون العمليّة وتنسيق هانز لعمل كليهما لنتيج نظريّة رعاها برأي سديد مُترافقة بكلّ مرحلة مُشوشة نحو تقييمه الأمثل للبحث. وتلك الصُخُورُ المخوريّة أثبتت أنّ مستوى كلّ بناء أقيم فوقها كان قد خُصّصَ للحاكم المناسب، وأنّ آثارَ التيران سببها الثوار السُومريون حتمًا، وأبعدَ من ذلك أثبتت أنّ إيتوريا لم يكن قد أعلن أنّ غمّلسين هو سيده الأعلى فحسب، لكنّه أيضًا كان قد بنى المعبّد وكرّسه من أجله، وكان الإله المعبودُ في ذلك المعبد هو الملك المؤلّه نفسه، «غمّلسين الإلهي».



أحضرت بطاقات العُمال في المساء إلى المنزل، ذلك لأنّ اليوم التالي كان يوم توزيع الأُجُور واليُوم الذي يليه يوم استراحة. فأُمضيتُ المساءَ في حساب مبالغ المال التي استحقَّها كلّ رَجُلٍ يتضمَّنُ الأجر الأساسي مُضافاً إليه ربّما الإضافات التي استحقَّها لإجادته عمله، أو الخُصُومات بسبب الغرامات المُترتبة للسلوك السيئ الذي اقترّفه. حافظَ بعضُ العُمال على بطاقاتهم نظيفةً مستويةً في علب معدنيّة صَغيرة مع سجائرهم، والبعض الآخر سلّمها أجزاءً مكوّمةً مُتسخة، فاستلمتها على مضض.

في اليوم التالي حسبتُ النقود التي جلبها جبرائيل من بغداد مساء اليوم السابق. ثم نقلتُ الطاولة وحقائب النقود بعد الغداء إلى الشرفة الأماميّة الممتدة أمام المنزل، حيثُ اجتمع جميعُ العمال جالسين بصبر على الأرض يتجولُ بينهم ثلاثة حراس يحملون بنادقهم على أكتافهم وهم يتحدّثون، والحارسُ الرابعُ وقف قرب الطاولة حيث أخذت وهانز وستون مقاعدنا. أما الشُّرقاطيون فقد جلسوا القرفصاء في مجموعات منعزلة في أحد الجوانب.

كان هانز يعلنُ الاسمَ الموجود على البطاقة، فكان الحارسُ يُردّده بسرعة، ثم يعادُ التّداءُ له من الجميع إن أبطأ العاملُ المطلوبُ بالإسراع إلى الطاولة، وقد بدا على الجميع أنهم يستمتعون بالطُّقوس، لكنّها كانت طويلةً، وكان أمامهم عدّة أميال ليقطعوها قبل أن يحلَّ الظلام؛ لذلك رغبوا بالإسراع لإنهاء تلك الطُّقوس. كان هانز يعيدُ تمريرَ البطاقة لي، وأنا أقومُ بعددِ التُّقود بناءً على ما فيها، وأدفع بها نحو ستون الذي

كان يدفع للرجل ويسلمه بطاقة جديدة، ويرمي البطاقة القديمة إلى صندوق ليلتهمها لهيب الرحمة بسرعة بعد ذلك. كان يخبر الرجل أحياناً بأنه لن يقبض نقوداً في المرة القادمة إذا كانت البطاقة في مثل الحال التي عليها وكانت ملاحظته غالباً ما تُستقبل بتكشيرة تعني أنه لم يفهم ما الخطأ في بطاقته.

ابتعدت الحشود نحو الأفق فأصبحت الصحراء بسرعة مرقشة⁽¹⁾ بالبقع السوداء متجهة نحو الأفق. لاحظت في يوم الدفع الأول أن بعض الفتيان يحملون سلاحاً مربعاً في أحزمتهم، كان السلاح منحوتاً على شكل الأجاصة محفوراً في منتصفه ومعلقاً على عصي قصيرة غليظة، وكان ستون قد أخبرني «إنها صولجانات يحملونها استعداداً لمهاجمة الفتيان الأكبر منهم لسرقتهم، وأنها تشبه كثيراً الصولجانات التي كان يحملها الشومريون في الحرب والتي كثيراً ما كنّا نعثر عليها عند التنقيب».

قبض الشرفاطيون أجورهم أخيراً. وعندما حل وقت الشاي أصبحت الصحراء الغريبة أمام المنزل فارغة.

قال ستون مقترحاً: «ما رأيكم بجولة على ظهور الخيل بعد احتساء الشاي؟» دون أن يغادر الطاولة. كانت يتي قد أخبرتني قبل مغادرة إنكلترا بأن امتطاء الجياد أحسن طريقة لتترك المنزل لفترة وجيزة لكسر الرتابة، فأحضرت البسة ركوب الخيل ولحسن الحظ كان السروال الجلدي الخاص بركوب الخيل مناسباً لي، حيث أحاط بساقي ومنع ركبتي من الارتطام عندما رأيت لأول مرة الجواد الذي كان يتمايل على الجانبين، وهو يخرج من الإصطبل برفقة أحد السائسين⁽²⁾. كل ما كنت أعمله في الماضي هو أن أقوم برحلة مأجورة في الريف الإنكليزي على ظهر جواد أنيس حسن السلوك برفقة آخرين، وكنت أسمع أحياناً مرافقاً يقول بلهجة أجنبية: «Eels down, helbow hin» «الكعبان إلى الأسفل، والكوعان إلى الداخل» في مسير الجواد خبيباً

(1) مرقشة: ترقس: تزين. (القاموس المحيط، ص 767).

(2) السائسين: مفردها السائس. يقال: هو يسوس الدواب إذا قام عليها وراضها. (لسان العرب 6، ص 430).

على العُشب، معظمُ النَّاسِ يَعْتَقِدُونَ بأنَّ هذا هو ركوبُ الخيل، فإنَّ استطاعوا فعله يعني أنَّهم مَتَمَكِّنُونَ من ركوب الخيل، ولكنِّي على الأقلِّ لَمْ أَخْطِئِ التَّقْدِيرَ في هذا، فأنا أَعْلَمُ أنَّني عندما لَمْسَ كَعْباً حِذَائِي الحِصَانِ بَدَأَ طَبِيعَ الْمَسِيرِ مُتَثَقِّلاً، ثُمَّ هَزُولَ، فَكَانَ يَقُومُ بِذَلِكَ لِأَنَّ تَشَارِلِي وَسْتَارَ وَبُوي كَانُوا يُهْرَوُلُونَ أَمَامَنَا أَيْضاً، وَلَا يَرِيدُ أَنْ تَفُوتَهُ نَهَائَةُ الْقِصَّةِ الَّتِي بَدَأَ تَشَارِلِي بِرِوَايَتِهَا. وَقَالَ أَحَدُهُمْ مَرَّةً لِي: «دَائِماً أَجْعَلِي جَوَادَكَ يَعْرِفُ مِنْذُ الْبَدَايَةِ مِنَ الْمُسَيِّطِرِ» لَكِنِّي وَجَدْتُ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِي أَبَداً أَنْ أَفْصَحَ عَنْ هَذِهِ الْمَعْلُومَةِ الَّتِي نَعْرِفُهَا كَلَانَا.

كَانَ كُلُّ مَنْ رِيْعُمُورٍ وَسِتُونٍ وَيَتِيٍّ يَمْتَلِكُونَ جِيَاداً خَاصَّةً بِهِمْ، وَكَانَتْ فِي غَايَةِ الْجَمَالِ، وَكَانَ هُنَالِكَ آخَرُ بَلَدٍ أَبْيَضُ ضَارِبٍ إِلَى الرَّمَادِيِّ، كَانُوا يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِي الْمَهَامِ غَيْرِ الْعِثَادِيَّةِ، كَتَلِكِ الَّتِي يَقُومُونَ بِهَا لِإِبْقَاءِ الْاتِّصَالَاتِ مُسْتَمِرَّةً مَعَ قَرْيَةِ خَفَاجَةِ وَبَغْدَادِ، عِنْدَمَا لَا تَسْتَطِيعُ السَّيَّارَاتُ السَّيْرَ فِي الصَّحْرَاءِ عِنْدَ هَطُولِ الْأَمْطَارِ الْغَزِيرَةِ.

كَانَتْ فَرَسِي تُدْعَى «هِلَّي» Hillai وَقَدْ خُصِّصَتْ لِي عِنْدَمَا أَرُغِبُ فِي رُكُوبِ الْخَيْلِ، بَلْ رُبَّمَا عَلَيَّ أَنْ أَقُولَ إِنَّنِي أَنَا الَّتِي خُصِّصْتُ لَهَا. الشَّخْصُ الْوَحِيدُ الَّذِي قَدْ يَكُونُ أَحَبَّ هِلَّيٍّ هُوَ توم وبستر⁽¹⁾ Tom Webster، كَانَ رَأْسُهَا يَتَدَلَّى، وَلَعَيُونَهَا جَفُونٌ سَمِيكَةٌ وَتَكْشِيرَةٌ بَاهِتَةٌ سَاخِرَةٌ، لَهَا قَوَائِمٌ طَوِيلَةٌ مِيَالَةً لِلاتِّفَافِ حَوْلَ بَعْضِهَا مِثْلَ الْفَرَسِ تِيشِي Tishy فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ.

كَانَ مَظْهَرُهَا الضَّعِيفُ خَادِعاً وَلَكِنِّي وَجَدْتُهُ مُرِيحاً عِنْدَمَا رَاقَبْتُ الْخُيُولَ الْآخَرَى وَهِيَ تَرْقُصُ مُتَبَاهِيَةً حَوْلَ السَّائِسِ، وَلَمْ يَكُنْ بِإِمْكَانِ هِلَّيٍّ الْجَرِي سَرِيعاً بِشِدَّةٍ، وَقَدْ اكْتَشَفْتُ أَنَّ تِلْكَ عَلَّةً فِيهَا بِسْرَعَةٍ عِنْدَمَا أَخَذْتُ بِلِجَامِهَا مَتَوَتِّرَةً لِأَسْرَعِ بِاللَّحَاقِ بِالْآخَرِينَ بَعْدَ انْطِلَاقِهِمْ، اسْتَدْرْتُ وَحَمَلْتُ فِي هِلَّيٍّ بِنَظَرَةٍ ثَابِتَةٍ شَرِيرَةٍ وَمَا كَانَتْ لِنَفْصَحٍ عَنْ مَعْنَاهَا بِشَكْلِ أَوْضَحَ لَوْ أَنَّهَا بَدَأَتْ تُغْنِي بِاللَّهْجَةِ الْإِيرْلَنْدِيَّةِ «أَنَا أَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ، وَأَنَا أَعْلَمُ مَنْ بِصَحْبَتِي».

(1) غلبرت توم وبستر (1886-1962) رسَّامٌ صُورٍ مُتَحَرِّكَةٍ إنْكِليزِيٍّ شَهِيرٍ، وَكَانَتْ الْفَرَسُ تِيشِي الْمَذْكُورَةُ أَعْلَاهُ مِنْ شَخْصِيَّاتِ رَسُومِهِ الشَّهِيرَةِ.

كَانَ كُلُّ شَيْءٍ فِي رِحَالِ رُكُوبِ الْخَيْلِ تَلِكُ يَبْدُو فِي الظَّاهِرِ عَلَى مَا يَرَامُ؛ لِأَنَّ هَلِّي كَانَتْ كَسُولَةً تَتَمَدَّدُ مَتَهَالِكَةً حَوْلَ الْإِصْطِبِلِ، وَعِنْدَمَا تَتَعَزَّزُ عَلَى الْكُثْبَانِ عَلَى طَوْلِ مَجْرَى الْأَفْنِيَةِ الْقَدِيمَةِ وَرَاءَ الْآخَرِينَ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يَرَامُ لَطَالَمَا اسْتَطَعْتَ أَنْ أَجْعَلَهَا تَنْظُرًا إِلَى الْأَمَامِ مَبَاشِرَةً وَرَأْسُهَا مُسْتَقِيمٌ حَتَّى لَا تَقَعَ عَيْنَاهَا الدُّوَارَتَانِ عَلَى وَمِضِ الْبَرَجِ الْبَنِيِّ الَّذِي أَصْبَحَ الْآنَ شَكْلًا مُرَبَّعًا فِي الْأَفْقِ الْبَعِيدِ خَلْفَنَا. فَإِذَا حَدَثَ أَنْ لَمَحْتَهَا هَلِّي مَرَّةً فَإِنَّ الْجَوْلَةَ كَمَا - فَشَرَ الْكَلِمَةَ أَحَدُهُمْ - قَدْ انْتَهَتْ، فَقَدْ بَدَأَ شَكْلُهَا الْأُخْرَى بِالْدُّوَارَانِ بِلَا تَوَازُنٍ، وَهِيَ تَرْتَجِفُ ثُمَّ تَنْفَجِرُ بِقُوَّةٍ وَقَدْ انْتَبَسَطَتْ رَقَبَتُهَا الْبَيْضَاءُ وَتَمَدَّدَتْ لِدَرَجَةٍ مَذْهُشَةٍ، وَحَوَافِرُهَا الْمَنْزَلَقَةُ تَلْتَهَبُ، وَهِيَ تَقَاوُمُ بِسَالَةِ الْكُثْبَانِ الْمَلِيئَةِ بِالْحَصَى، وَنَبْدُو وَكَأَنَّا سَوْفَ نَبْحُرُ عَالِيًا فِي الْهَوَاءِ، وَلَوْلَا أَنَّنِي كُنْتُ خَائِفَةً جَدًّا لَكَانَتْ تِلْكَ الْحَرَكَةُ مَمْتَعَةً فَعَلًّا كَمَنْ يَجْلِسُ عَلَى ظَهْرِ بَجْعَةٍ مَجْنُونَةٍ مَهَاجِرَةٍ، وَأَنَا مُتَأَكِّدَةٌ لَوْ أَنَّنِي كُنْتُ قَدْ رَاجَعْتُ هَلِّي لَكَانَتْ النَتِيجَةُ مَوْتًا مُحَقَّقًا، فَلَوْ أَنَّهَا انْحَرَفَتْ فَجَاءَتْ إِنْشَاءً أَوْ اثْنَيْنِ إِلَى أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ عَنْ مَسَارِ قَفْزَتِهَا السَّهْمِيَّةِ الطَّائِرَةِ لَوْقَعْتُ عَلَى رَأْسِي فَوْقَ الْأَرْضِ الصُّلْبَةِ، فَتَرَكْتُهَا بِتَعَقُّلٍ دُونَ تَدَخُّلٍ، وَتَمَسَّكْتُ بِلَا حَاجَلٍ بِالسَّرَجِ.

كَانَ حَدَثًا مُثِيرًا جَدًّا غَيَّرَ مِنْ رَتَابَةِ مَسَارِ الْأُمُورِ، فَقَدْ كُنْتُ أَعُودُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ إِلَى الْمَنْزَلِ مِنْ مَنَاطِقٍ تَبْعُدُ عَنِ الْمَعَشَكَرِ بِسُرْعَةِ 90 مِيلًا بِالسَّاعَةِ، وَكَانَ مُوَاسَاةً لِي أَنْ أَعُودَ إِلَى الْمَنْزَلِ فِي كُلِّ مَرَّةٍ، فَلَوْ أَنَّ هَلِّي فِي تِلْكَ الْحَادِثَةِ أَصْرَتْ عَلَى أَنْ تَنْطَلِقَ فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ آخَرَ هُنَاكَ؛ مَا كَانَتْ لَتَتَوَقَّفَ مِثَالِ الْأَمِيَالِ إِلَّا إِذَا انْطَلَقَتْ بِاتِّجَاهِ الشَّرْقِ، وَوَجَّهَتْ وَجْهَهَا الْغَبِيَّ نَحْوَ جِبَالِ بِلَادِ فَارَسِ.

بَقِيَتْ تِلْكَ الْأَمْسِيَّةُ جَمِيلَةً بِمَجْمَلِهَا - يَوْمَ دَفَعْنَا لِلْعُمَالِ أَجُورَهُمْ - فَقَدْ رَأَيْتُ بَعْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ بَعِيدًا مِنْ جِهَةِ الْجَنُوبِ الْعَرَبِيِّ وَمُضَاتٍ مَبْهَجَةٍ مِنَ الْأَصْوَاءِ تَعْنِي أَنَّ الْقَوْمَ الْخَفَاجِيِّينَ قَادِمُونَ نَحُونَا، وَبَعْدَ ذَلِكَ وَصَلُوا وَتَجَمَّهَرُوا وَدَخَلُوا تَارِكِينَ هَوَاءَ الْمَسَاءِ شَدِيدَ الْبُرُودَةِ إِلَى دَفءِ غُرْفَةِ الْجُلُوسِ، وَعَلَا صَوْتُ نَقَرَاتِ الْمَصَافِحَةِ وَالْكَلامِ. كَانُوا قَدْ أَمْضَوْا أَسْبُوعًا جَيِّدًا، وَبَعْدَ قَلِيلٍ تَجَمَّهَرُوا حَوْلَ هَانِزٍ وَحَوْلَنَا قَرَبَ الْمَدْفَأَةِ لِيَسْتَمْعُوا إِلَى قِصَّةِ الْمَحَاوِرِ الصَّخْرِيَّةِ.

وقفَ هناك هانز مُحاطاً بهيئةَ مُوظفِيه، كانَ مرتَّباً، وقصيرَ القامة، وأسمَرَ، يتعلُّ عليه المصريُّن اللذين اعتاد لبسَهما في المساء عندما يخلعُ ثيابَ العمل والتنقيب، بينما كان بعضُ الموظفين مازالوا بغبار وشعث عمل يومهم.

كان معظمُهم أكثرَ طولاً وأعظمَ وزناً منه، لكنني لاحظتُ وقتها ما أصبحتُ دوماً ألاحظه بعدئذ، وهو أنه كانت أجواء ما يتمتَّعُ به من السُّلطة الخيرة العفوية قويةً لدرجة أنَّ المَرءَ يحمل انطباعاً عفويّاً عنه بأنه رجل طويلُ القامة إذ كان القومُ ينظرون إلى الأعلى عندما يتحدثون إليه.

كانت لغته الإنكليزية سليمةً، ويستعملُ الكثير من المصطلحات الشائعة التي استفادَ منها بشكل مَرَحٍ لتُناسبَ هواه وبإضافة إيماءاته وهو مُنفعل تصبُّحُ مدهشةً إلى حدٍّ ما، فيقوم بها أحياناً دون قصد، وأحياناً متعمداً لما فيها من متعة، ثم أنهى روايته بتلوينة من يده.

علّقَ بيير قائلاً: "Magnifique" «عظيم».

قالت بيتي: "Just wonderful" «رائع حقاً».

وقال كلٌّ من هام وماك معاً: "Swell" «ممتاز».

نظر إليهما هانز متلهلاً وأجاب وهو يلعبُ بلفظ swell: "completely swollen" التي تعني «متنفخ جداً» مما أثار عاصفةً من الضحك.

وزاد من أجواء الاحتفال عندئذ قدوم جبرائيل من بغداد حاملاً معه البريدَ، فراح هانز يبحث فيه وبالأوراق والرسائل التي طال الشوقُ إليهما. قام جبرائيل بتسليم ستون صندوقاً صغيراً وسمعتُه يقول له بتلهف: «سيدي لويد وجدُّتهم في متجَر إنكليزي، ولكننا آسفين سيدي لم يكن عندهم إلا تلك الكُراتُ البيضاء، آسفين سيدي لويد هذا أفضل ما استطعتُ القيامُ به» ثم حرَّكَ رأسه الكبير بحزن.

كانت تلك كرات جديدة للعبة البينغ بونغ كان ستون قد طلب إليه محاولة العثور عليها؛ لأننا كنّا نلعبُ أحياناً لعبة البينغ بونغ على طاولة غرفة الطَّعام. ورفع ستون

غطاء العُلْبَةِ فلمعتْ حزمة الكرات البيضاء التي فيه، وكانت موضوعةً بكؤوس من المَناديل الورَقِيَّة.

فقال: «إنَّها ممتازة جبرائيل تماماً كما رغبتُ شكرًا لك».

أجاب: «هل هي *awright* جيدة؟». (كذا)

«نعم شكرًا جبرائيل ممتازة، تصبح على خير».

ابتعد جبرائيل متثاقلاً، وعلى وجهه العريض أمارات مختلطة من الارتباك والارتياح فقدَّ كانَ يكرهُ أن يُخطئَ بما يشترى واكتشفتُ سببَ ارتبائه بعدَ عدَّةِ أيَّامٍ عندما كُنْتُ أراجعُ حساباته التي كتبها لذلك الأسبوع:

«2 ديسمبر، لمستر لويدي، ستة كرات بينك بونك pink Ponk».

* * *

«تعالِي لتسمعي بعضَ الأسطوانات المسجَّلة»، قال هام بلهجة أمريكِيَّة “reccuds” بعد العشاء من تلك الأمسية. «آل ماك قادمون أيضاً».

قبلتُ بسعادة، فقد عَرَفْتُ ماذا تعني “reccuds” لأنَّ ثقافتي الأمريكية كانت تتقدم بسرعة، كانتْ غرفةُ جلوس هام وهال مكاناً مبهجاً للدخول فيه بعيداً عن صقيع السَّاحة الخارجِيَّة التي كانتْ تشعُّ تلك اللَّيلة بلون أزرق فولاذي تحت ضوء القمر، فاستقبلتني دمدماثُ أغنية للمغنِّي ويرينغ⁽¹⁾ Waring من بنسلفانيا اسمها “dancing in the dark”. وعبرَ الطَّرِيق طَرَقَ سمعي صوت خافت لموسيقى صادرة من غرفة الجلوس، حيث كان هانز وبيتي وراويل يستمعون لنوع آخر مختلف جداً من الـ “reccuds”، وكان ماك يجلس على الأرض ويده كأس وبيتي تحوِّك في كرسي ذي مسند مصنوع من الأغصان المجدولة.

قدَّم لي هال كرسيًّا وقدَّم لي هام شراباً، كانت السَّائِرُ الحَمراءُ مُسدَّلةً، وكان المَوْقَدُ

(1) فريدريك مالكوم ويرينغ (1984-1900) Fredrick Malcolm Waring موسيقي أميركي شهير، لُقِّبَ بسَيِّد الغناء الأميركي، والرجل الذي علَّم أميركا الغناء.

الزَيْتِي يَشْتَع بدفء كبير. وكانت توجد في القرب نسخ وصلت مؤخراً من جريدة النيويورك New Yorker، ووضعت زهور إفريقية في إناء قصير أبيض على طاولة صغيرة. كان هام قد طلب إلى جبرائيل أن يحضر له بعض الزهور من بغداد من أجل هذه الحفلة الصغيرة، وكانت أجواء الغرفة مختلفة عن أي شيء آخر عرفته في حياتي، وعلى الرغم من أنها كانت متطابقة في الشكل والمفروشات مع كل الغرف التي تحيط بالفناء⁽¹⁾ الخارجي، فقد كنت أظن ببساطة أن ذلك يعود إلى هؤلاء الأربعة الودودين بلهجاتهم، وخواص التعبير اللغوي غير مألوفة عندهم، وكذلك باستعدادهم لإظهار ترحيبهم بصحبتني، أوجد كل ذلك قطعة صغيرة من أميركا بين جدران الغرفة الأربعة لتكون أولى الومضات من العالم الحديث في قلب هذا المكان المغرق في القدم.

وبينما كان فريد أستير⁽²⁾ يرتدي قبعة عالية ويلمع أظافره، كنا نحن نتحدث، فأدركت أنهم كانوا مستعدين لسماعي وسماع رواياتي عن الحياة في ظلمات إنكلترا كاستعدادي لسماع رواياتهم، ووجدت نفسي أصف لهم الكوخ ذا المتي عام من العمر في هامشاير حيث عاش والدي، حتى أصبح وصفي كالشعر عندما وصفت لهم كيف تبدو منخفضات هامشاير («يبدو أنها كان يجب أن تدعى مرتفعات هامشاير Hampshire ups» لدى ماك) ووصفت لهم جمال وينشستر Winchester ورومزي Romsy القديمتين، ولأن هال وهام كانا مهندسين معماريين فقد عرفا كل ما يتعلق بنظريات الأبنية الإنكليزية والنورماندية القديمة وكانا مندهشين لهم أن تكون مازالت شيئاً مدهشاً يتشوقون لرؤيته على الطبيعة، فقلت لهم: «من الأفضل أن تأتوا وتروا تلك الأبنية بأنفسكم».

فقال هال: «كذلك يجدر بك القدوم إلى أميركا يوماً ما»، وأضاف متدبراً: «يمكن أن تكرهي بعض ما فيها، ولكنك سوف تحبين فيها بعضاً آخر».

كان سديم⁽³⁾ التدخين يتماوج في أرجاء الغرفة، وأغنية ويرينغ من پنسلفانيا ما

(1) الفناء: المتسع أمام الدار. (لسان العرب 10، ص 339).

(2) كناية تشبيهية بالراقص الأميركي الشهير فريد أستير (1899-1987) Fred Astaire.

(3) السديم: الضباب الرقيق. (القاموس المحيط، ص 1446).

زالت تصدُّحُ في الظَّلام مرَّةً أخرى، لقد تآخَّرَ الوَقْتُ ولكنَّ اليَومَ التَّالي كانَ يومَ عَطْلَةٍ، فكانَ الجَمِيعُ مبهجينَ ومسترخينَ، ثُمَّ قالَ ماكُ إِنَّهُ جائِعٌ قليلاً وسارَ مُتَمَهِّلاً لِيُغَيِّرَ على المَطْبَخِ، ثُمَّ عادَ بالكثير منَ البَيضِ والبَسكويتِ والبيرةِ، فقمنا بَسَلِقَ البَيضَ لِيُصْبَحَ قاسيا في إناءٍ مَعْدَنِيَّ كانَ هامَ قَدْ وَضَعُهُ على الموقدِ لترطيبِ الجَوِّ.

تخلَّى هال عن تماشُكِهِ المَعهُودِ، وأصبحَ متبسِّطاً مع رفاقه ليستطيعَ تحمُّلَ الأجواءِ القارسةِ في العالمِ القاسي. أخبرَني هال عن قصةٍ مدهشةٍ حدثتْ أيامَ أبيه الأولى في الغُربِ الأوسطِ عندما كانَ يعملُ مع فريقٍ يقطعُ الأخشابَ، وكيف أنَّه في أحدِ أيَّامِ الخريفِ عندما كانَ صبيّاً صادَفَ وجودَهُ في البَلَدَةِ، مرَّ بِمَدخَلِ بابٍ مفتوحٍ لِاحدى المدارسِ حيثُ كانَ الصَّبِيانُ الأصغرُ منه سناً بكثيرٍ جالسينَ يُمتَحنونَ، فاندَسَّ بينهم، وجلسَ على أحدِ المقاعدِ، وحاولَ الإجابةَ على الورقةِ الموجودةِ عليه وشعرَ بالخُزيِ الشديدِ عندما اكتشفَ أَنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعِ الإجابةَ عن سؤالٍ واحدٍ لأنَّهُ لم يذهب قطَّ إلى المدرسةِ، ثم كيف اكتشفَ أمرَهُ الرئيسُ، واهتمَ به ورَتَّبَ الأمرَ كي يَعْلَمَهُ في فترةِ السَّتاءِ الطويلةِ عندما يتوقَّفُ عمَّالُ الأخشابِ عن العَمَلِ، وهاهو الآنَ قد أصبحَ الرئيسَ الأوَّلَ لأكبرِ مدرسةٍ في ميلووكي Milwaukee.

انقضتِ الحفلةُ، والجَمِيعُ يغلبهمُ النُعاسُ، وما زلتُ أحتفظُ حتى الآنَ بأسطوانةٍ أغنيةٍ "Dancing in the Dark"، ما كانَ عليَّ إلا أنْ أديرَ أسطوانتها بقدمها وبما فيها من خدوشٍ مشوهةٍ بفعلِ رمالِ العواصفِ الرَّمليَّةِ التي أصابَتْها؛ لاسترجعها أُمامي وكأنَّها حقيقةُ الأصواتِ والضَّحكاتِ، وأشَمَّ رائحةَ البارافينِ الملتهبةِ، وصوتَ وقعِ أقدامِ الحارسِ المَكْتُومَةِ وهو يمرُّ بالنافذةِ الخارجِيَّةِ في جولاته اللَّيليَّةِ، ثُمَّ لأرى ثانيةً ماكُ الضَّخَمَ متربعاً على الأرضِ، وفكرُهُ الوقَّادُ الذي يخفي بمكرٍ وراءَ تكاسله الظاهرِ، وأرى بَتي الرقيقةَ اللَّطيفةَ، وهال ذا العينينِ الشَّهلاوينِ الحزِينتينِ، وضحكتهِ الخجولةِ الخاطفةِ، وكذلك هال سَريعَ البديهةِ والحَرَكةِ كالزَّبَقِ صافي القلبِ كالذهبِ.

* * *

بدأت الاكتشافات تتدفق من البيوت الخاصة؛ وكنت أمضي معظم أمسياتي الآن بصحبة راحيل في غرفة الآثار، وما كان يسعفني حديثي عما سأجد داخل صناديق الكرتون، فالأشياء فيها لم تكن تشبه أي شيء رأيته في حياتي من قبل. ولأن مصدرها كان من البيوت فقد حملت محتوى إنسانياً أكبر من تماثيل الآلهة الطينية الصغيرة وعُبادهم والأصاحي الحيوانية المُقدّمة إليهم، والتي شكّلت معظم الأشياء الواردة من المعبد، وكان من بينها صولجانات صُنعت قبل 4000 آلاف سنة من تلك الصولجانات التي كان يحملها صبية السلال الصغار في أحزمتهم، بعض الصولجانات كانت مثل أجاصات كبيرة مدهشة الصُّنع والتشكيل، وتنتهي بنهاية ضيقة تشبه نصف الخنزير الأعلى قد حُرَزَ بعضها أو جعل عليه أشكال بارزة حول الكتفين مما شكّل منها سلاحاً رهيباً، أما القبضات الخشبية التي تثبت عليها رؤوس الصولجانات فقد فُتت ولم يُعثَر عليها أبداً. ولكن من الممتع أن ترفعها نحو النور لترى العلامات الحلزونية فيها، والتي تركها المثقّب المعدني وهو يخترقها. لقد تنوعت الحجارة التي صُنعت منها تلك الصولجانات، فبعضها صُنع من المرمر بلون أبيض صافٍ، أو موشح بالرمادي واللون الزهري، وبعضها من حجر الصوّان الأملس والأحجار الكلسية متنوعة الألوان فيها الأخضر والأبيض. وكان عددها كبيراً حتى ليظن المرء أن كل فرد في ذلك الزمان كان قد حمل صولجاناً.

وفي إحدى الأمسيات التقطت ختماً أسطوانياً من أحد الصناديق شكله يشبه شكل بكرة قطن خضراء تُقبت عبر مستواها العمودي، وعليها علامات حُفرت حولها من الخارج، تخيلتها كحيوان هائج، وكانت أول مرة في حياتي ألمس فيها ختماً كهذا. كان هانز وقتئذ في العُرفة يتفحص بعض الآثار المكتشفة، فأدّرت الختم أكثر من مرة وقد راقبني وهو يمعن التفكير بها وقال لي وهو يأخذها من يدي: «انظري»، ثم وضع أمامي قطعة صلصال التقطها من أحد الرفوف ثم دحرج الأسطوانة بحذر وهدوء على طرف الصلصال، وهو يضغطها في الوقت نفسه وكأنها آلة جزّ عشب الحقائق وهي تمرّ على عشب مرج صغير، ثم رفع الأسطوانة، فحملت على الأثر المسطح التي تركته تحت مسارها بعد رفعها وعلى طول سطح قطعة الصلصال بعد أن كان فارغاً قبل لحظة،

برزت الآن أشكال صغيرة واضحة المعالم بشكل مثالي ارتفاعها أقل من إنش واحد. ثم قال هانز: «إنها ليست طبقات جيدة، عليك أن تراقبي ريغموور وهي تنفذها بشكل مثالي فهي قد طبعت كل نقشات الأختام قبل أن تقوم بتصويرها».

أظهرت النقوش أسداً وحيواناً له قرون نشبا على قوائمهما الخلفية، وقد التحما بالقتال، بينهما شجيرة ملأت الفراغ بين أقدامهما، وخلف كل منهما يقف شكل، أحدهما لرجل تعلق رأسه قبة فوق خصلات شعره الطويلة، والآخر لنصف إنسان له رأس عجيب، نُفذت الأشكال بمهارة حرفية جميلة، إذا ما وضعنا في الحسبان كون مساحة نقش المنظر كانت صغيرة، إلى جانب أنها قد نُقشت من الداخل إلى الخارج، كما أنها نُفذت لتنتج مشهداً بنقوش بارزة إذا ما دُحرجت على الصلصال الطري، فكل عضلة في الأقدام المشدودة برزت بتوتر حيي مما جعل هيتييهما مألوفة، منظر الأسد بذيله المندفع الملتف وفمه المزمجر وقوائمه الأمامية المرفوعة يواجهه الحيوان ذو القرون، قلت: «إنهم تماماً كمرافقي القطعان» فأجابني: «حسناً هذا النوع من الأختام الذي يحوي الحيوانات المتقاتلة هو أساس تلك الأداة» فقد يكون وحيد القرن يدين بوجوده لأحد الحيوانات ذات القرون مثل هذا - قد يكون وعلاً - لأننا نرى جانباً واحداً من قرونيه في صورته الجانبية، ولكنه التصميم الوحيد الذي وصل إلى أوروبا بطرق غامضة، وقد استعمل هناك بشكل شعارات رمزية، ولا تظني خطأ أن معنى هذه الكلمة هنا «شعار» Herald لأنها ليست كذلك. قلت: «ماذا تراها تعني إذن يا هانز؟ وإلى أي تاريخ ترجع؟» أجاب: «إنها أختام الأكاديمين المثالية، وقد وجدها أحد رجال جايك في مستوى بيت الأكاديمين، تعلم الأكاديميون الساميون فن حفر الأختام من السومريين الذين غزّوهم، كما تعلموا منهم الكتابة، ولكن كما تتخيلين فإن عقليتهن كانت مختلفة، لذلك اختلفت أختامهم بشكل كبير، ليس فقط بالتقنية المتبعة، ولكن أيضاً بالطريقة التي رُتبت فيها المناظر على الختم، وفي طبيعة المناظر المتقاة، وهذا الختم لأحد مناظر الأساطير المعروفة لبطل يدافع عن قطيع مهاجم، هل أنت مهتمة بالموضوع؟ سوف أعطيك شيئاً لتقرئيه عنه.

ثم ذهبنا إلى المكتب وفيه خزانة كبيرة مليئة بالكتب، وسحب لي كتاباً كبير الحجم وقال: «إنه موضوع واسع، فكما أنَّ الأختام تلقى ضوءاً كبيراً على الإنجازات الفنية لحقبة زمنية تمتد حوالي 3000 سنة - فهي صُنعت واستعملت باستمرار منذ تاريخ يُقدَّر بين 3500 إلى 500 قبل الميلاد- ولكنَّ تلك الأختام أيضاً تفتُح حقلاً للبحث عبرَ مجمل عالم فكر الديانات القديمة، فهل أنت مهتمة؟» سألني مرةً أخرى. وتابع: «إنني أفضل أن تنغمسي في أعمال التنقيب بعيداً عن الجانب الآخر في المكتب - فأنت حتى الآن لم تفعلني ذلك».

خلقت لمستي للختم شيئاً ينشطُ في داخلي، إحساساً لم أشعرُ به من قبل في التنقيب هذا، فأخبرتُ هانز أنني سوف أبدأ بالقراءة عن الأختام، فأنا إلى الآن أشعرُ بالحيرة من كلِّ شيء، بعيداً عن واقع أنَّ العملَ المكتبيَّ قد أخذ الكثيرَ من وقتي عندما كنت أبحثُ عن طريقي، ثم قال هانز: «إنه كتاب سطحيّ نوعاً ما، والشروحات فيه رديئة، لكنها سوف تكونُ البدايةُ لك على أرض الواقع، فابدئي بالتعلُّم كيف تميزين أسلوبَ كلِّ حقبة زمنية، وبإمكانك أن تسأليني عن أيِّ شيء تريدين معرفته، وبالطبع في النهاية سوف نقومُ بكتابة منشوراتنا حول الأختام التي وجدتها بعثة التنقيب مرفقةً بالصحائف التي نفدناها، كلها من رسومات صور ريغمور الفوتوغرافية، وفي يوم ما أريد أن أولفَ كتاباً عن الموضوع بمجمله بعيداً عن عمليات التنقيب هذه، وعليك أثناء ذلك أن تخرجي إلى أعمال التنقيب قدر المستطاع كلَّ يوم إن أمكن وتسألني الأسئلة، وبالمناسبة كيف هي تلك الحساباتُ اللعينة؟» موجهاً كلامه لجايك.

أجابَ جايك: «حسناً إنَّ ميزانية هذا الشهر الأول جيدة. إذا كان هذا ما تقصد». فنظر إليه متشككاً، وقال: «متوازنة؟ أحساباً متوازنة يا جايك؟ وظلَّ يرفعُ صوته، ونحنُ نراه يمرُّ بالمرمرِ المفتوح باحثاً عن حمامه المسائي: «جايك الحسابات متوازنة!». عاد جايك إلى الغرفة متظاهراً بوجه باسم مخطط بالغبار الأكادي وقال: «سبحان الله» وكأنه كان يتذكرُ رحلة القطار الرهيبة في السنة الماضية، «سوف نكونُ مشهورين جداً في شيكاغو إلى الأبد»، وقال هانز: «سيكون الشرابُ على نفقتي هذا المساء».

* * *



طبعة للختم الأسطواني الذي يعود أصله إلى الهند



طبعة لختم أسطواني أكادي جميل



طبعة للختم الأسطواني الذي دلّ على بلاد الإغريق

بدأتُ أبحثُ في موضوع الأختام الأسطوانية، واكتشفتُ شيئاً وهو أنني أدركتُ الآن ماذا كنتُ أفتقدُ في هذا التنقيب الهائل، وهو شيءٌ صغير ملموس وشخصي كان من الممكن أن يُعرّفني بالناس الغامضين أنفسهم، والذين عاشوا في الماضي الغابر في البلاد القديمة. فالأختامُ الأسطوانيةُ كانت اختراعاً عبقرياً في بداية عهد السومريين. وبعد ذلك عندما انفتحت طرق التجارة الخارجية نحو البلاد المجاورة المحيطة حيث وجدت تلك الأختام بعيداً عن سومر، إذ أن هذا الاختراع قد اقتبس واستعمل لفترة من الزمان في البلاد البعيدة، ولكن منشأه كان في بلاد ما بين النهرين Mesopotamia لأنه وُجد لأول مرة في بقايا حقبة أوروك Uruk، وهي الحضارة الثانية من حضارات ما قبل التاريخ، وهؤلاء الأقوام كانوا أول من استعمل المعدن، وصنعوا أدوات القطع والتي ما كان بالإمكان دونها تشكيل وحفر الأختام الأسطوانية.

استُعملت هذه الأختام بالطبع في البداية لختم الممتلكات الشخصية، فمثلاً عندما كانت إحدى الأواني الفخارية تُختم كانت تُربط قطعة قماش فوق فوهتها، ويُربط خيط مشدود تحت حافة الفوهة، ثم يغطى الخيط المشدود بكامله حول الفناء بطبقة كثيفة من الصلصال، وقبل أن يتصلب الفخار يقوم المالك بدرجته الختم الخاص به على ذلك الصلصال. إما أن يكون المرء مسروراً بختمه أو يضرعه في طوق في رقبة أو مغروراً بشابك (دبوس) طويل يُشبك به عباءته، ويتميز الختم الأسطواني عن ختم الطابع بأنه يمكن جعل النقوش متتابعة طويلاً أو قصراً حسب مقتضيات الضرورة.

وإن كثيراً من النقوش العملية التي وُجدت يظهر على جانبها أحياناً علامات واضحة للخيط المشدود الذي كان يغطيه الصلصال.

وبعد حقبة أوروك Uruk وجمدت نصر Jemdet Nasr دخلت أيام سلالات الملوك الأوائل، ومع تطور الكتابة اكتسبت الأختام وظيفة أخرى، فقد استُعملت كتواقيع للوثائق التجارية والقانونية؛ وذلك بدرجتها فوق ألواح الصلصال تحت مجموعات المقاطع الصوتية السومرية المسمارية الشكل، والتشكيلات الواسعة في الأختام الأسطوانية والمناظر المتنوعة المنحوتة عليها، وما تمثله تلك المناظر

يجعلها موضوعاً ساحراً ومهماً للبحث، ويجعلُ وظيفتها العملية أقلَّ متعةً فيها، ويوجد شروحات مكتوبة في بعضها يلقي الضوء مباشرةً على معنى التصاميم التي فيها. وقد أطلعني هانز على صورة شروحات أحد الأختام التي وُجدت في القصر السنة الماضية، كانت مصنوعةً من أحجار اللازورد، عليها أغنية ذهبية تُعرض في نهايتها، وصورةٌ عابد قَدَّمته إحدى الآلهة إلى الإله المتوج، وقد كتبت حاشية خلف التاج يُقرأ في قسم منها: «يا تشيّاك، الملك كير كيري Kirikiri الجبّارُ حاكمُ إشنونا قَدَّم ختمه لابنه بيلا لاما Bilalama». ولكنَّ معظمَ الأختام غيرُ مكتوب عليها شرح فلم يكن من حاجة لما كان ممكناً أن يكون عنواناً أو تعليقاً عندما يكون المعنى جلياً تماماً للرجال الذين قطعوها وحملوها، فمثلاً لا يستطيع المرءُ دوماً أن يعرف بالنظر إلى الختم للحظة فيما إذا كان القطيعُ يغادرُ الحظيرة أم أنَّ الرجال يقومون بإطعام القطيع أم أنه لرجال يقومون بالحراثة أو حتى لرجال يجلسون لخضّ الحليب في جرار كبيرة لاستخراج الزبدة منه، وقوالب من الزبدة المجففة موضوعة على الرفوف فوق رؤوسهم، وفيما إذا كانت هذه المناظر للحياة اليومية أم أنَّها تحمل معنىً طقسياً مرتبطاً بالقطيع المقدّس التابع للمعبد، إذ أنه من الصعب أحياناً أو حتى من المستحيل تفسير المنظر، ولكنه بلا شك ذو أهمية دينية.

وارتباطاً بهذه المشاهد الدينية يجد المرءُ انشغال الرجل الأبدي وتفكيره بالموت والحياة، ترمز إليه الدورة المألوفة للطبيعة، فحبة الذرة النامية والحصاد يرتبطان بالإله الذي هلك ومات في وقت الحصاد ليحيا من جديد مع دوران السنة ومع البذور المبرعمة. ردّدتُ في داخلي: «ربيع الذرة» وكلما نظرتُ إلى تلك الأختام بالتحديد أجدني أحياناً أدممُ أغنيةً شعبيةً تعلّمْتُها عندما كنتُ في روضة الأطفال، كنّا نقفُ في دائرة ممسكين أيدي بعضنا، وفي منتصف الدائرة يقوم بضعة أطفال بتمثيل الأغنية تدربنا معلمة لطيفة فتية قد تكون أدركت - وعلى الأغلب أنها لم تدرك - أنَّ أصوات صيحاتنا المرحية في تلك الغرفة المتعرضة للشمس المليئة بأزهار النرجس البري النامية، كانت رجعا لصدى الأفكار الهائلة الأولى التي مرّت بكلّ العصور التالية

للعالم حتى وصلت إلى أقدامنا الصغيرة التي ترتدي الصنادل المفتوحة.

كانت الأغنية تُقول:

كان يوجد ثلاثة ملوك جاؤوا من الغرب

يحاولون الانتصار،

وأقسموا بأقدس الأيمان

بأن جون بارليكورن⁽¹⁾ سوف يموت.

أخذوا محراثاً وحرثوه فيه

وأهالوا على رأسه التراب،

وأقسموا بأقدس الأيمان

بأن جون بارليكورن قد مات.

فتمدّد هناك لمدة أسبوعين

حتى نزل قطر الندى عليه،

ثم نهضَ بارليكورن من جديد

وذلك فاجأهم جميعاً.

(1) الاسم بالإنكليزية: John Barley-corn ومعناه: جون حبة الشعير. لكن هذه الأغنية الشعبية ذات الأصول السكسونية تتغنى بنبات الشعير الذي يكنّ له لإنكليز أكبر تقدير، حيث أنه العنصر الأساسي لصنع الجعة والويسكي. ولا علاقة لذلك بفلسفة أديان الشرق الأدنى القديم.

وبقي هناك حتى منتصف الصيف

فبدا شاحباً ونحياً،

وبارليكورن طالت لحيتُه

فهكذا أصبح رجلاً.

فأرسلوا رجالاً يحملون مناجلَ حادة

ليقطعوه عند ركبتيه،

يا لجون بارليكورن المسكين

كيف عاملوه بأسلوب همجي.

يا جون بارليكورن يا خيرَ الحبوب

التي زُرعت في المِرج،

دعوه يموثُ فربما يعودُ للحياة

ويملاً قلوبنا بالغبطة.

فدعوه يموث، إذ ربما عادَ إلى الحياة - هنا في الختم أستطيعُ رؤيةَ الآلهة الأم تُظهر
السوقَ المبرعمةً من كتفيها، وهي تبحثُ عن ابنها الإله الميت المتمدّد في ضريحه
الجبلي، بعضُ الأختام تصوّرها وهي تساعدُه، وإحدى يديها على تاجه أو على يده أو
على قدمه وهو ينهضُ من قبره، بينما تنمو شجرة غصّة صغيرة من جانب الجبل الذي
كان مسجوناً فيه.

والانشغال بالموت والضياع والأمل بالخلود نفسه يظلُّ موضوعاً يتواتر عبرَ القصة

العظيمة لأسطورة ملك أرك Erech (الوركاء) المعروفة بأسطورة جلجامش⁽¹⁾.

كان لجلجامش صديق غريب نصف رجل اسمه إنكيديو Enkidu استطاع كلاهما القيام بأعمال بطولية عظيمة ولكن إنكيديو مات عقوبةً لجلجامش الذي أغضب بغطرسته الآلهة، وجلس في عزله ليكتشف قدر استطاعته سرّ الخلود، فقال: «أنا نفسي سوف أموت، أفلن أكون وقتها مثل إنكيديو؟ قد تغلغل الأسى إلى روحي بسبب خوفاً من الموت الذي قد سيطر عليّ، هل ارتحل عبر البلاد؟» وأثناء بحثه هذا قابل أوتانبيشتم Utanapishtim الذي قال له إنه لن يستطيع الفرار من الموت، وإنه هو نفسه أي أوتانبيشتم كان الخالد الوحيد الذي اكتسب الخلود، وقد نجا بفضل رحمة الآلهة به، وأخبر جلجامش كيف أنّ الآلهة أرادت إفناء الحياة على الأرض، فأرسلت طوفاناً عظيماً غطى وجه الأرض، وكيف أنّ الآلهة وجدت أنه هو وحده قد بقي على قيد الحياة؛ لأنّه أبحر في سفينة كان قد بناها بنفسه فوهبوه الخلود. نحن نعرف أوتانبيشتم باسم آخر في كتاب قرأنا عنه فيه وهو سفر التكوين وكان الأطفال يلعبون على أرض روضة الأطفال بألعاب حُفِرَ عليها شكله وشكل عائلته، ويلعبون بيته العائم أيضاً⁽²⁾.

أشفق أوتانبيشتم أخيراً على جلجامش، وأخبره أين ينبت نبات الخلود في قاع إحدى البحيرات الكبرى، فشدّ جلجامش على رقبته أثقالاً، وغاصّ بجرأة إلى القاع، وأمسك بالنبات، ولكنّ ذلك ذهب أدراج الرياح، إذ أنه بعد ذلك وأثناء أسفاره ترك النبات دون حراسة بينما كان يستحمّ في البركة، فجاءت أفعى وأكلته وضاع أملُه بالخلود إلى الأبد.

(1) المفترض في كتابة هذا الاسم استخدام ما يدلّ على جيم لهويّة (كالمصرية أو اليمينيّة) وليس الجيم الشجرية المشبعة كما نلفظها في القرآن الكريم. أي بلفظ: Gilgamesh. وعلى القاعدة التي أتبعها في هذه السلسلة بكتابة الجيم الحلقية (غ) كان بوذيّ كتابة الاسم: غلغامش، غير أن الذي شاع فيه: جلجامش، فتركته هكذا على كره. وحبذا لو تحلّ لنا مجامعنا اللغوية أمر هذا الحرف الشائك.

(2) من الواضح أن المؤلفة تعني سيّدنا نوح، الذي ارتبطت نبوّته بحادثة معاقبة الله تعالى للعصاة من البشر بكارثة الطوفان. لكن محاولتها الإقران بين الشخصيتين تتضمن معنى واضحاً من الإلحاد.

لم يُشرْ إلى جلجامش بشكل مؤكد في الأختام الأسطوانية، ومن اللافت للنظر عدّه بطل الأساطير في تلك الأيام، ولكن قد يكون ممكناً أن يكون الأشخاص المنقوشة رسومهم على جانبي الحيوانات المتناحرة التي نُقشت على الختم الأكادي الأول الذي لمستته وهي صورة الإنسان وصورة نصف الإنسان تمثل جلجامش وإنكيدو، ولكن لا يوجد ما يثبت ذلك. ويوجد هناك ختم عليه صورة بثقلين كالأوزان على كتفيه، ربما هو البطل الذي كان يستعدُّ للغوص للبحث عن النبات، وهناك نقش آخر عليه أشخاص على متن قارب أحدهم يرفع نباتاً نحو الآخر الذي كان متوجّجاً، وقد يكونا جلجامش وأوتانبشيم الخالد (أو نوح).



في إحدى الأمسيات حينما كانت راحيل تروي لي مقاطع من ملحمة جلجامش Gilgamesh، دخل هانز ومعه اللقي وقال: «لقد وجدوا قدراً صغيراً مملوءاً بأشياء في أحد البيوت، وسوف نفرغه هنا على الفور»، ثم ناولني ختماً أسطوانياً مصنوعاً من حجر كلسي زهرّي اللون «ماذا ستصنع بذاك؟ هاك بعض المعجون».

أدرته مرات عدة وأنا أغرز المعجون فيه، فقد أصبحت معتادة على قراءة النقوش من الداخل إلى الخارج، استطعتُ رؤية خطّ متواصل لحيوانات صغيرة لها قرون مرتدة إلى الوراء، كانت سيقانها قد أخفيت تحت خطوط ثلاثة، لها أو أربع فتحات صغيرة يلامس بعضها بعضاً، كانت سهلة.

قلتُ: "Jemdet Nasr" جمدت نصر⁽¹⁾.

قال هانز: «أصبّت»، وأضاف، وكنت أشعر بالسعادة داخلي والمهارة التي اكتسبتها مؤخراً:

«وماذا أيضاً؟ لقد وجدها هال اليوم».

نظرتُ إلى وجهه المتحرك يتموج بين المتعة وقلة الصبر، لقد نفذ هذه الحركات

(1) ترد التسمية بالعربية في بعض المراجع الحديثة: جمدة نصر.

بحاجبه الأيسر على ما أعتقد، فقد كان يرتفع بشكل هزلي فيخفف به من تعبير النصف الآخر من وجهه الذي كانت تبدو عليه خطوط أكثر جدية، وأحياناً خطوط تجهم. فتماسكتُ وقلت: «هل تعني ماذا يفعل هذا الختم في بيت أكادي؟».

أجاب: «نعم.. بالضبط، فليس اعتيادياً أبداً أن يجدي أي شيء قديم مثل هذا في مستوى العهد الأكادي، لا بد أن تكون أقدم منه بـ 600 سنة على الأقل، وبالطبع فإن عدداً كبيراً من الأختام المصنوعة من المعدن الصُّلب بقيت إلى عهود متأخرة، وبقيت قيد الاستعمال إلى أزمنة بعد العهد الذي صُنعت فيه».

قلت: «أنا أملكُ ختماً في البيت تعود ملكيته إلى والد جدي، فالأحرف الأولى من اسمه كأحرف اسمي الأولى، فسمح لي والدي أن أستعمله».

أجاب: «ها هو ذا.. الشيء ذاته قد حدث، لقد جاء القدر».

دخل هال يتبعه عامل صغير السن يحمل صندوقاً كبيراً بحذر، أخرج منه قدراً فخارياً، ووضعه على المقعد، كان الغبار ينهمر من الشقوق، ثم تدفق عندما رفع هانز بحذر شديد قطعة كبيرة منه. فظهرت في داخله المغبر قطع غريبة من شرائط معدنية وقضبان رفيعة. فبدأنا بإخراجها واحداً واحداً، فتدحرج على المقعد ختم أسطواني، ولكن سطحه كان بلا نقوش.

ثم قال هانز: «ها» وهو ينظر إليه، وكان يتلمس بأصابعه قضيباً حديدياً صغيراً له نهاية منبسطة، وتابع «ختم غير كامل الصنع وها هنا واحد مكتمل مصنوع من حجر اللازورد، وهذه أدوات، إنها معدات صانع الأختام».

وأظهر لنا كيف أن القضيب الذي كان يمسك به والذي فيه حافة حادة لثقب الختم بشكل عمودي كانت نهايته الثانية مربعة، وقال: إن هذا كان يركب على عمود خشبي يحمل خيط قوس للإسراع في قطع الأطراف، وما زالت فتحات المسامير تثقب في الصين بالطريقة نفسها إلى يومنا هذا.

كان في القدر أيضاً عدة أدوات حفر على النحاس، وكان هناك بضعة خرزات لم

تُثقب بعد. قال هانز: «سنجعلُ بيير يرفعُ طبقات الصدأ عن الأدوات كي تظهرَ الأطرافُ الحادةُ بوضوح، إنَّ ذلكَ ممتع لأبعد حدّ».

كان هنالك شيء يجذبني في ذلك الكنز الصغير المغبّر داخلَ القدر، إنها اللمسةُ البشرية، مرةً أخرى صوت يتكلم عبرَ العصور، كنت أسمعه عندما أرى، وأشعرُ بالخصوصيّات الصغيرة الشخصية للناس القدماء، فهذا الختمُ اللازوردي قد قلبته ساعةً تلوَ الأخرى يدٌ سمرَاء دافئة، بينما كانت الأداةُ الصبورةُ تحفرُ وتنحُتُ على سطحها، وهذا المثقب قد غُرس مرةً في قلب الختم، وهو يلفُ تحت أنامل العامل الماهر نفسه الذي مات منذ 4000 آلاف سنة.

بينما كنتُ ما أزال أنظرُ إلى تلك الأشياء والمسها قبل أن يُزالَ عنها الغبارُ الذي غطاها لفترة طويلة ظهر جايك عند مدخل الباب، وأقبل مسرعاً نحو هانز، كان وجهه دائم الهدوء وقد ملأته تعابيرُ الإثارة المكتومة وقال: «انظر هانز»..

وسلّمه ختماً أسطوانياً آخرَ فكانت لحظة صمت، ثم جاء الهولنديّ المتدحرجُ المدهشُ ثم قيل: «راحيل انظري إلى هذا!».

نظرتُ راحيل وندّدتُ عنها صرخةً صغيرة، وذهبتُ نحو شريط من البلاستيسين، ولم يطلب أحد مني النظرَ إلى أيّ شيء.

راح الختمُ الأسطواني الصغير يتدحرج عبرَ الشريط، ونحن جميعاً نحملقُ نحوه إلى الأسفل إلى الموكب الغريب الذي سار عبر البلاستيسين، والذي يتألف من فيل ووحيد قرن وتمساح.

قال هانز لهال: «كنْ شاباً لطيفاً واعثرْ على بيتي واطلب إليها الحضور».

فذهب هال خارجاً.

علّق جايك قائلاً: "Mohenjo Daro" موئن جو دَرُو⁽¹⁾.

(1) موئن جو دَرُو: عبارة بلغة السّند تعني: أكمة الأموات، وهو اسم إحدى أكبر مواقع الاستيطان البشري في حضارة وادي السّند التي ازدهرت في القديم حول نهر السّند، ويعود تريخها إلى

فأجابه هانز: «نعم».

قالت راحيل: «أقدام الفيل».

فأجاب هانز: «متطابقين تماماً».

كانوا جميعاً متهيجين بشدة. أمّا أنا فلهول المفاجأة كدتُ أنفجر بالصّراخ، وإذا بيّتي تأتي وهي تركض متحمسةً أيضاً حماساً شديداً.

ثم دارَ حولي هانز وشدّني إليه بقوة، وصاح بعيون لامعة: «هل تعلمينَ ماذا يعني هذا؟ لم تكنْ تلك الحيواناتُ معروفةً في هذه البلاد، وهذا الختمُ مطابقٌ إلى حدّ كبير لختم كان قد وجد في الهند في مكان ما في وادي السّند Indus Valley، ولا بدّ أنه جُلب إلى هذه البلاد مما يثبت بلا ريب أنّ لمدينة إشنونا علاقات مع الهند، قبل تاريخ 2000 قبل الميلاد، وأنّ لها علاقات مع الهند.

نظرتُ إلى الشيء الصّغير المغبرّ الذي يمسكه بين إبهامه وسبّابه ومن ثمّ إلى الطاولة.. لم يكنْ هذا الشيءُ الصّغيرُ قد كشف في رحلته فوق البلاستيسين عن الحيوانات السائرة فحسب، بل إنه كشف أيضاً عن صفحة جديدة من التاريخ.

* * *

الفصل السادس

ثمّة بناءٌ ضخّمٌ شُيِّدَ في شمال التلّ خلفَ منطقة البيوت الخاصة، كان سِتُون قد تجاوز الرابية الصغيرة مع رجاله، وأصبح الآن على منحدرها الشمالي الأخفض حيث تنبسطُ أفقياً بالتدرّج في مستوى الصحراء القاسية في العصور الحديثة، كان البناء يعودُ للعصر الأكادي، وكان جيداً جداً في تناسبه وتصميمه، ممّا جعل هانز يقرّر فوراً أنه لا بدّ أن يكونَ هو القصرُ الذي يخصُّ الأمير الأكادي. وبجداره الشمالي قرب سور المدينة العظيم يمتدُّ بشكل تقريبي شمالاً وجنوباً مستطيل ضخّم بجدران شديدة البراعة تحتوي على مجمّع غرف، حيث قامت خارجها تماماً في زاويتها الجنوبية الغربية أجزاء لمعبد أكادي صغير.

أكثرُ معلّمٍ مثيرٍ قرب القصر كان أنابيب المياه. وقد امتدَّ زقاق ضيق خارج الجانب الشرقي الطويل جداً، وهو مرصوف ينتهي بمدخل في حائط المدينة. ومن هذا الزقاق كان الناسُ يدخلون إلى القصر. أزاح سِتُون أحجارَ رصيفه، ووجد شيئاً مدهشاً في الأسفل يمتدُّ على طول الزقاق تقريباً، كان مصرفٌ مياه مقنطر يبلغ ارتفاعه يارداً تقريباً، بُني بشكل جميل من آجرٍ مشوي، مع انحرافٍ عليه، بحيث يمكن أن يُبهِجَ قلبٌ مفتش الصحة الأكثر دقة، الذي لا يتوقع أيّ شيء في بلد رفاهة القرن العشرين، وهو ينحدر باطراد، ويعبر بشكل مستقيم عبْرَ مدخل المدينة إلى الخارج في الأرض الخلفية.

تخترق الجدارَ الشرقيّ للقصر خمسُ مراحلٍ لمصارف مياه بحجم أصغر، وتتصل بالمصرف الأساسي في الزوايا اليمنى، وفي داخل القصر وبشكل كامل قرب جانبه الشرقي وُجدت مجموعة مؤلفة من خمسة حمامات وستة مراحيض، لم

تكن الحمامات أكثر من ألواح غسل بالتأكيد، ولكن كان كل واحد عبارة عن منصة مصفوفة بعناية من الحجر، مغطاة بقر bitumen عازل للمياه، وينحدر باتجاه ثغرة تحمل الماء بعيداً. ولكن الحمامات كانت أمراً متقناً بمقاعد آجر، وكل واحد فيه جرة ماء كبيرة بُنيت في الأرضية الآجرية، وفي واحدة منها أو اثنتين كانت المغرفة الفخارية ما تزال ملقاة وكانت تستخدم لغسل المرحاض، بنيت جميع الترتيبات بشكل جيد قبل (2000) سنة ق. م؛ وهي لم تكشف فحسب فهم تلك الأيام المبكرة للنظافة على أنها مهمة وأنها مشكلة ينبغي أخذها بعين الحسبان وحلها، ولكن أيضاً كانت تملك المعرفة العملية وإمكانية تحقيق كليهما بفعالية تامة.

احتوى القسم الشمالي من القصر منزل الحاكم؛ حيث ضمّ قاعةً لمدخل صغير فيه كتلة للغسل أشبه بالمرحاض في أي بيت حديث، ويمكن للزائر المرور من غرفة المعيشة الرئيسة الكبيرة، حيث يتم استقباله؛ وفي الجانب الشرقي له امتدت غرفة نوم الحاكم، وحمّام ومرحاض، وكانت هناك سلسلة جميلة لغرف ملأت الزاوية الجنوبية الغربية للقصر، في قسمه الأقرب إلى المعبد. وفي الجانب الآخر من القصر يشقّ المرء طريقه عبر غرف ملئت بحمامات كثيرة، ليخرج إلى مجمع يشكل أماكن المعيشة لسيدات القصر. وجدنا خرزات عديدة ملقاة على أرضيات تلك الغرف وأدوات تجميل حُفظت بعناية داخل محارات بلح البحر، أحمر شفاه في البعض، وكحل أسود في البعض الآخر؛ كانت تُستخدم لتجميل الحواجب والأهداب. ووجد مشط عاجي ملقّى في زاوية إحدى الغرف، وفي أخرى بقايا لما كان يمكن أن يكون حرفة يدوية أو هواية تليق بسيدة لملء أوقات الفراغ.

وألقيت هنا وهناك قطع صغيرة من عرق اللؤلؤ قطعت بأشكال مختلفة مع ألواح رقيقة من القار بالقرب منها، ضُغِطت مشكلةً شكلاً مضحكاً؛ كما كان هناك غطاء صغير مدور صنع بهذه الطريقة، وكان ممكناً أن يكون جزءاً من صندوق صغير لحفظ حلي أو مراهم.

في صباح أحد الأيام كنت وبيتي مشغولتين بإنقاذ تلك القطع الصغيرة كي يصبح بالإمكان تنظيف تلك الغرفة من الغبار لتكون جاهزة لريغموور وكاميرتها. وعلى

الأرض المستوية في الأسفل تمكّنا من مشاهدة يون على حماره الصغير يقوده فتى موثوق من العائلة حول ضواحي إشنونا القديمة. وبعيداً في الجانب الجنوبي الغربي للقصر كان ستون الآن ينظف أسفل الغرف ليرى ماذا يوجد تحتها.

قطع أحد العمال الأرض في أكثر من غرفة جنوبية، وأعمل ملقطه في كسارة ناعمة، وجعل ستون يرى أين تنخسف الأرض قليلاً، أوقفه ستون ومرّر يده عبر الغبار الرخو في المنخفض الضحل. وأخرج إلى السطح حلية من عقيق أحمر وقطعة رمادية باهتة لشريحة معدنية، وقف وأنعم النظر في قطعة المعدن لدقائق، ثم أرسل ولداً بملاحظة كتبت على عجل إلى بيتي ليسألها إن كان ممكناً لها المجيء، كنا لتونا قد التقطنا آخر قطعة مرصعة بالؤلؤ، لذا لحق كلانا الصبي عائدين إلى حيث كان ستون منحنيّاً قرب حفرة من الأرض. رفع يده عن الكسرة، وسقط الغبار مثل الشلال من بين أصابعه الطويلة، وبقي على يده قرص رمادي مستدير وبعض الخرزات.

سأل بيتي: «هل تحبين أن تحققي في هذه؟ إنها حفرة صنعت عمداً في الأرض - وقد وجدت قطعة من فضة، أعتقد أن هذا القرص من الفضة أيضاً، ألا تظنين ذلك؟ يبدو إلى حدّ ما كما لو أنّ شيئاً ما خاصاً قد خُبي هنا، لقد حان الوقت لاستراحة منتصف النهار فلربما يمكنك أن تقومي بذلك في فترة ما بعد الظهر».

قرّرنا أنه يجدر بيّتي الذهاب في الحال بعد الغذاء لتبدأ بتنظيف الحفرة في الأرض، بينما أعمل أنا في البيت إلى أن يحين وقت نهوض يون من نومه؛ ثم تأتي وتأخذه معها، بينما أكون قد تابعت تنظيف الحفرة، إذا كنت لم أنتهي من تنظيفها بعد.

كنت أقوم لتوي بغلق سحاب السترة الجلدية القصيرة الصغيرة عليه حوالي الساعة 2:30 عندما دخلت بيتي وقالت بسرعة: «لقد أخرجت الكثير منها، إنها جميلة، طميرة من المجوهرات، ولكن لا يزال مقدار كبير هناك - بعضها هش جداً، تتحطم بسهولة جداً فتعاملوا معها بهدوء».

قال يون وهو يلفظ كلمة مجوهرات بلكنة: joolery «أريد رؤية المجوهرات». ولم

يكنُ قد فاتَه من الأحداث شيئاً.

قالت: «إنه بعيد جداً بالنسبة لك، سنبقى هنا، وسنلعبُ في الفناء».

ردَّ وقد توسعت عيناه، وتدلَّى فمُه: «ولكنني أرغبُ جداً برؤية المجوهرات، إنني أريد ذلك».

قالت لي ييتي والتي كانت هي نفسها تريد رؤية المجوهرات مرةً أخرى: «جيد - حسناً، سنذهب ببطء»، ثم خاطبني: «ولكن من الأفضل أن تسرعِي. جميعُ الأشياء التي ستحتاجينها موجودة هناك فوق».

انطلقت ذاهبةً بسرعة، لقد كان طريقاً طويلاً جداً للوصول إلى النهاية الجنوبية للقصر، مروراً بالإصطبلات، ومروراً بمعبدِ غملسين Gimilsin أعلى المرتفع الحجري أمام البيوت - ولوَّحْتُ بيدي لهال وهو منحني فوق طاولته التي مازالت باقيةً كما هي - ثم إلى الأسفل مرةً أخرى في الجانب البعيد حيث يقع القصر ويعبُحُ بالعمال، وستون ينتقل بينهم، صارماً ومتمهلاً. وفي الخلف بعيداً تقع الصحراء التي كانت يومها شديدةً الاصفرار في شمسٍ ما بعد الظهر، تمتدّ بعيداً إلى الأفق الشمالي البعيد نحو السماء الزرقاء الصافية.

كان عرضُ الحفرة في الأرض ما يقاربُ القدمين، وأصبحت الآن عميقة جداً. كان على جانبِ الحافة صناديقُ كرتونيةٌ صغيرة، تحتوي كلُّ واحدةٍ منها على أنواع مختلفة من الأشياء كما صنفتها ييتي. فجلستُ على الأرض وتفحصتها فوجدتُ قطعاً بلونٍ أزرق قويٍّ جميلٍ على شكلِ إسفين بلونٍ عرفت أنه حجرُ اللازورد؛ وقطعاً أكثر بشكلِ إسفين، بالحجم نفسه تماماً، بلونٍ رمادي باهت، والذي قال ستون إنه كان من الفضة - وخرزاً من العقيق الأحمر والفضة والعقيق اليماني، والكثير من أقراص دائرية من الفضة، أقرب ما تكون لقلائد كبيرة، ولكلِّ واحدة منها شريطٌ فضيٌّ صغيرٌ عُلقَ بالحافة وثُقبَ ليأخذَ صفوفاً متعددة من الخيوط. كان هناك دبوسان⁽¹⁾ طويلان

(1) الدبوس: مفردة دخلت العربية، وفي اللغة: الشابك.

برؤوس كبيرة من اللازورد والفضة، وتعويذة أو اثنتان من اللازورد، بدت كما لو أنها كانت ثيراناً، ففكرت أنه كم كانت جميلة تلك التركيبة من اللون والمعدن عندما كانت جديدة ومتألقة: البريق نصف الخافت للعقيق الأحمر والذهبي، واللون الأزرق الداكن الكامد للازورد، حيث ظهر كلاهما مع وميض الفضة ولمعانها؛ وما كنت لأدرك وقتها كيف يمكن أن تبدو متألقة مرة أخرى، ولكن بفضل مهارة بيير الكيميائية، وترميم يتي عادت تماماً كما لو أنها في اليوم الذي صُنعت فيه.

في تلك الفترة كنتُ هنا منبطحةً على الأرض أنظف بحذر الغبار وأضعه في صندوق كنتُ قد وضعته داخل الحفرة؛ ولدى امتلائه رفعته وسكبت المحتويات في مُنخلٍ ناعم في حال فقدان شيءٍ ما. وفي كل مرة كنتُ أفعل ذلك، تبقى خرزات صغيرة في الشبكة، وأتساءل بمَ كانت تستعمل تلك الخرزات؛ فقد كانت صغيرة جداً أصغر من أن تُنظّم في خيط بين الحبات الكبيرة. ثم اصطدمت فرشاتي بشيءٍ قاسٍ، نفختُ لعدة دقائق، وظهر بريق لونٍ أزرق غامقٍ من خلال الغبار، نفختُ مرةً أخرى بلطفٍ إلى أن أوضحتُ حدوده الكلية. ثم زلقتُ شفرة سكينٍ عريضٍ على جانبها، وأعملتها هناك في الأسفل تدريجياً إلى أن دعمتُ الشيء الصغير. وأخرجتها من الحفرة، ونظفْتُها بلطفٍ بفرشاة صغيرة ناعمة.

لقد كانت طائراً بجناحين ممدودين، والنهاية الواضحة لأحد الجناحين اللازوردين كانت متوجةً بالفضة. أما الجناح الآخر فقد ضاع غطاؤه ولكنه ثقب بثقب صغير قرب طرفه بشكلٍ واضحٍ من أجل بعض الملحقات، كان الرأس من الفضة أيضاً، لكنه لم يكن رأس طائرٍ، رمادي ومغبر وممهد وعلى الرغم من أنه كان في سجنه الطويل فقد استطعتُ رؤية أنه كان رأس أسد، واستطعتُ رؤية شيءٍ آخر أيضاً: سلكٌ منظّم ما زال يمرُّ عبر الرقبة الفضية وعبر الثقب في الرقبة اللازوردية لربطهما معاً، وعلى السلك واحدة من خرزات العقيق الأحمر الصغيرة التي وجدتها، كانت الخرزات ببساطة عبارة عن اللمسات الأخيرة لإبراز تأثير لون الفضة واللازورد معاً، وبما أنني لم أحاول أيضاً إخراج التميمة بواسطة إصبعٍ أو إبهام فقد كان من المحتمل أن ينكسر السلك بمجرد اللمس.

نظرتُ داخلَ الصندوق حيث وضعتُ بيتي جميعَ قطع الفضة، واكتشفتُ ما كنتُ أتمناه: قطعةٌ صغيرةٌ مثلثة الشكل، تشبه حافظةَ أقلامٍ سُويّت بشكلٍ طفيف، وكانت هناك فالتقطتها وأزلقتها على الجناح الذي فقد غطاءه الفضي. لقد ناسبته تماماً، ولقد كنتُ أعلمُ حتى الآن من تصميمات الختم الأسطواني ماذا كانت تمثل تلك التيممة، لقد كان إمدُغود Imdugud، النسرُ برأس أسدٍ رمزاً إليه الخصب، ونيورتا Ninurta، ملك النبات وقاتل الوحش، ثم وجدتُ تيممةً أخرى أصغرَ لإمدُغود؛ هذه المرة كان رأسه والجسدُ والذيلُ كلها من الفضة، وأجنحته وحدها من اللازورد.

وصلتُ بيتي وهانز معاً وكان يون بينهما مبتسماً، فأخذتُ بيتي مكاني على الأرض، ووضع هانز يده على التيممة، ووقف يون مشاهداً وواضعاً بهدوء يديه خلف ظهره، كما تدرَّب على فعل ذلك في كلِّ مرةٍ يكون فيها قرب أيِّ شيءٍ أثري. كان منهما في مشاهدة الكسرِ الصغيرة القادمة من الحفرة واحدة تلو الأخرى. وقفنا جميعاً حولها، عندما كانت بيتي مرَّرت فرشاتها أخيراً حول القسم الداخلي للحفرة.

بدأتُ تقول: «أعتقد أنها هذه هي كلها، لا.. هاهنا ما يزال شيءٌ ما في القاع».

تحركت الفرشاة بحذرٍ إلى الأمام والخلف عبر الغبار، واستطعنا رؤية شكل دائري.

قالت: «أريدُ شيئاً ما مسطحاً تماماً، إذ لا أجرؤ على رفعها».

كسر هانز حافةَ غطاء صندوق، وناولها إياه، ووضعها في الأسفل قرب الشيء المستدير، وبناية فائقة رفعت حافته بسكين، وزلقت قطعة الكرتون القوية أسفل منها، كانت شيئاً فشيئاً تنظف وتنفخ وتلاطف القرصَ بعيداً عن صدعه، وكانت قادرةً أخيراً على رفعه للأعلى إلى مستوى الأرض، واستطعنا رؤيته للمرة الأولى في وضح النهار. لقد كان حليةً جميلةً مصنوعةً من الفضة بقطر خمسة إنشات تقريباً، له نتوء في المركز، وما زال حتى الآن مجللاً بالغبار كما كان، واستطعنا مشاهدة وجود نسخ كبيرة لكلِّ الأقراص التي وجدناها من قبل، تمتد بين النتوء ومحيط الدائرة. على أربع دوائر

متحدة عند المركز بصياغة تخريبية بالغة الدقة.

بيد أنها لم يكن لها تعلق بالإطار؛ كانت كلها قد جُمعت معاً، ووصلت بالخرز والتمايم، ولكنَّ حجم القرص الضخم ووزن يُظهر أن أنه قد يكون عقداً غير عاديّ. حمل هانز تميمّة إمدُغود الكبيرة في يده، واستدارَ لينظرَ نحو أجزاء جدار القُصر الواقع على مستوى الأرض من المعبد الصغير، والذي كان على بُعد عشرة ياردات أو أكثر من تلك النقطة، وبرز في زوايا يمينية.

قال: «ستون! هل أخذت ريغموور جميعَ الصور التي نريدها للمعبد كما هو موجود؟».

قال ستون إنّه شاهدَ مسودات الصُّور ذاك الصُّباح، وكانت كلها جيدة جداً. وعلى الرّغم ذلك فإنَّ أجزاء البناء لن تُقبلَ إلا إذا عُرفَ عن طريق سجلاتها المرئيّة - أي الصور - بأنها مُرضية بشكل تام.

تابع: «جيد إذاً، هل ستبدئينَ النزولَ إلى الأسفل هناك بدءاً من الغد؟ فأنا متلهّف جداً لأعرف ماذا يوجد في الأسفل؟».

قالت بيتي وهي تنظرُ إلى قطعة مُعقّدة من الفضة على راحة يدها، والتي فيها قلائدٌ طويلة لا تزال مرتبطةً بها هنا وهناك: «أعتقد أنه باستطاعتنا عمل ترميم جميل لهذه، أستطيع رؤية التَّنظيم الأصليّ للقلائد هنا تماماً، وسنكون قادرين على إعادة بعض القطع المخلخلة. ألم تتمكن من إحضار بيير ليقومَ بالعمل في الفضة؟».

أجاب: «نعم - ممتاز، ومن بعد ذلك تعيدينَ بناءَ مجمل الأشياء وتعيدينها إلى وضعها السابق، وبإمكان راحيل عمل رسم بالقياس الطَّبِيعي لها».

بعد مضيّ بضعة أيام، وعندما عاد ماك وزوجته وهام إلى خفاجة بقي بيير متخلفاً عنهما، واختفى في مخبره الصّغير جانبَ العُرفة المظلمة (غرفة تظهير الأفلام). حيث رأينا بعدها كنزَ المجوهرات، وقد كانت الفضة تشعُّ مرّةً أخرى، وومضَ وانقَدَ العقيقُ الأحمرُّ واللازورد، كانت نظيفةً الآن، ووجد القرصَ الكبيرَ مثقوباً في جانبه، كي

يأخذ ثلاثة أسلاك من الخرز، واعتقد هانز أنها تشبه كثيراً قلادة طقسية؛ وأن ذلك القيد الفضّي المعقود بقلادة طويلة رُبِطت به على طول إحدى حافتيه كان عصابة رأس، بدأت يتي بصبر لا ينفد بتهيئة المئات من القطع في كل متماسك، مثبتة في البداية التمام بسلك وقطع العقيق الصغيرة بسلسلة من الخرز الأزرق، وأخذت تملأ جميع الفجوات على طول حافة عصابة الرأس مع القلائد المناسبة المصنوعة من الفضة واللازورد.

استغرقت أياماً قبل أن تكون جاهزة لتسليمها لراحيل التي كانت مبهجة لهذا التنوع المرحّب به لعملها اليوميّ الاعتيادي، لأنها كانت فتانة بارعة فقد قامت بوضع المجموعة كاملة على لوح الرسم، فوضعت عصابة الرأس في الأعلى، ثم سلسلة التمام، وبعدها قلادة من أوتاد متعاقبة بين الفضة واللازورد، وبعدها قلادة عظيمة لامعة محمولة بين خطّ حلّيتها الثلاثي. ها هي ذي تستلقي هناك وتلتع، بينما استقرت راحيل وهي تدندن بسعادة؛ لتعيد بناء ألوان ما كانت قد توصلت إليه بشكل مذهش.

في تلك الأثناء كان بناء المعبد الأكادي الصغير قد تلاشى إلى الأبد، وكان رجال ستون من الشّرقاطيين يتبعون أثره في مستوى أدنى وأعمق، وذات صباح كنت أرقبهم في تلك المهمة عندما قال هانز فجأة (وقد كان جائماً⁽¹⁾) فوق الخندق الذي ظهر منه رأس الشّرقاطيين): «هذا هو.. محدّب مستو planoconvex».

عدتُ بذاكرتي إلى محطة هامستد تيوب Hampstead Tube Station، ووجدت نفسي أنطلق باتجاه شارع فيتزجون Fitzjohn's Avenue - هل من الممكن أن تكون قبل خمسة أشهر فقط؟ شعرتُ مثلّ يون: «أريد رؤية الآجر المحدّب المستوي، وقد فعلت».

قال لي هانز مشيراً نحو الأسفل إلى الحائط في الخندق: «هل تشاهدينها؟» وضع الآجر بشكل منحدر مرّة باتجاه ومرّة باتجاه آخر، وتوجد واحدة هناك واحدة غير ثابتة - سأحضرها». أزال آجرة وناولني إياها، كانت مستوية في القاعدة، ومحدّبة في القمة،

(1) جائماً: جشم: لزم مكانه فلم يبرح. (القاموس المحيط، ص 1403).

صُقِلَتِ الحَوَافُّ الخَشَنَةَ، وكان أصابعُ قد رُسِمت بسرعة عبْرَ الطين؛ وكانت هناك علاماتُ إيهامين واضحين عليها أيضاً. نظرتُ إلى هانز.

قلت: «أعلم كيف صُنعت هذه الآجرات، وكيف بُنيت الجدرانُ بها، ولكن ماذا يعني هذا؟ أظن أنه يجدرُ بي أن أعلم».

قال بصبر، وهو ينظرُ كما لو أنه يتساءلُ كيف يُمكنُ لأحد ما الجلوسُ لمدة شهر يدوْنُ ملاحظات عن أي شيء دونَ أنْ يعلمَ ماذا تعني كلها - إنها تعني أننا وصلنا إلى عصر السَّلالة الحاكمة الباكرة. يتطابقُ استخدامُ هذا الأجر تقريباً بشكل تام مع ذاك الوقت، من بدايات السلالات الحاكمة وفي الوقت، حوالي 6000 سنة لاحقاً، عندما اجتاحت الأكاديون السومريين.

وعندما تجدُها يمكنك أن تقول بكل ثقة السَّلالة المبكرة، تشيرُ تلك الأجرة العلويةُ أن المعبد السومري الصَّرف الأخير يقع هنا - وفوقه كان المعبدُ الأكاديُّ الأقدم عهداً بانسبة للمعابد الأكادية».

وهكذا كان الأمرُ «هل ستجدُ أبنيةً تعودُ إلى عصر السَّلالة الحاكمة الباكرة تحت القصر أيضاً؟».

قال: «لا ريب، على الرَّغم من أن طَميرةَ المجوهرات وُجدت في أرض أكادية، لكنَّها تتضمَّنُ ملامحَ لمجوهرات تنسُبُ إلى زَمَنٍ أقدم؛ فالأقراصُ الصَّغيرةُ هي فواصل حقيقيَّة، مع قطع جُمعت من أجل ضمِّها في جبال من الخرز، على سبيل المثال، فهي تماماً مثل بعض ما وُجدَ في أور في عصر السَّلالة الحاكمة الباكرة».

أحضر ستون في المساء ذاته الأشياء الأخيرة التي تعودُ إلى العصر الأكادي للمعبد الصَّغير؛ كان بينها ختم أسطواني من حجارة رمادية. يُشاهدُ إلهان مسلَّحان بحراب يهاجمان وحشاً رهيباً، هو تنين له سبعة رؤوس نجح الإله الذي يُهاجمُ الرؤوسَ بذبح أربعة منها، حيثُ تدلَّت هزيلة، واستمرَّ رأسُ الحربة يطعنُ الراسَ الأعلى. ولكن ظلت الرؤوسُ الثلاثة المُتبقية منتصبَّة ومُتعدِّة، بالسَّنة متعدِّدة الرؤوس وهي تَمْتدُّ

نَحُو الإله. وازْتَفَعْتُ ألسنة لهب طويلة ومُرْتَجَفَةً من ظَهَرِ الوحش.

شَعَرَ هانز بإثارة شديدة، وقال لراحيل: «قاتل الوحوش، أتساءل إن كان هذا يرتبط مع تَمِيمة إمدغود Imdugud في طَمِيرَةِ المَجْوهرات والتي من المُمْكِن أن تكونُ مَجْوهرات طَقْسِيَّة لِيَرْتَدِيها موظفو المَعْبَد مُكَرَّسَةً لِنِينورتا Ninurta؛ وتلك الزاوية من القصر، القريبة جداً من المعبد، يمكن أن تكونَ قسَمَ المساكن لموظفيه».

قالت راحيل وهي تنظرُ أسفل إلى الختم: «كنت أتساءل عن هِرَقْل Herakles».

«تقصدين الرؤوسَ السبعة للوحش».

أجابت راحيل: «نعم، وهناك إله ثان هنا يساعد قاتل الوحش، تماماً كما ساعد لولاولوس Lolaus عمّه هِرَقْل - وانظري إلى اللّهب الخارج من التنين - وفي النهاية اضطرَّ هِرَقْل Herakles إلى استخدام النار لِيَتَغَلَّبَ على الهيدرا⁽¹⁾ Hydra».

إنَّها واحدة من تلك اللّحظات المَجيدة التي تُكافئُ العَمَلَ الرُّوتينيَّ الصَّبورَ لأيام وأسابيع عندما يُرشدُك جِسْمٌ صغير مُعَفَّرٌ سَلَمٌ من أنقاض الحَفَر، يرشدك لأول دَرَجَة من مَمَرٍ ظَلٍ خَفِيّاً حتَّى ذلك الوقت، وعند ظهوره يَفْتَحُ الطَّرِيقَ إلى معارفٍ جَدِيدَة للذين يعرفون كيف يتبعونه.

أَحَسَسْتُ مع الآخَرِينَ أَنَّ خيالنا انطلقَ يتسابق بعيداً جداً لآلاف الأميال وأكثر؛ ليراقبَ قوافلَ البضائع القديمة وهي تَمُرُّ في الطُّرُقَات المَفْتُوحَة مُنذُ فُجِرَ التَّاريخ على طول الطَّرِيق القادم من الوادي السَّندي حاملينَ معهم البضائع والأخبارَ عن البلاد البعيدة إلى مواطني إشنوتّا. شَعَرْنَا جميعاً بذلك عندما شرح هانز لأول مرة أهميَّة الختم من موئن جو دَرُو Mohenjo Daro.

والآن.. فتحتُ كلماتُ راحيل طريقاً جديداً غريباً - يمتدُّ هذه المَرَّة شمالاً - باتجاه الغرب عبر آسيا الصُغرى نحو اليونان، طريقاً سافرَ عبرَ الزَّمان أيضاً لآلاف السنين من التاريخ، تحمل إلينا معها حكاياتٍ قديمة جداً، نصفُها من الذَّاكِرَة ونصفُها من الأُحْلام عن

(1) الهيدرا: أفعى خرافية، من أساطير الإغريق، لها تسعة رؤوس قتلها هِرَقْل.

الآلهة الذين أنقذوا رجالاً بحماية قطعانهم من الوحوش الضارية. ومن ذلك الدليل الأول الذي قدّمه الحتم الأسطواني المؤلف من حجر رمادي صغير. بدأت راحيل تشكّل رابطاً إثر رابط، سلسلة من أدلة قويّة، نشرتها لاحقاً، تُبرهن فيها أنّ هرقل Herakels بطل بلاد الإغريق الجبار، يدينُ بأصله إلى إله الخصب في منطقة ما بين النهرين القديمة.

وعندما كنْتُ في إجازة سائقي الباص. بدا أن يبير كان قد قرّر أن يتوقف عن الكفاح في ترتيب مبالغه الخاصة لوجود محاسب متدرب حرّ يطوف في تل أسمر، فأرسل رسالة ليسأل هانز إن كان بإمكانه الذهاب ليوم واحد إلى خفاجة أقومُ بترتيب ذلك. فانطلقت في أحد الأيام مُبكِراً جداً مع جبرائيل، وكان سيوصلني إلى خفاجة، ويأخذ قائمة مشترياتهم ثم يُتابع إلى بغداد، ولأن سكان خفاجة كانوا عائدين تلك الليلة إلى تل أسمر في عطلتهم الأسبوعية، فقد استطعتُ العودة معهم. واقترح هام أيضاً جولة على الحصان لبعض الوقت في فترة بعد الظهر، ووعد أن تكون جولة لطيفة.

كنْتُ أحسّ بنوع من العبء مُلقى عليّ فبالرغم من أنني كنْتُ متشوّقة لرؤية الحفر في خفاجة، كان لديّ الكثير من الرسائل لأنجزها لهانز، وتقريراً طويلاً له عليّ طباعته للبروفسور برستد Professor Breasted، الذي كان وقتها في مصر. كانت كتابات هانز شائعة ولكنّها شاقة؛ لأنّها كانت تتضمن دوماً أقصوصات خُرزّت هنا وهناك على نحو غير متوقع. كما أنها تتضمن خطوط طباشير حمراء وسهاماً تقوّد على نحو دقيق إلى الخلف والأمام وإلى فوق وإلى تحت عبر الخط الواضح المُستعجل، ودائماً كل شيء ينقلب ليصبح حاضراً وصحيحاً، حتى لو كان بعضه مقلوباً رأساً على عقب، وكنت أشعرُ وكأنني ثيسوس Theseus وهو يتّبع الشعاع القرمزي من أعماق المتاهة، فقد كان يأخذ مني وقتاً طويلاً كلّما جلستُ أمام الآلة الطابعة، وأدّرت المخطوط ببطء بحثاً عن نهاية جملة، وربك أعلم لماذا لم يستطيعوا تدبّر ميزانياتهم الخاصة في خفاجة!

ولكن كان من الصعب التذمّر في صباح جميل كهذا فقد كانت الصحراء كلّها كالذهب والفضّة، وكان الجو الصافي يلعب خدعاً معنا، ويعرض امتدادات هائلة للماء حيث لا إمكانية لوجود ماء. لم أر في حياتي أبداً سراباً حقيقياً من قبل، ففي

بعض الأحيان نَظُنُّ أَنَّنَا نَنجُو مَبَاشَرَةً نَحْو سَبْخَةِ مَاء لَنْ نَصِلَ إِلَيْهَا أَبَدًا - أَوْ حَافَةً بِحِيرَةٍ وَاسِعَةٍ بَقِيَتْ دَائِمًا عَلَى بُعْدِ بَضْعَةِ أَقْدَامِ أَمَامَ عَجَلَاتِ سَيَّارَتِنَا السَّرِيعَةِ. وَكَانَتْ تَظْهَرُ قَمَمُ قَوَامِيعِ الرِّمَالِ الَّتِي صَنَعَهَا جِبْرَائِيلُ لِيَضَعَ عِلَامَاتٍ عَلَى الطَّرِيقِ. لَقَدْ بَدَتْ وَاضِحَةً عَبْرَ سَرَابِ الْمِيَاهِ، سُودَاءَ مُقَابِلِ الضُّوءِ الْمُبْهِرِ، مُنْحَنِيَّةً وَمَتَّجَعَةً بَعِيدًا عَبْرَ الْمَسَافَاتِ أَمَامَنَا، كَنَسَقِ عِلَامَاتِ طَوَافَاتٍ صَغِيرَةٍ تَتِمَّائِلُ عَلَى السَّطْحِ الْهَادِي لِبَحْرِ الصَّيْفِ.

وَصَلْنَا بَعْدَ مَدَّةٍ إِلَى مَفْتَرَقِ طَرِيقٍ حَيْثُ يَوْجَدُ طَرِيقٌ جَانِبِيَّةٌ تَقُودُ إِلَى خَفَاجَةٍ، فَانْعَطَفْتُ السَّيَّارَةَ نَحْوَ الْيَمِينِ، وَبِسُرْعَةٍ رَأَيْتُ بَوَاضِحَ صَفَاً مِنْ شَجَرَاتِ النَّخِيلِ تَتَدَلَّى قَرَبَ الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ؛ وَلَكِنْ جِبْرَائِيلُ قَالَ بِأَنَّهَا كَانَتْ أَيْضًا سَرَابًا.

قَالَ بِلَهْجَةٍ أَمْرِيكِيَّةٍ: «هَنَّاكَ شَجَرٌ فِي الْبَعِيدِ بَلَا رَيْبٍ، وَلَكِنَّهُ يَوْجَدُ عَلَى بَعْدِ أَكْبَرَ - بَعِيدًا عَنِ النَّهْرِ - وَهَذِهِ مَجْرَدُ انْعِكَاسَاتٍ لَهُ».

وَمِنْ ثَمَّ شَاهَدْتُ ضَفَافًا طَوِيلَةً عَلَى الْيَمِينِ، مُحَاطَةً بِبَحِيرَةٍ مُتَأَلِّقَةٍ، تَتَحَرَّكُ فِيهَا أَشْكَالُ سُودَاءٍ صَعُودًا وَنَزُولًا عِنْدَ الْأَفْقِ، فَفَرَّزْتُ لِتَوَيِّ أَنَّهَا خِيَالٌ أَيْضًا عِنْدَمَا لَوَّحَ جِبْرَائِيلُ يَدًا سَمِينَةً وَقَالَ: «مَوْقِعُ خَفَاجَةٍ!». وَفِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ جَمَعْتُ الْبَحِيرَةَ ذَاتَهَا وَاخْتَفَتْ. وَكَفَّتِ الضَّمْفَةُ - الَّتِي كَانَتْ كَوْمَةً مِنْ مَفْرَغَاتِ الْحُفْرَةِ - عَنِ اللَّعْبِ عَلَى أَنَّهَا جَزِيرَةٌ، وَاسْتَقَرَّتْ بِلُطْفٍ عِنْدَمَا اقْتَرَبْنَا مِنْهَا عَلَى أَنَّهَا أَرْضٌ جَافَةٌ.

قَالَ جِبْرَائِيلُ: «هَلْ آخِذُكَ إِلَى الْمَنْزِلِ يَا أَنْسَةَ أَمْ تَرِيدِينَ الْوُقُوفَ عِنْدَ مَوْقِعِ التَّنْقِيبِ أَوْ لَا؟ هَاهُوَ الْمَسِيو دُلُوغَا⁽¹⁾ Mr. Delougaz هَنَّاكَ وَمُسْتَرِ دَارْبِي⁽²⁾ Mr. Darby هَنَّاكَ».

لَمْ أَرِ أَحَدًا مِنْهُمَا، وَلَكِنْ جِبْرَائِيلُ كَانَ قَدْ أَشَارَ إِلَيْهِمَا فِي أَمَاكِنَ مُخْتَلِفَةٍ مِنَ الْمَوْقِعِ؛

(1) پنهاس پییر دُلُوغَا (1901-1975) Pinhas Pierre Delougaz عالم آثار عمل مع المعهد الشرقي (OI) التابع لجامعة شيكاغو مع إدوارد كييرا الأنف الذكر، ثم انضم إلى مشروع تنقيبات ديالى، وكان هو الذي شحن الثور المجنح إلى متحف المعهد حيث يوجد الآن عند المدخل. ثم انضم إلى حفريات خُرساباد إلى جانب توركيلد ياكوبسن وستون لويد. وهو من تذكره المؤلفة دومًا باسم پییر، وتستمتع بذكر مقاطع من كلامه بلهجة إنكليزية مكسرة، فهو أوكراني الأصل.

(2) هو هاميلتون داربي الذي يرد ذكره في الكتاب باسم: هام، اختصاراً.

فقد أراني رأسَ پير، وكانَ منَ المُمكن رؤيةَ الرأسِ كاملاً وخده، إِنَّه مَذهل حقّاً أن يكونَ الرأسَ على مستوى الأرض، قلتُ: إِنَّني أُرغبُ بالخروجَ والذَّهابَ ومشاهدةَ العمل، وعندما قادَ جبرائيل السَّيارةَ ذاهباً إلى المَنزل استَقَامَ پير منتصباً عندما سَمِعَ صوتَ محرَّك السَّيارة وقد كان يعملُ في قعر الخندق ولوَح لي وأنا أَقْتَرِب، قلتُ: «پير، لقد رأيتُ أجراً مُحدَّداً مُستويّاً».

أشرقَ وجهُهُ الأحمرُ المستديرُ بالضحك. «*Tiens!* هكذا إذن؟.. إذا كان ذلك ما كنتَ تتمنِّين رؤيته، فلقد أتيتُ إلى المكان المناسب».

أشارَ إلى الحائطِ في الخندق، وإلى كلِّ ما حوَلَه؛ كانت هناك آجُرات بأشكال غريبة حيثما نظرتُ بُنيتُ مُتَعَرِّجَةً مع صفٍّ مُستوٍ بين كلِّ صفٍّ مزدوج. قلتُ بلا مُبالاة ضاربةً على ساقِي المُرتدية سروال ركوب الخيل بالشوْط وحاولتُ ألا أُفسدَ ذلك بالضحك: «بناء عصر السَّلالة الحاكمة الباكِرة بالتأكيد».

بدا پير متفاجئاً ومسروراً لمعرفتي الواسعة، وصعد ببطء خارجَ الخندق، ومشينا نحو هام، الذي كان واقفاً على قمة حائط منخفض يوجَّه بعضُ العُمال.

كانت خفاجة بخلاف تلٍّ أَسَمَرٍ مستويةً جداً. ومن قَمَّة حائط هانز يمكنُ أن تُستوعَبَ إجمالاً كمخطط مرسوم على الورق. وعبر الموقع وعلى بعد بضعة مئات من الياردات نحو الغرب استَطَعْتُ رؤيةَ البَيْتِ الأثريِّ الصَّغير - صغير مقارنةً بالنسب المدهشة لأجزاء البَيْتِ في تلٍّ أَسَمَر. وعلى اليمين منه باتجاه الشمال، وعلى مسافة ليست بعيدة استَطَعْتُ رؤيةَ شيء جميل - ومضة مياه: ماء حقيقي هذه المرة، وخلفَ ذلك على الضفَّة البعيدة لنهر دِيالى شيء ما آخر جلب انتعاشاً كاملاً للعيون التي اعتادت رؤية الأرض المُنبسطة دونَ ظلال - حزام أخضر مزرق كثيف لشجر التَّخيل. وجَدْتُ صُعوبةً في التَّوقُّف عن النَّظَر والتَّركيز في حفرة التَّنقيب ولكن پير كان يشرحُ عنها.

كان يقول: «لَمْ يَعْثرُ على شيء يُشبهُها أبداً من قبل، انظري الجدارَ المنحني هناك الذي يطوق الرصيف».

قال هانز مازحاً: «وكلُّها صُنِعَتْ من آجرٍ مُنحَنٍ مستوٍ جميل، لقد نَظَّفْنَا فقط ما يقاربُ ستين ألفاً منها، أعرفها كلها كما أعرفُ ظَهْرَ يدي». بين الآجرات اتَّصَحَ المُخَطَّطُ الرائع الذي يمتد عند مستوى أقدامنا، فعلى الرِّغم من تعرية الرياح والأمطار لها حتَّى أصبحت في مستوى سطح الأرض، فقد وجدت أدلة كافية تُثَبِّتُ أَنَّ المَعْبَدَ بُنِيَ فوقَ مستطيل كبير بارز له درجات صاعدة من السَّاحة الدَّاخِلِيَّةِ إليه وهو والسَّاحة الدَّاخِلِيَّةِ، وقد طَوَّقَهُمَا جدار ضخم على شكل بيضاوي فُتِحَ في نهايته البعيدة عن المعبد ببوابةٍ دَقِيقَةٍ تحيطُ بها الأبراجُ. لقد اسْتَطَعْتُ رؤيةَ الجدارِ البيضاوي بوضوح؛ ولكن ولأنَّه لم يكنْ هناك شيء يُرى داخلَ منعطفه باستثناء مَخَطَّطِ الآجر المستوي على الأرض، لم يبدُ لي من الحِمَاقَةِ الشَّدِيدَةِ على أيِّ حال أن أسألَ كيفَ اسْتَطَاعُوا أنْ يعرفُوا أَنَّ مَعْبَدًا كَانَ قائماً ذاتَ مرَّةٍ هنا على المنصة البارزة.

قادني پير بوقار عبرَ طرق متقاطعة مزعجة قائمة فوق رؤوس الجدران وعلى جانبيها حفر وخنادق. صاح هانز: «سأراك وقت الغداء» واختفى عن النَظَرِ في أحد الخنادق. مررنا في إحدى النقاط بحفرة هائلة مستديرة لا تحتوي على أيِّ جدار، وقال پير إنَّها كانت إحدى الحفر التي أحدثها اللُّصوصُ الذين سلبوا الموقعَ قبل أن نحصلَ على امتياز التنقيب هنا.

عبرنا الجدارَ المَلْتَفَّ الواسعَ ومشينا عبرَ السَّاحة الدَّاخِلِيَّةِ باتجاه مستطيل مبنِيٍّ من بناء آجريٍّ متين في الطَّرَفِ الجنوبيِّ، فاسْتَطَعْتُ الآنَ رؤيةَ أنه احتوى على دعائم مسطَّحة جميلة ومتماثلة رَغْمَ أَنَّ هذه المنصَّة كانت بارتفاع بضعة طبقات على طول جوانبها.

وقفَ پير على بُعد بضعة أقدام بعيداً عن الحافة الطَّوِيلَةِ الخَلْفِيَّةِ للمنصَّة وأشار إلى الأرض، كلُّ ما اسْتَطَعْتُ رؤيته كان درجتين خشتيتين من الآجر تغطان وحدهما، وهما معزولتان تماماً وعاديتان جداً. قال ببساطة: «هكذا عرفنا».

قبل عدة أسابيع من قراري الذي حمل جهلاً محضاً أنَّ تصريحاً مثل هذا لا يمكن أن يكون له أيُّ أساس راسخ، فعلمتُ الآن بشكل كافٍ تماماً مع الإبداع في العمل

المتقن في الموقع أن أنتظر بصمت وعقلانية بينما استوفى بير هذا البيان. فقد فسر بأن الدرجتين قد حُفظتا بشكل جيد جداً، بحيث أن الارتفاع وعرض الخطوة في كليهما قد دُرس على نحو دقيق. لذا فعند قياس المسافة بين الدرجة الأكثر انخفاضاً وقاعدة المنصة كان من السهل حساب كم كان عدد الدرجات التي كانت تقود في الأصل إلى الأعلى، وبناءً عليه كم كان ارتفاع تلك المنصة، فكان ناتج الحساب ما يقارب خمسة عشر قدماً. لاحظت أن الدرجات لم تكن مقابل مركز المنصة، ولكن على الأصح باتجاه نهايتها الشرقية. قال بير إن هذا أقوى برهان على أنه معبد، وليس بناءً مدنياً قد وُجد ذات مرة هناك. بالتأكيد إن الدرجات كانت توضع بشكل مباشر مقابل مدخل أي بناء مهم، وكانت هذه بالضبط مكان المداخل الرئيسية للمعابد التي وُجدت في مواقع أخرى تقع في جانبها الطويل الشمالي باتجاه نهاية طرفها الشرقي، وكان المعبد الصغير في تل أسمر يتبع الخطة نفسها تماماً.

تابعنا المسير إلى الجانب البعيد من الفناء الداخلي، حيث أراني بير صفوفاً من غرف المخازن، والتي حوت ذات مرة وسائل الحرب والسلام داخل جدرانها الضخمة الواسية. في أحدها وُجد أكثر من أربعين من رؤوس الصولجان في العام الفات، وفي أخرى وُجد منجل حصاد حجري بحواف منشارية حادة، كان القار ما يزال سميكاً في المكان الذي ثبت فيه بالقبضات الخشبية، وفي غرفة أخرى أيضاً وُجدت أعمدة طينية للشباك مع خيطان الشبكة التي ما تزال تُرى معلقة حول بعض منها. كانت بعض أراضي تلك الغرف مكسوة بالجص، وأراني بير أحدها الذي يترك مراً أثراً مدهشاً.

في أحد الأيام قبل 4000 سنة، بينما كانت أرض إحدى الغرف ما تزال ناعمة، كان طفلٌ سومريٌ يحاول تنفيذ إنجازهِ الجديد في المشي، فترك أثراً مثالياً لقدمه على الجص - أصابع قدم صغيرة مدوّرة وعقب قدم ضُغطت بثبات، وتعارض مع شبكة من الخطوط. وضع هذا الطفل علامته الصغيرة المجهولة هناك قبل مئات السنين من أبرهام، الذي كان بعيداً في أور، وقد جمع أهله وممتلكاته في أيام حمورابي، ليبدأ الرحلة غرباً إلى موطنه الجديد.

سُزْنَا إِلَى دَارَةِ الْبُعْثَةِ، الَّتِي تَتَأَلَّفُ مِنْ فَنَاءٍ مَرِيعٍ صَغِيرٍ، مُلِئَ تَقْرِيْباً بِمَرْجٍ زَهْوَرٍ مُسْتَدِيرَةٍ أَغْلَقَتْ فِي طَرَفِهَا بِالْقُرْبِ مِنْ حَفْرَةٍ عِنْدَ الْجِدَارِ، وَأَغْلَقَتْ الْحَافَتَانِ الْآخَرِيَانِ مِنَ الْفَنَاءِ بِسُلْسَلَةٍ مِنَ الْغُرَفِ الْمَشَابِهَةِ لِلْأَكْوَاخِ. كَانَتْ أَحْوَاضُ الزُّهْوَرِ ذَاتَ حَوَافٍّ جَذَابَةٍ بِدَوَائِرَ بَلُورِيَّةٍ بَنِيَّةٍ صَغِيرَةٍ، الَّتِي لَدَى فَحْصِهَا عَنْ قُرْبٍ يَتَبَيَّنُ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنْ قَوَاعِدَ مَقْلُوبَةٍ لَزَجَاجَاتٍ بِيرَةٍ لَا تُعَدُّ، دُفِعَتْ بِرَفَقٍ رَأْساً عَلَى عَقَبٍ.

كَانَتْ بَيْتِي الَّتِي أَعَدَّتْ الْغِذَاءَ تَجَلُّسُ فِي الْفَنَاءِ الْمُشْمَسِ مَشْغُولَةً بِعَمَلِ رَسُومَاتٍ بَيَانِيَّةٍ لِلآنِيَةِ الْفَخَارِيَّةِ بِمُسَاعَدَةِ عِدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ أَزْوَاجِ الْمَسَامِيكِ. وَبِقُرْبِهَا تَمَدَّدَتْ كَلْبَةٌ مَسْنُونَةٌ لَهَا صُوفٌ أَبْيَضٌ وَأَسْوَدٌ، مَعَ جَرَائِهَا الثَّلَاثَةِ تَتَرَامَى حَوْلَهَا، كَانَتْ نَائِمَةً نَوْمًا خَفِيفًا عَلَى الْأَرْضِ قُرْبَ بَيْتِي عَلَى جَانِبِهَا، وَبِتَكَاسُلٍ ارْتَفَعَتْ لِتَحِيَّتِنَا، كَانَتْ عَلَى الْأَصْحَى وَبِشَكْلِ غَيْرِ مَلَأْتُمْ تُدْعَى رِيْمُوشَ Rimush، تَيْمَنًا بِخَلِيفَةِ سَرْعُونِ الْآكَادِيِّ. وَقَدْ وُجِدَتْ فِي السَّنَةِ الْمَاضِيَةِ آتِيَّةٌ مِنَ الْحَجَرِ كَانَ اسْمُهُ مَنَقُوشًا عَلَيْهَا.

فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ لِكُرْسِيِّ بَيْتِي جَلَسَ غَزَالٌ صَغِيرٌ سَاحِرٌ بِهَدْوٍ. لَقَدْ كَانَ وَدِيعًا إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَمَشْغُوفًا بِالسَّيْرِ مَعَ رِيْمُوشَ وَمَجْمُوعَةِ الْمَوْظِفِينَ، كَمَا أَخْبَرْتُ. كَمَا أَخَذْتُ بَعْضَ الْأَرَانِبِ الْأَلْيَفَةِ تَقْفُزُ بِتَثَاقُلٍ حَوْلَ الْفَنَاءِ - كَانَتْ جَمِيعُهَا مَسَالِمَةً جَدًّا.

قَالَتْ بَيْتِي، وَهِيَ تَنْهَضُ: «قَهْوَةٌ؟ لَنْ يَكُونَ الْغِذَاءُ جَاهِزًا إِلَّا بَعْدَ سَاعَةٍ أَوْ أَكْثَرَ. مَاكَ مَوْجُودٌ فِي الْغُرْفَةِ الْمُظْلَمَةِ».

أَمْضَيْنَا وَقْتًا طَوِيلًا نَمْشِي بِتَمَهُّلٍ حَوْلَ الْمَوْقِعِ، حَتَّى مَضَى مِنْ فَتْرَةِ الصَّبَاحِ نَصْفُهَا.

قُلْتُ لِپِيرٍ: «الْحَسَابَاتِ».

نَظَرُ إِلَيَّ بِأَطْرَافِ عَيْنَيْهِ بِمَكْرٍ ثُمَّ ضَحِكَ.

«لَيْسَتْ سَيِّئَةً جَدًّا نَوْعًا مَا، وَمَعَ ذَلِكَ - رُبَّمَا أُعْطِيكَ مَبْلَغًا صَغِيرًا، وَبِالْتَّالِيِ سَنَشْعُرُ جَمِيعُنَا بِرِضَا دَاخِلِيٍّ، وَنَفَكِرُ تَمَامًا - أَنْكَ رُبَّمَا تَرْغِبِينَ يَوْمَ اسْتِرَاحَةٍ وَبِرُؤْيَا خَفَاجَةٍ».

فَكُرْتُ لِلْحَفَظَاتِ بِمَكْتَبَتِي الْمَكْدَّسِ بِمَلَا حَفَظَاتٍ وَاخْتِرَالَاتٍ لِرَسَائِلَ غَيْرِ مَطْبُوعَةٍ،

وكذلك فكرت بالتقرير الطويل الذي كان ممكناً أن يصفه الرجل اللطيف الصغير، ثم شعرت فجأةً بأجواء العطلة تسيطر عليّ، خاصة أنها كانت غير متوقعة أبداً، عندما قدّمتُ كنتُ قاصدةً أن أكون مثابرةً تماماً معظمَ النهار؛ وقررتُ بما أنني الآن هنا أن أسلي نفسي بشكل كامل.

كان يوماً جميلاً، جلسنا بعد الغداء في الشمس - وهناك وصل فوتوغراف هانز المحمول؛ وفي الحال أخبرنا صوتُ نويل كاورد Noel Coward الذي كان جذاباً نوعاً ما، وعلى الرغم من أنّه كان كالمخنوق وخالياً من التعبير فقد أخبرنا أنّه كان واثقاً من أنّه شيء يتعلّق بالربيع. وبعدها جمعتُ مبلعاً بسيطاً كما طلب، ثمّ قمتُ أنا وهام بجولة على الجياد عند نهر دياالى الذي يجري واسعاً ومتعرّجاً بين ضفاف شديدة الانحدار، ويتعرّجُ ممّراً ضيقاً أعلى وأسفل على طول ضفته بين شجيرات خفيفة وأعشاب؛ وعبر الماء استطعتُ رؤية رقع ساطعة من أرض محروثة، ومجموعات بيوت طينية صغيرة تجمعت مقابل الأشجار الجميلة، التي امتدت جميلةً وخضراءً باتجاه نهر دجلة، على بُعد بضعة أميال. ذهبنا على طول الممرّ في صفّ أحادي، ولكن تركنا النهر أخيراً حيث انحرف بعيداً نحو الشمال؛ وسرنا بشكل جماعي أكثر جنباً إلى جنب الآن، تخبّ الجيادُ عبر الصحراء في دائرة كبيرة عائدةً باتجاه المنزل. كان هام فارساً جيداً بالفطرة، ونقل عدم اكتراثه وهذوء أعصابه لي، ولذلك ولأول مرّة في الخارج هنا عرفْتُ متعة ركوب الخيل الطويل الهادئ مع رفقة مريحة ولطيفة.

كان الغربُ يتوهجُ عندما اقتربنا من الموقع، وعندما تلاشت الشمسُ أسفل الأشجار بعيداً خلفنا، أظلمت الصحراءُ بسرعة. وقال هام إنّه من الأفضل أن نعيد الجياد سيراً في بضعة مئات من اليارات الأخيرة؛ بسبب وجود عدة خنادق تجريبية تمتدُّ بشكل مزعج قرب طريقنا.

لدى قدومنا ببطء قرب المنزل، تابعتُ التفكير بأنني سمعتُ دمدمةً خفيفةً خلفي، ثم أفصحتُ عن ذلك فنظر هام إلى الورا نحو الرمال المظلمة في ذلك الحين، تقريباً سوداء مقابل السماء المتوهجة، ثم انحنى إلى الأسفل تماماً حيث كان رأسه على

مستوى الأرض تقريباً. وضحك وقال: «أجل، اعتقدت ذلك - أنظري من هذه النقطة في الأسفل». وقفتُ على رأسي أيضاً ونظرتُ خلفي. الصورة تظلل مقابل الغروب شيئاً بشكل حرف ٧؛ صغيراً وناعماً وأسود. لقد كانت قرني الغزال الذي جاء لملاقاتنا، وها هو ذا الآن يعدو سريعاً نحو المنزل معنا على مسافة حذرة من حوافر الجياد.

كان احتساء الشاي حول مصباح زيتي يتقد بلطف - إذ ليس هناك كهرباء في خفاجة - في الكوخ الصغير الذي يشبه غرفة معيشة. ثم بدأوا جميعهم بإحضار حقائب صغيرة وقضبان من غرفهم ويرتبونها في السيارة Toto، التي كان ماك قد أحضرها أمام الباب. وأعطى آخر التوصيات للحراس؛ وبعدها أصبحنا بعيدين، كتبت العنوان لتل أسمر، جثم بيير بمعطف ذي ياقة من الفرو قرب ماك، وأجلس هام النحيل نفسه بطريقة ما بيني وبين بيتي. في الحال لاح ضوء تل أسمر في الأفق. كان يومي الجميل على وشك أن ينقضي - واحد من تلك الأيام البسيطة، وفوق ذلك هي أيام نادرة، قليلة جداً من العمر، والتي تدخل في قلبك وتبقى هناك إلى الأبد، بينما آلاف غيرها، ربما كانت زاخرة أكثر بالأحداث، تذهب ترفرف بعيداً في الريح، وتصبح منسية.

عُدْتُ إلى ذاك التقرير أخيراً، وطبعته مقابل أغنية ملحة في داخلي، ولم تتركني في سلام.

إنه من الممتع جداً أن تلاحظ أن تلك المجوهرات وجدت في بناء أرخت أدلة أخرى بأنه ينتمي إلى العصور الأكادية:

(«شعور لا أستطيع وصفه

ثمة أنشودة في الجو...»)

وتعرض أيضاً بقايا واضحة من أشكال سابقة لعصر أكاد وجدت في أور وفي المقبرة الحديثة في كيش Kish».

(«أنا متأكد أن ثمة صلة ما لهذا بالربيع»).

* * *



الطميرة النحاسية لدى اكتشافها



أنبوب الشرب، والمصفاة، والطاسات المنقوشة بالكتابات

في كلِّ مكان في تل أسمر وصل الحفر الآن إلى عصر السَّلالة الحاكمة الباكِرة. كشف جايك وهال منزلًا كبيراً يعدُّ أوَّلَ بيت عُرف، صُنع بشكل كامل من آجرٍ محدَّب مستوٍ بخمسة مداخلٍ مقوَّسة، وفي هذا المنزل أيضاً كانت هناك لقيَّةٌ أخرى فريدة: نافذة صغيرة مربعة مع شظايا مفتحة لإطار خشبيٍّ ما يزال معلقاً حول الفتحة.

كان ستون قد وصل إلى أسفل القصر الأكادي في الغرفة في الزاوية الكبيرة حيث لامس القصرُ تقريباً المعبد الصغير.

في صباح أحد الأيام كان أحد الشرقاطيين التابعين له في زاوية تلك الغرفة يتتبَّع الجدارَ قرب الزاوية، لقد كان مجصصاً بدقة - مما يجعل دائماً تتبع الجدار أسهل.

ثُبت حافة معوله المدببة الجدار فجأة، وانزلق داخلها حتى المقبض. حدَّق النظر وهو يسحبه بحزن في حفرة صغيرة مدوَّرة، أحيطت بما يشبه أنية فخاريَّة سميكة صفراء.

أراها لستون داخل سماكة الحائط مباشرة، فقام برفع الأنقاض عنها من الحفرة، وكشف الجانب من وعاء فخاريٍّ أصفر كبير بسماكة إنش على الأقل الذي كان الحفَّار قد أدخل معوله عبْرَه بإهمال.

كان شيئاً غريباً وجود قدر كبير وراء جدار مباشرة من الداخل؛ فأرسل غلاماً ليجد له هانز، ولحسن الحظ كنت أنا ويون متجهين معه إلى الموقع في تلك اللَّحظة. وسوية جثم هو وستون في الزاوية، وبخذر شديد أعاد رفع الأنقاض المُحرَّرة إلا أنَّه كان هناك تجويف كبير تحت الجدار؛ ولكنَّ الإناء الكبير كان متصدِّعاً بشدَّة، وبالتدرُّج فقد الدَّعم من الأرض المُحيطة به، فبدأت قطع كبيرة بالتكسُّر، وسقطت على الأرض، ومع سقوط الغبار، يتبع القطع المكسورة من الأنية الفخارية، لمع فجأة من الحفرة الرماديَّة المغمَّمة طاووسٌ أزرق وأخضر. جعل هانز رأسه وكتفيه أسفل الجدار المعلق ونظر نظرة طويلة.

قال متحمِّساً وصوته مكتوم: «يوجد هنا الكثير من الأواني المعدنية، أعتقد أنني أستطيع رؤية شفرة سكين بلون أخضر لامع - كلُّ شيء مؤكسد بكثافة».

قال يون فوراً: «أريد رؤية نصل السكين ذات اللون الأخضر اللامع». وساعده هانز بالنزول في أسفل الخندق المُعَبَّر. نَزَلَ على أطرافه الأربعة كلها، وكان من الممكن أن يختفي بشكل كامل في الحفرة أسفل الجدار لو لم يمسكه هانز بإحكام من مقعد سرواله الصغير.

قال هانز: «علينا إبعاد كامل الجدار من حولها ومن أعلى منها، آجرة إثر آجرة، إذ لا نستطيع أن نخاطر بسقوط الجدار عليها فجأة فهي مكسورة إلى قطع، ومن الممكن أن يكون كل شيء في الداخل هشاً، ولكن أريد أولاً صورة لها مثل هذه، قبل أن ننقل أي آنية أخرى من القدر».

وفي بقية اليوم، وطيلة فترة الصباح في اليوم التالي كان العمل التمهيدي مستمراً. بالصّور الوثائقية، وعندما أزيل الثقل الخطير للجدار المتدلي بشكل كامل، سيطرت ييتي على الوضع، وبدأت تفرغ المحتويات، كان الإناء قد عُبِيَ حتّى الامتلاء. أخذنا صناديقاً مَبْطُنَةً وألواحاً، وكما كانت الأشياء قد حُرِّرت عن جوانب الآنية فقد زلقناها أولاً على الألواح، ثم إن لم تكن هشة على نحو خطير، وضعناها باليد داخل الصناديق. كانت هناك مجموعات من أوانٍ وأطباق نحاس بيضاوية، جُمعت واحدة داخل الأخرى للتقليل من مكان التخزين؛ كل واحدة من تلك المجموعات كانت قد أصبحت ملتصقة معاً في كتلة واحدة، ولأن معدن الأطباق كان رقيقاً، فقد تساءلنا فيما إذا كان بالإمكان أن تُحرَّر بنجاح، لقد بدت أشبه بمهمة كبيرة أخرى ليسير.

قال هانز قبل أن تكون قد عُولِجَت بأيّة طريقة، إن الكثير منها كانت مُماثلة في الشكل مع أوان ذهبية وجدت في أور على يد وولي⁽¹⁾ Woolley في القبور الملكية، لذلك فهي معاصرة لها أو قريبة من المعاصرة تعود إلى السُلالة الأولى في أور. واستطعنا الرؤية عبر القشرة الخضراء المزرقة أن بعضها قد حُرِّزت بشكل جميل، بالطريقة ذاتها كتلك التي في أور.

(1) سير تشارلز ليونارد وولي (1880 - 1960) Sir Charles Leonard Woolley عالم آثار بريطاني اشتهر بتنقياته في أور، ويُعد من أوائل علماء الآثار المعاصرين بالمعنى العلمي لهذا اللقب.

في تلك الليلة قال هانز على العشاء، عندما كانت جميع الأشياء النحاسية من القدر قد أصبحت أخيراً في المنزل: «لن أقول أي شيء إلى أن تصبح نظيفة إلى أبعد حد. على الرغم من أنني كنت أعلم بماذا أفكر فقد أرسلت رسالة استغاثة إلى بيير وهو سوف سيأتي غداً، دعونا نحاول أن لا نعول على الثقوش بشكل بالغ جداً».

وصل بيير وبقي مدة أسبوع لا يخرج إلا نادراً من المخبر. انتزع الطاسات واحدة تلو الأخرى من أعشاشها؛ وواحدة تلو الأخرى فقدت سطحها الفيروزي الوامض وتحوّلت إلى نحاس بني هادئ. قال أخيراً إنه عمل كل ما يمكن أن يعمل، وكانت كل مجموعة قد صُفّت على طول رفوف غرفة الآثار القديمة. لقد كان من المستحيل تقريباً تصديق أن جميع تلك الطاسات كانت قد جُمعت في تلك الجرة وحدها، رغم أنها كانت ضخمة فلقد كان هناك ستون قدراً، وأربعة مصابيح مصنوعة على شكل أصداف مطابقة لتلك التي وُجدت في أور؛ وأربعة مصافٍ لها أيد طويلة وثقوب تُقبت على نحو مُتقن؛ وأربعة خناجر بطبقة فضية رقيقة كانت ذات مرة تغلف مقابضها ما زالت محفوظة، على الرغم من أن القبضات نفسها، التي ربّما كانت من الخشب، قد فُتّت. وكما كان هناك أنبوب طويل مثقّب في إحدى نهايتيه - لقية فريدة، رغم علمنا أنها استخدمت في الحال من مظهرها في منظر محدّد رُسم على الأختام الأسطوانية، حيث يظهر الرجال فيها جالسين على كل جانبي جرة خمر يشربون منها بواسطة أنابيب طويلة غُمست في السائل. لقد كان أول أنبوب للشرب (قشة) يُعثر عليه على الإطلاق.

كان هناك لقية أخرى رائعة، ففي حين فُقدت مقابض أنصال السكاكين النحاسية الأربعة، كان هناك مقبض معدني واحد موجود دون أية علامات للتصل، وقد كان مزخرفاً بالبرونز، وبمعنى آخر كان النحاس قد قسّي بإضافة نسبة ضئيلة من القصدير؛ واحتوى على شكل منقوش مخزّم دقيق وكتلة صغيرة من معدن يمكن رؤيتها داخل المقبض، تهتز بحريّة وحجمها أكبر من أن تنفصل عنه. وجد بيير شيئاً مهماً جداً وصدناً في الشق الطولي حيث بُتّ النصل بالسكين ذات مرة، ويعني ذلك أنه كان من

الحديد، وفُتِّرت حقيقة أنَّ التَّصل قد فُقد ولقد صدئ ببساطة خلال آلاف السنين في الجرّة وتحلّل، ثمّ انتزعَ بغير الكتلة المعدنيّة من المقبض، وحلّله قدر استطاعته بواسطة التّجهيزات المتوفّرة لديه؛ ووصلَ إلى نتيجة بسبب عدم وجود النيكل، فالحديدُ أرضيّ وليسَ نيزكياً.

كانت الأشياء المعدنيّة المصنوعة من الحديد النيزكي قد عُرفت قبل ذلك التاريخ؛ ولكن فيما لو كان بغير على حق فإنّها كانت أقدمَ نموذج وحتى تلك اللّحظة الأقدم لشيء شكّل من حديد أرضي - تماماً أقدم بكثير من 1500 سنة من تاريخ صنع السكين التي قُدمت هدية نادرة ونفيسة لتوت عنخ آمون Tutankhamun من قبل أمير حثّي.

لاحقاً في تلك السنة كانت قطعة الحديد تلك قد أرسلت إلى مختبر الفيزياء الوطني في تدينغتون Teddington، وكانت قد أكّدت مصدرها الأرضيّ بشكل مؤكّد.

في تلك الفترة كان بغير قد عرض على هانز شيئاً ما كان قد تاق لرؤيته.

وعندما أزيح غشاء الصدأ في كلا الوعاءين، ظهرت ألواح نقوش مربعة، وفي الألواح نقش لكتابة قديمة جداً. أخبروه أنَّ الأواني قد كرسَتْ «لبيت أبو Abu».

كان أبو إله النبات، واللقب يشيرُ أيضاً إلى تمّوز Tammuz ونيورتا Ninurta، إله النبات وقاتل الوحوش.

كان هانز متأكّداً الآن أنَّ طميرة النّحاس الضّخمة تضمّنّت أواني استُخدمت في مأدبة طقوسيّة، وتعودُ بشكل مؤكّد تماماً إلى المعبّد الصّغير، فبعدَ مهرجان كلّ أوّل يوم عام جديد، كان هناك عيد، تُقامُ المراسمُ فيه لضمان خصب المزارع للعام القادم، وتقام فيه دائماً وليمة طقسية.

شعر الآن بثقة أنَّ المعبدَ كان مكرّساً لعبادة إله النبات أبو Abu بكلّ تأكيد. وختم هرقل Herakels الذي وُجد هناك ارتبط مع إله الخصب الذي قتل الوحش. وأوحت المجوهرات التي وُجدت في القصر - برسمها المتكرر للأسد برأس نسر - أنَّ الحليّة الضّخمة كانت هي التي يلبسها الكاهنُ في خدمة نيورتا. وترجّح أنَّ القسم الجنوبيّ

الغربيّ للقصر كان يُستخدم لإيواء موظفي المعبد الرسميين.

كانت تلك الأواني الطقسيّة مقدسةً جداً ليتم جمعها معاً، وقد كُدّست باهتمام شديد في وعاء ضخم، وأُخفيت داخل سماكة الجدار مباشرةً الذي جُصص بعناية فائقة فيما بعد لمضاعفة التأكد من الإخفاء.

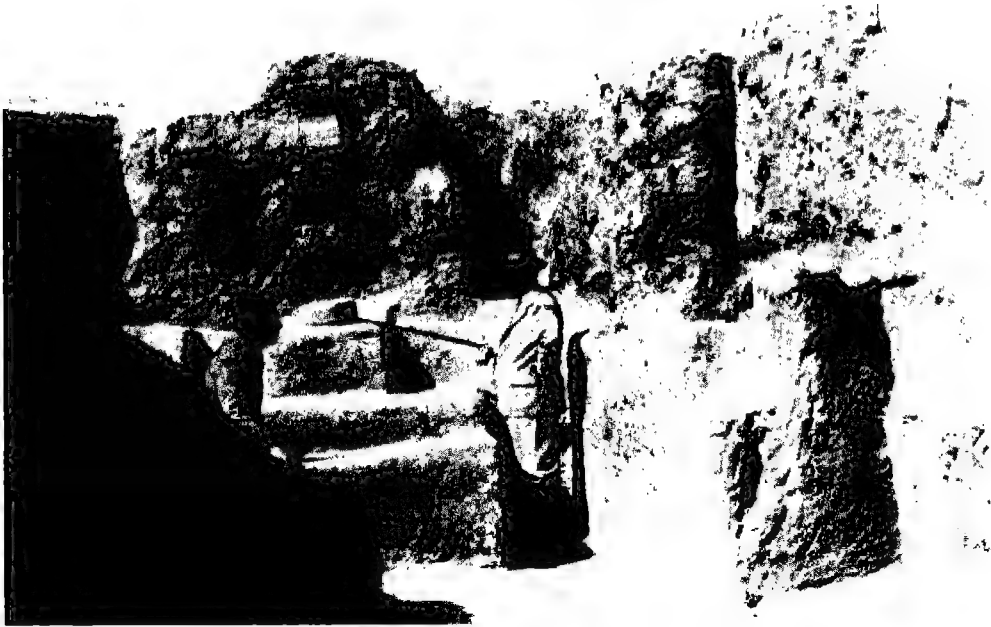
اعتقد هانز أنّه لم يكن يصعبُ الحصولُ على السبب وراء ذلك، ففي تلك النقطة بالذات من التاريخ وفي فترة الحياة المستقرّة لإشنونا، ربما تكون قد انتشرت في المدينة إشاعات مروّعة عن جيش ضخم من قبائل البدو البرابرة توحدوا معاً تحت زعامة شيخ قويّ باسم غريب، يتقدمون بإصرار نحو وادي النهر قادمين من الشمال، إشاعة لمدينة إثر مدينة في سهل شنعار تسقط تحت هجوم سرّعون ممّا خلق الخوف وتأسّس بقوة؛ إذ استطاع المرء رؤية الرسومات على الجدار، وعلى البوابات وهم يُحدّقون يوماً بعد يوم باتجاه السهل الأخضر الهادئ الذي امتدّ أسفلّ منهم بعيداً نحو النهر البعيد، يراقبون الغيمة المفزعة من الغبار في الأفق أو لمعان الشمس على الأقواس المُجمّعة وعلى الرّماح.

وبينما كان الحراسُ مُستمرّين في الحراسة، كانت تبدأ خلفهم في المدينة الاستعداداتُ الشديدة للحصار، حصار يُعلم سكان إشنونا أنّهم لن يستطيعوا مقاومته لمدة طويلة - بينما كان موظفو المعبد قد أفرغوا المكان المقدّس من كنوزه بسرعة، وحملوها بعيداً إلى مسكنهم ليختموها داخل جدار بأمل يائس وعقيم أنّهم سيظلّون أحياءً في تلك الأوقات الخطيرة، يرون اليوم عندما يتمّ إخراج الأطباق المُلمّعة لتزيّن مآدبتهم المُقدّسة مرةً أخرى. وفي حال كان ذلك حلمًا لا يتحقّق فعلى الأقل تبقى تلك الأواني محميّة لثلاث تمسها أيد شريرة. على الرغم من أنّهم لم يستطيعوا رؤيتها ثانية، ولكنهم حفظوها من التدنيس - كما كانوا يدّعون - إذ لم يمسه أحد منذ لحظة إخفائهم بحذر إلى أن قمنا نحن أنفسنا بإخراجها بلطف من الجدار، أعجوبة في عددها، وفي صنعها.





منظر باتجاه الجنوب فوق القصر الأكادي صوب معبد أبو
ويمكن مشاهدة برج دار البعثة الأثرية فوق خط السماء مباشرة



هانز في معبد أبو مع الدكتور برستد الذي يقف مباشرة
فوق طميرة التماثيل المدفونة

كان الوقت تقريباً الآن نهاية شهر فبراير، ومع أننا كنا سعداء فإننا لم نتوقع وصول جيش غاز، وكنا نرى بشكل يومي تقريباً عموداً من الغبار من الجنوب في الأفق، وفي الغالب أقرب.

قال هانز، وهو يراقبه مضطرباً: «لم نخطأ بمطر وافٍ هذا الشتاء». وكانت الشمس تتوهج كل يوم، وتهب ريح حانقة لبضع ساعات، ثم يعج السطح الرملي من الصحراء الجافة في الهواء، ويتشرب مع الريح، يعمي ويخفق. وبانهما جيد للمطر بين حين وآخر يتخلل الأرض على عمق عدة إنشات، يكون كافياً لإيقاف الرمال والغبار حتى ولو هبت الريح قوية لمدة من الزمن. ولكن لم يأت المطر أبداً، واشتدت الريح، وظهرت زوبعة صغيرة قرب الأرض، تهسهس وتهسهس كأرواح شريرة، بينما كان جدول أصفر متعرج يمتد في أديم الأرض الجافة الرمادية.

وصلت رسالة من القاهرة، من جيمس هنري برستد⁽¹⁾ James Henry Breasted، يقول فيها أنه أنهى زيارته لمصر وقرّر أن يستأجر طائرة ويذهب إلى العراق لبضعة أيام ليرى الموقع، وذلك قبل إبحاره إلى الولايات المتحدة؛ فعلاً وصل بعد بضعة أيام. انتشرت الأخبار بسرعة بين العمال بأن الأب لجميع المواقع قد جاء.

هذا الأب لجميع المواقع بسنواته السبعين ونيّفاً، أمضى ثلاثة أيام يستوعب نشاط كل تفصيل في عملنا، سواء كان ينتقل من نقطة إلى نقطة في الموقع، أو يدرس المخططات في مكتب الرسم، أو يمسك اللقى الموضوعة صفافاً فوق صف على طول الرفوف في غرفة الآثار القديمة يستوعب بعين الخبير اللماحة كل شيء عرض عليه.

تحت الحاجب الكثيف والشعر الفضّي الناعم المسرح، كانت عينان سوداوان

(1) جيمس هنري برستد (1865-1935) عالم آثار مختص بالمصريات ومؤرخ أميركي ذائع الصيت، من أصول إنكليزية وهولندية، قام بحفريات عديدة في مصر والعراق. كان صديقاً شخصياً لغرترود بل، وهاورد كارتر، واللورد كارنارفون، واللورد ألبيني، والملك فيصل، وجون د. روكفلر الابن. يعد بلا منازع مؤسس الأبحاث الأثرية الأميركية لدراسة مصر القديمة والشرق الأدنى القديم.

تنظران نظرةً ثابتةً بل بشكلٍ مرعبٍ مع تألّق ولطفٍ في بعض الأوقات؛ لأنّ لديه، على غرار كثيرٍ من الرّواد الصّارمين والعلماء الأجلّاء جانباً مبهجاً أخفّ ظلاً. جلس في ليلته الأخيرة معنا مستعيداً بصوت هادئ لطيف ذكريات الأيّام الأولى في مصر. لقد كان من الجيّد الجلوسُ حول النّار المُتقدّة في غرفة المَعيشة ومشاهدة رأسه النّاعم القديم والتفكير: «هذا هو برستد، الذي حقّق كلّ شيء تقريباً عن طريق رؤيته وإرادته - تلك السلسلة الواسعة من الحفريات انطلقت من مصر عبر فلسطين عبر سوريا والعراق باتجاه بلاد إيران». أنا سعيدة لأنني حظيتُ بتلك النظرة الخاطفة له.

أذكرُ قصّةً له عن موسم السّياحة في الأقصر، عندما كان مشغولاً كرجل شاب بنسخ نقش على قاعدة جدار لأحد المعابد، كان أدنى من مستوى الأرض، وكان قد حفر خندقاً عميقاً أيضاً ليكشف أكثر الشّطور الهيروغليفية انخفاضاً، فكانت الطّريقة الوحيدة التي استطاع القيام بها هي أن يتدلّى برأسه أسفل حافة الخندق حتّى لا يبقى منه غير حدائه ظاهراً في الأعلى.

سمع مجموعةً من السّياح تعبر، يقودها مرشد إنكليزي؛ وسأل صوت إنكليزيّ يشبه صوتَ عجوزٍ مهيب (وقدّم البروفسور برستد تقليداً منصف للنوع): «ماذا يمكن أن يكونَ هذا الرجلُ يفعل؟» سمعَ المرشدُ يشرح أنه كان عالمٌ آثار ينسخُ كتابات منقوشة. بقي برستد مختفياً باستثناء حداءيه المتحرّكين ثم وبعد توقفٍ طويل: «يا للطّريقة الجميلة لكسب معيشتك!».

وفي الصّباح، وكان صباحاً عاصفاً ومغبراً، قادَ سيارته بعيداً نحو المطار في بغداد؛ وبعد ساعة أو أكثر سمعنا أزيز طائرة؛ كان قد طلب إلى طياره أن يحلّق إلى الورا؛ ليستطيع إلقاء آخر نظرة على إشنونا القديمة من الجوّ قبل أن يغادر إلى القاهرة. كان أبو المواقع هناك في الجوّ الآن، أثار بعضاً من الدهشة في العمال، إذ لم يكن معظمهم قد شاهد طائرة في حياته قط، وبيطء دارت الطّائرة حول التلّ، بينما هو ينظر إلى الأسفل عبر السّديم نحو القصر العظيم، ومعبد أبو الصغير، وإلى مجموعة المنازل الخاصّة بشوارعها وأزقتها وإلى القصر الجنوبيّ العظيم ومعبد عُملسين Gimilsin.

استدارت الطائرة أخيراً واتَّجَهَتْ غرباً إلى القاهرة البعيدة، وأخفاها السديم ولبضع دقائق أطول نبَضَت المحركاتُ بضعفٍ فإذا به قد ذهب، لقد كانت نظرتُه الأخيرة للشرق الأوسط.

* * *

بدأ المطر يهطلُ تلك الليلة، وهطلَ بغزارة طوال النَّهار التالي في فترة ما بعد الظهر. قال جبرائيل إنَّه لن يكون قادراً الآن على تحريك شاحنة المياه الآن لعدَّة أيَّام؛ لذا يجدر بنا أن نكونَ حريصينَ جداً في استعمال المياه التي عندنا.

قال محدِّقاً عبر النَّافذة المُبلَّلة: «لا أعتقدُ أنَّه بإمكانني الوصول إلى بغداد الآن حتَّى في سيارَة خفيفة الوزن». وشاركَ الجميعُ لفترة قصيرة بالانتعاش في الهواء، وبمعرفة أنَّ الأرض باتت بحالة جيِّدة مشبَّعة بمياه الأمطار تماماً، والتَّصقَّ الغبارُ على الأرض ولكن لمدة قليلة فقط قابلتُ في المساء بيتي قادمةً من غرفة الغُلام. وبدت عيناها الجميلتان قلقتين جداً.

وقالت بسرعة: «إنَّه محموم جداً، اعتقدتُ طيلة النَّهار أنَّه لم يكن في حالته الطَّبِيعِيَّة، ثمَّ عندما كنْتُ أضعُه في السَّرير بدأ يبكي، وقال إنَّه متألِّم؛ لذا قست درجة حرارته: تقريباً 104 درجات فهرنهايت».

اختلجَ قلبي بشدة، فقد تغيَّر صوتُ إيقاع المطر خلالَ ثانية من رسالة مبهجة من الانتعاش إلى شيء مشؤوم جداً. كنَّا قد عُزلنا تماماً عن بغداد، كما قال جبرائيل، إنَّ هطولَ الأمطار الآن بشكل مستمر يجعل قيادة السيَّارة أمراً صعباً عبر أيِّ من الطريقين. هناك أطباء جيدون في بغداد، ولكن من المحتمل أيضاً ألا يوجد أحد منهم ليقدموا لنا المساعدة التي نحتاجها الآن.

هطلت الأمطارُ طوالَ الليل، وفي الصَّبَّاح لم يكن يون بحال أفضل، وقالت بيتي بأنَّها اعتقدتُ أنَّه من الممكن أن يكونَ لديه زُحار، كتبتُ رسالةً إلى طبيب إنكليزي في المشفى شارحةً له جميع الأعراض، وكانت تسأله بإلحاح عن نصيحة؛ وطلب إلى

أحد الحرّاس أن يمتطي الفرس هَلَي Hillai ليذهب إلى بغداد ويعود في اليوم ذاته دون إخفاق. لقد كان أفضل جزء من مئات الأميال، وأغلب الطريق كان عبر صحراء فائضة ومليئة بالمستنقعات.

شاهدناه وهو ينطلق خلال الأمطار المُنسكبة تحت السّماء المُظلمة، ملتفّاً في عباءته البنية. شقّت هَلَي طريقها في الماء مُحدثة رشاشاً في الطين باتجاه الطريق، واختفت الآن بشكل كامل تحت المطر. بدت كخيوط ضعيف يوصلنا إلى المساعدة التي كنّا بحاجة إليها على نحو مُلح، وأيضاً كانت مواساة غريبة أيضاً أن نشعر أنّ ثمة خطة ما قيد التنفيذ مهما كانت ضعيفة.

انقضى اليوم السيء ببطء؛ وبدأ كلُّ شخص يتجنب الآخر بقبول متبادل، واختفوا في أماكن عملهم المختلفة. بالطبع لم يكن هناك مجال لأيّ حفر. بالنسبة لي أنجزت مقداراً كبيراً من العمل في البداية، إلى أن جلستُ قرب يون لبرهة، بينما استراحت بيتي، ثم عدتُ إلى المكتب ولم أستطع العمل أبداً، فقد كنت مريضةً بعارض الخوف.

مع حلول الظلام لم يكن هناك وجود لأيّ إشارة للحارس، وأدركنا ببؤس أنه ما لم يكن أصبح قريباً بما يكفي ليرى الضوء على البرج، فمن المحتمل أنه لن يستطيع العثور على طريق العودة، حيث لا قمر ولا نجوم لتساعده. بعد العشاء توسلت بيتي إلى راحيل وإلي بعد العشاء للقدوم والتّحدث في غرفتهم. جلسنا جميعاً هناك نهمسّ معاً حول الطّريقة التي يُشفى بها الأطفالُ بسرعة كبيرة من الحرارة المرتفعة ومن الألم في بطونهم، وفعلنا ما بوسعنا لتصديقها كلّها، بينما همهم صوت يون من الغرفة المجاورة بتعاسة دون انقطاع، ودخلنا على رؤوس أصابعنا دخولاً وخروجاً من غرفته لعمل ما بوسعنا له. قال هانز في تلك اللحظة: «لقد توقف المطر». سحبنا الستائر، ونظرنا إلى الخارج، لقد توقف المطر حقيقةً، ولكن انتشرت طبقة من المياه دون انقطاع بعيداً عن المنزل، يمكن رؤيتها فقط تحت الغيوم المنخفضة.

أعطى التوسّع المروّع للسماء الممطرة طريقاً لغيوم سوداء متدرجة ومنخفضة جداً، تتحركُ ببطء شمالاً، وسطعَ للحظة هنا وهناك نجم باهت ثم ما لبث أن تلاشى.

كَانَ الْوَقْتُ مُتَأَخِّرًا جَدًّا عِنْدَمَا سَمِعْتُ نَفْرَةً لَطِيفَةً عَلَى الْبَابِ الْخَارِجِيِّ . فَتَحَهُ هَانِزٌ ، وَهَنَّاكَ كَانَ جِبْرَائِيلُ ، وَجْهُهُ مُسْتَدِيرٌ شَاحِبٌ وَغَيْرُ مُحَلَّقٍ ، وَعَيُونُهُ دَامِعَةٌ ، فَهُوَ يَحِبُّ يُون حَبًّا شَدِيدًا .

قَالَ بِهَمْسَةٍ مَبْحُوحَةٍ : « كُنْتُ أَرَاقُبُ عَلَى الْبَرَجِ ، أَعْتَقَدُ أَنِّي رَأَيْتُ مُحَمَّدًا » .

رَكَضْنَا عَبْرَ الْبَابِ ، وَصَعَدْنَا الدَّرَجَاتِ الَّتِي تَقُودُ إِلَى السَّطْحِ الْمُسْتَوِيِّ لِعَرَفَةِ الْمَعِيشَةِ ، وَحَدَقْنَا عَبْرَ الْأَرْضِ الْمُتَحَوِّلَةِ بِاتِّجَاهِ الطَّرِيقِ الْمَغْمُورِ بِالْمِيَاهِ ، وَقَدْ انْقَشَعَتْ الْغُيُومُ السَّوْدَاءُ ، وَبَعْدَ لَحْظَةٍ سَطَعَ الْعَالَمُ كُلُّهُ بِلَوْنٍ فَضِيٍّ ، وَظَهَرَ مُحِيطٌ مَتَمَاجٍ فِيهِ مَوَاجَاتُ سُودَاءٍ طَوِيلَةٍ وَفِيهِ جُزُرٌ .

أَشَارَ جِبْرَائِيلُ : « هُنَاكَ » . قَالَ فَجْأَةً : « إِنَّهُ مُقَابِلُ السَّمَاءِ الْآنَ » . لَمْ نَسْتَطِعْ فِي الْبَدَايَةِ رُؤْيَا شَيْءٍ . ثُمَّ - نَعَمْ - شَيْءٌ مَا يَشْبَهُ خُرْزَةً صَغِيرَةً يَنْسَابُ عَلَى طُولِ الْأَفْقِ عَلَى وَاحِدَةٍ مِنْ أَقْرَبِ الْجُزُرِ - كَانَ رَأْسُ مُحَمَّدٍ ، لَقَدْ كَانَ قَرِيبًا إِلَى حَدِّ مَا الْآنَ . كَانَتِ الْغُيُومُ تَحُومُ حَوْلَ وَجْهِ الْقَمَرِ ، وَغَرَقَ الْعَالَمُ كُلُّهُ مُجَدِّدًا فِي ظِلَامٍ كُلِّيٍّ . وَلَكِنْ بَعْدَ دَقِيقَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ اسْتَطَعْنَا سَمَاعَ صَوْتِ رَشَاشٍ ضَعِيفٍ ، ثُمَّ سَطَعَ الْقَمَرُ مَرَّةً أُخْرَى ، كَانَ مُحَمَّدٌ يَتَقَدَّمُ بِبَطْءٍ شَدِيدٍ لِمَسَافَةٍ جَيِّدَةٍ ، وَهَاهُنَا ذِي هَلْيٍ تَحْرُكُ رَأْسَهَا الْمُتَدَلِّي بِاتِّجَاهِنَا ، وَهُوَ مُلْتَفٌّ حَوْلَ رَقَبَتِهَا .

نَزَلْنَا إِلَى الدَّرَجَاتِ الْأَمَامِيَّةِ صَامِتَيْنِ ، وَانْتَظَرْنَا إِلَى أَنْ انْزَلَقَ إِلَى الْأَرْضِ ، بِطَيِّئًا وَمُتَصَلِّبًا ، سَلَّمَ بِسَامٍ ، وَلَكِنَّهُ ابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً خَفِيفَةً وَهُوَ يَسْحَبُ حَقِيْبَةً مِنْ كَتِفِهِ وَسَلَّمَهَا لِيَيْتِي . كَانَ فِيهَا زَجَاجَةٌ كَبِيرَةٌ مِنْ دَوَاءٍ وَبَعْضُ الْحُبُوبِ وَرِسَالَةٍ . جَاءَ سَائِسٌ مُحَدِّثًا رَشَاشًا حَوْلَ زَاوِيَةِ الْمَنْزِلِ لِيَأْخُذَ هَلْيَ إِلَى الْإِصْطِبِلِ ، وَوَعَدْنَا بِأَنَّهَا سَتَحْظِي بِتَدْلِيكِ جَيِّدٍ جَدًّا ، وَعَلَفَ مِنْ أَكْبَرِ مَا عُלِفَتْ بِهِ بِحَيَاتِهَا . كَانَ جِبْرَائِيلُ قَدْ أَخْبَرَ لِيَتَأَكَّدَ مِنْ أَنَّ مُحَمَّدًا نَالَ وَجِبَةً سَاخِنَةً ؛ وَنَزَلُوا مَعًا أَسْفَلَ الْبَرَجِ ، تَرَنَّنَ مُحَمَّدٌ ، وَذَرَاغُ جِبْرَائِيلِ حَوْلَ عُنُقِهِ .

قَالَتْ يَيْتِي وَهِيَ تَتَلَقَّفُ الرِّسَالَةَ : « يَقُولُ إِنَّهُ سَيَأْتِي إِلَى هُنَا عِنْدَمَا يَتِمَكَّنُ ، مِنْ الْأَفْضَلِ

إعطاء الصبي القليل من الدواء الآن». كان وجهها متعباً جداً، وأخذها هانز من مرفقها؛ وذهبا بعيداً، وذهبا مباشرة إلى غرفة يون.

في اليوم التالي كان الولد قد تحسّن قليلاً، وسطعت شمس حارّة على العالم المتبحر، وتسرب الكثير من المياه بعيداً في الأرض المتقبلة. في اليوم التالي قال جبرائيل إنّه يعتقّد أنّ من الممكن أن يحصل على سيارة إلى بغداد، وبدأ رحلته مبكراً جداً، وسيارته تنزلق وترشش. وصل بنجاح عائداً في وقت الغروب تقريباً، ومعه الطبيب الذي قال إنّه لم يسافر في حياته أبداً عدّة أميال كهذه في طريق جانبي من قبل. بقي الليلة وقال إنّ يون كان بالفعل لديه قليل من زُحار، ولكنه كان يتحسّن بشكل جيد. قال وهو يغادر: «إذا كان بالإمكان عندما يصبح مستعداً للسفر، أخرجوه حالاً من هنا قبل أن تبدأ عاصفة ترابيّة حقيقية، أو قبل أن يكون هناك أمطار أخرى».

ولم يهطل مطر كغزارة المطر السابق هذا الشتاء.

قال هانز: «أعلم، إنّها المطرّة الغزيرة الأولى هنا - وقد كانت الأرض قد جفّت تقريباً مرّة أخرى في بعض الأماكن». ولاحقاً بعد أيام ليست كثيرة - بضعة أسابيع فقط قبل النهاية الطبيعيّة للفصل.

انطلق يتي ويون معاً برفقة جبرائيل إلى المطار، حيث سيبدأ رحلته (جوية) طويلة إلى لندن.

رئب جبرائيل الحقائق، ولقها ببطانيات، وظلّ يبكي طوال الوقت؛ لأنّ يون كان مريضاً جداً، ولأنّه الآن كان قد شفي، ولأنّ كليهما كانا ذاهبين، ولأنّهم خلفوا وراءهم هانز، ولأنّ.. حسن، لقد كان البكاء ممتعاً على أيّ حال.

جلس يون بهدوء على ركبتَي يتي، ليس الهدوء في مثل نفسه المرحّة، ولكنّه كان مستعيداً صحته بشكل ممتاز، ومبتسماً، وعادّ خوذته⁽¹⁾ إلى مؤخرة رأسه، وكان يرتدي معطف السفر الأنيق الخاصّ بالبالغين.

(1) قلنسوة: لباس رقيق للرأس. (لسان العرب 11، ص 279).

انطلقت السيارة، ووقفنا جميعاً على الدرجات ملوحين إلى أن اختفت وراء رابية قريبة. راقبنا لبضع دقائق أطول، إلى أن ظهرت السيارة من جديد على أرض أعلى على بُعد أكبر؛ وتراجع صندوق أسود صغير لدقيقة في الأفق. ثم اختفت عن الرؤية إلى الأبد. لقد كانت لحظة سيئة، لحظة بغیضة بالنسبة لهانز.

قالت ريغموور: «انظروا إلى بطة القصة». نظرنا إلى حيث كانت تنظر. عبر باب الإصطبل المفتوح، مثل رأس حصان هزاز، هزيل وطويل، بعين محدقة ونظرة رضا. خفّ توترنا في الضحك، وقال هانز لستون: «أنا ذاهب في الحال إلى معبد أبو، ولكن قبل ذلك هل بإمكان أحد ما أن يجد لي بعض قطع من السكر؟».



الفصل السابع

أحضر جبرائيل في إحدى الأمسيات برقية من غوردون - برقية تحذير نموذجية. بدت كأنها مُشفرة؛ لأنها لم تحتو على شيء سوى إشارة إلى مجلد توضيحي كبير، والذي توجد نسخة منه في خزانة المكتبة، أتبعته بعبارة: «انظر صفحة 152». لقد كانت كلها مثيرة جداً. جُلِبَ الكتابُ، ووقفنا متحلقين بينما قلب هانز صفحاته بسرعة إلى أن وصلَ إلى الصفحة 152. حدثٌ مثير، لقد احتوت على صورة صغيرة لدبابيس من البرونز غير واضحة أبداً. فإما أن يكون غوردون شديد الذكاء والخبث بالنسبة لنا، أو أن يكون هناك خطأ ما. وفي اليوم التالي أرسل هانز برقية تقول: «اللَّعْنَةُ على صفحة 152، ماذا تعني؟»؛ بينما تسلى البقية بالسخرية من اكتشاف غوردون المذهل. وأخيراً وصلتنا برقية أخرى: «عفواً لا بدَّ أنَّ مكتَبَ البريد قد أخطأ جرَّب صفحة 251».

جرَّبنا صفحة 251 - وتوقَّفتنا عن السخرية، لقد كانت هذه المرة صفحة توضيحية بشكل كامل؛ وتُظهر ثوراً مجنحاً رائعاً منحوتاً بنقوش عميقة، وُجد قبل سنوات عدَّة في خُرساباد، في قصر سَرغون الثاني Sargon II، وهو واحد من اثنين، كلُّ واحد بعلو ستة عشر قدماً، ويزن حوالي أربعين طناً، وقد أحاط بالمدخل لقاعة عرشه. كان من الجليَّ أنَّ غوردون لا بدَّ أنه قد اكتشف مدخلاً جديداً في القصر مزيناً بتمائيل للحيوانات الضخمة نفسها. لقد كان هذا بالفعل اكتشافاً مذهلاً، وقد احتفظ به سرّاً بحكمةٍ قدر استطاعته حتى اللحظة. وصلت بعد بضعة أيام دفعة من صور، تُظهر المراحل الأولى للاكتشاف، كان القسم الأعلى للرأس البشري الهائل للثور معمَّماً بجداول شعر متجعدة ولحية، وكان فقط على بعد بضعة أقدام تحت مستوى الأرض الحديثة.

بعيداً جداً، كان غوردون قد كشفَ الأرضَ التي كانت تخفيه لبضعة أقدام أسفل ذلك لكي يظهرَ رأسُ ذلك الوحش وحده خارجاً من الأرض مبتسماً بكرم، كما لو أنه كان سعيداً؛ لأنه تحرّر ولو بهذه الطريقة من أسره تحت الأرض. لقد بدا غريباً جداً ورائعاً، ولاحظتُ في بعض الصور أنه كان قد نما هناك عشب حقيقيّ على طول مستوى الأرض، وهل من الممكن أن يكونَ حقيقياً؟ أزهار بين العشب. لم تكن خرساباد تبعدُ أكثرَ من 200 ميلاً إلى الشمال منا - و قريباً سنكون هناك.

ولكن ما يزال أمامنا ثلاثة أسابيع قبل أن نغادرَ تل أسمر، وفي الصّباح التّالي نسيّتُ ما كان بخصوص الأزهار عندما عبرت الفناء وقتَ الإفطار. كانت الريحُ في الليل تعصفُ بشدة، وصمدت الشجرةُ الصغيرةُ خارجَ نافذتي إلى الفناء محدثةً حفيفاً متواصلاً مشوشاً، كانت السماءُ صافيةً، والشمسُ متوهّجةً، ولكن عبر الفناء تماماً فوق الغرف التي شكّلت جانبه الجنوبيّ ارتفعَ هناك ضبابٌ أصفرٌ طويلٌ بمشهد لم أر مثله من قبل أبداً. قبل الذهاب إلى غرفة الطعام ذهبْتُ بدايةً وراءَ المنزل متشوقةً لرؤية جمال الأشياء في الخارج - وأمعنتُ النظرَ فرعةً.

كانت الأرضُ برمتها قد اختفتُ بستارة صفراء؛ واستطعتُ وأنا أراقبها رؤيةَ أنَّ التخّم⁽¹⁾ العلويّ للسديم كان يرتفعُ كلَّ لحظة أعلى في السّماء الزرقاء، ممتداً رقيقاً يتلمسُ طريقه على شكل أصابع باتجاه الشمس.

ذهبْتُ متوجسةً إلى غرفة الطعام، التي لم تكنُ تحوي نوافذَ خارجيّةً، وشعرتُ في الحال بالتوتر الكئيب بين الآخرين. ولدى إفطارنا مرَّ ظلٌ فوق الغرفة؛ وعندما نظرنا عبرَ النوافذ إلى الفناء رأينا الضوء السّاطع وقد بهت، وأنَّ الغرفَ المقابلة الآن وقفت في ضوء مروع لكسوف.

علّقتُ راحيل مواسيةً: «في الغالب تجلبُ تلك العاصفةُ دائماً غيوماً ممطرةً في النهاية»، وذهبْتُ إلى غرفة الآثار القديمة. ذهبْتُ إلى المكتب، وبعد مراقبة السّماء

(1) التّخّم: منتهى كل قرية أو أرض. (لسان العرب 2، ص 21).

الجنوبيّة لبضع دقائق وهي تظلم وتتحولُ من أصفَر إلى كهرمان قاتم، أشعلتُ الضوء وأدرتُ ظهري للمشهد الكثيب، كان من الصعب العمل. كانت هناك جلبة رتيبة قوية، ضربت الريحُ المتصاعدة بغضب في كلّ زاوية وسطح وقف في ممرّها العملاق، وراحت تزمجر أحياناً بسخرية عند دخولها الممرّ الضيق خارج باب المكتب، ذهبْتُ مندفعاً جانباً إلى الفناء الأبعد، وعند مرورها به قذفت بقوة الرّمال المحمولة على الباب والنوافذ بقوة متزايدة، حيث تدفق من تحت الباب، وتسربَ شيئاً فشيئاً حتى من تحت الأطر المعدنيّة للشبائيك المغلقة بإحكام؛ وامتلات الغرفة تدريجياً وأظلمت، وحتى بعد أن مسحْتُ الغبارَ عن المصباح المتوهّج على المكتب اخترقت ومضاته بصعوبة الضباب الخانق. نظرتُ إلى الخلف فكانت السّماءُ بنيةً قاتمةً بشعة الآن، واستطعتُ بصعوبة تمييزَ الغرفِ عبرَ الفناء.

بدأتُ أشعرُ بالخوف، اعتقدتُ أنه يمكنني أن آخذَ بعضَ العمل وأذهبَ إلى غرفة الآثار القديمة، محدثةً نفسي أنني يمكن أن أكونَ بحماية أكثرَ هناك - فهي ذاتُ باب مزدوج، هذا شيء؛ ولعلمي حقاً، بأن ما كنتُ أريده كان الصّحبة. ولحظة أن أدّرت مقبض الباب انفجرَ الباب مفتوحاً قبالي، وتدفق هدير⁽¹⁾ رهيب لغيمة من غبار لاذع عليّ وإلى داخلِ الغرفة. نجحتُ بالخروج وإغلاق الباب، ثمّ كان عصف يدور داخلَ الفناء التالي، لقد كانت غرفة الآثار القديمة أهدأ كثيراً، ولكنها مظلمة جداً. كانت راحيل هناك تعملُ وهي تبدو محمومةً ومتعبة. بعد برهة بدأتُ أتساءلُ إنَّ كانت متوترةً، أو أنها كانت بالفعل تنالُ مشقةً بالتنفس الطبيعي.

قالت راحيل ببطء: «لا أعتقد أننا مررنا بمثل هذه الحالة السيئة من قبل. كانت تسبب لي في بعض الأحيان بعضَ الحمى. ربما نحاول ربطَ مناديلَ حولَ أفواهنا». قمنا بذلك، وجلسنا جنباً إلى جنب برهة، كُنا ننظر إلى الأعلى نحو النافذة من وقت لآخر ونحن نعمل، وعند منتصف فترة الصباح لم يكن هناك سماء ولا بيت ولا أرض بل ظلام تام. عواء عاصف يضغط على النافذة بثبات.

(1) هدير: هدر: صَوْت. (القاموس المحيط، ص 639).

فَكثُرْتُ بالمنزل الذي كُنَّا نراه في بعض الأحيان على بضعة أميال بعيداً عندما كُنَّا نمتطي الجياد، بدا كلعبة بنية صغيرة مقابل الغيوم الهائلة. ضاعَت الآن تلك البقعة التي في كانت في الصحراء في سواد هائج وقعَ عليها بثقله من ارتفاع عدد لا يعلم أحد أمياله إلى الأعلى، يضغطُ إلى الأسفل داخلَ رثائنا مع كلِّ نفس سطحي نأخذه، توقفتُنا عن العمل، وبعد برهة فُتِحَ الباب الخارجي بعنف وُصْفَقَ ليغلق، ودخل هانز عبرَ الباب الداخلي، وقد ربط وشاحاً رطباً حول أنفه وفمه وقد انزلق الآن إلى أسفل ذقنه.

قال بقسوة وهو يسعلُ قليلاً: «هذا قبيح. إنَّ محاولة العمل الآن غيرُ مجدية. أخبرْتُ الطاهي أن يجلبَ لنا بعضَ أنواع الوجبات في الحال، ويضعها في غرفة المستودع - إنَّه المكانُ الأكثرَ وقايةً - وبعد هذا سيكونُ من الأفضل لنا جميعاً الذهابُ إلى أرضِ غرفنا. علينا في العام المقبل إما أن نوقفَ الحفرَ في وقت أبكر، أو أن نحضِرَ أقنعةَ غاز، لا أحبُّ هذا أبداً».

تبعناه نحو الخارج رابطينَ مناديلنا على معظم وجوهنا، وقاومنا للوصول إلى الباب الخلفي للمطبخ، وتفتَحُ غرفةُ المخزن خارجةً منه، كان الطاهي المسنُّ والخادمُ الكرديُّ عبد الله قد سدا نافذةَ المطبخ بقماش مبلى، وحصلا بطريقة ما على طاولة وكراسي في المخزن الصغير. دخلَ البقية، واحداً تلو الآخر، أشبه بمقاتلين منكهين في حومة الوغى، وعيونهم دامعة فوق مناديل مغبرة. لم يتحدَّث أحد كثيراً؛ ولا استطاع أحد أن يأكل الكثير. ولكن كان هناك ابتهاج لوجودنا معاً، نتمتُّ مع بعضنا في الظلام، وقد أقحمنا بين رفوف مملوءة بعلب فواكه ومربى ونقانق وجزر وزجاجات من قشدة السَّلطة وعصير طماطم ومخلل؛ واشتبكت أقدامنا بسلال ضخمة منسوجة مملوءة بالبيض، وجد هانز عدة زجاجات من الخمر تُركت منذ ليلة عيد الميلاد على رف خلفه، وأمرنا بالإتيان عليها، قائلاً بأنها تبدو لحظة مناسبة. استمرت العاصفة السوداء بالهيجان في الخارج، وجلسنا هناك نزيلُ الغبار، ونؤجلُ الرحلة المروعة في العراء للعودة إلى غرفنا.

عندما انتهت الحفلة أخيراً التجأت إلى غرفتي، جزء مني يختنق وثلاثة أجزاء مخمورة. وكانت قدماي تسحنان الرَّمْل الذي اندفع إلى الداخل من تحت الباب طوال النهار. انسللت تحت الأغطية العلوية على السرير، وسحبته فوق رأسي، وحاولت ألا أهلع. شعرت بألم في صدري، وتسارعت ضربات قلبي، كان هناك سلوان واحد فقط؛ رأيت لوهلة رؤيا صغيرة مشرقة ليون Jon يلعب في مكان ما في الهواء النظيف النقي في هامستد هيث Hampstead Heath. ثم وبرحمة دخلت في ذهول كحولي محموم وبقيتُ بنصف وعي بقية النهار.

كان هناك أحد ما ينقر على باب غرفتي أو أنها كانت النافذة؟ نهضتُ ببطء، أضأتُ المصباح، وقلتُ بصوت أجش: «ادخل». لم يحدث شيء؛ ولكن استمرَّ النقر بشكل أسرع وصوت أعلى. رفعت كمي ورأيتُ أنَّ الساعة كانت تجاوزت العاشرة. غريب. ثم نظرت حولي عبر النافذة الخلفية التي تواجه الصحراء. كان هناك آثار سوداء رطبة تتبع بعضها إلى أسفل الزجاج.

كنتُ خلال لحظة عند الباب، ودفعته على مداه؛ بابتهاج تام وثبتتُ عبر الطريق الجاف المغطى إلى الفناء المفتوح، كانت تهطلُ بغزارة. لكنها تمطر طيناً، كان المطر قد بدأ للتو، وبسقوطه عبر الغطاء السميك فقد كان يحملُ معه الرمل، تراجعتُ إلى مدخل باب غرفتي، مرششةً بالطين، وراقبتُ وأنا أتنفس في الهواء الذي أصبح نقياً بسرعة. بدأتُ بقع صفراء عديمة الشكل تلوح عبر السديم والمطر؛ هي النوافذ المضاءة عبر الفناء، فكانت البرهان الوحيد لوجود تلك الغرف المخفية هناك، ثم فجأة تماماً كأنَّ أحدهم قد ضبط بنجاح صورة واضحة عبر منظار الميدان، طاف الفناء كله في مشهد ثابت وواضح، وعادت مرة أخرى النوافذ مستطيلة متألقة، وعادت ظلال دعامات الطريق المغطى قبالتها سوداء منخفضة. وبدأت الأبواب تفتحُ، وتألقت أضواء أكثر، حين ظهر الآخرون أيضاً ليستنشقوا أوَّل مقدار مبارك من الهواء النقي.

هدأ الغبار، ولكنه استمرَّ بالانصباب، فتحتُ النافذتين كليهما لتنقية هواء الغرفة؛ ثم ذهبتُ إلى السرير غير مكترثة بالفوضى من حولي، مهملة بشرة جافة صلبة وحنجرة

متألّمة؛ كلُّ ما عرفته هو أنّ الرّعب انتهى، وأنّ صوتَ المطر كان أجملَ موسيقى سمعتها في حياتي.

في اليوم التالي تحوّلنا بذاتنا إلى مشرّوع تنقيب، حيث حفر العمالُ لنا بمجارفهم، وهرولاً أولادُ السّلة بعيداً مع أطنان من الرمل الرطب، كثيباً ضخماً بما يقاربُ ارتفاعَ الغرفة كان قد شكّل على طول الجدار الجنوبيّ لساحة المنزل الخارجيّة حيث كانت الرمال تضربُ قبالتها، ثمّ ترتدّ إليه، وكانت الأُفنيّة قد مُلئت برمال متراكمة. بالتدريج وجد لنا العمالُ سطحَ أرضنا، تماماً كما لو كنا سومريين قدماء. وكان على جميع الغرف أن تتفرّغ من الأثاث بالكامل؛ أُخرجت جميعُ الأدرّاج خارجاً وهُزّت. أخرج عبد الله كلّ ثيابه، ووضعها على غطاء السرير على الأرض، مشيراً بتواضع أنه سحب خزانة الأدرّاج خارجاً إلى الفناء وأن مهمّة هزّها في الخارج كانت عليه.

استغرق ذلك يومين ليستعيد البيتُ خطوطه المنظّمة النظيفّة؛ ومن بعد ذلك عاد العمالُ إلى منطقتهم، حيث كانت لا تزالُ الأمطارُ تنهمرُ، كيف استطاعوا اتقاء تلك العاصفة، متكديسين في ملاجئهم، كان شيئاً يصعبُ فهمه. وبغض النظر عن أنّ الكثير منهم يعرضون أنفسهم عند خزانة الأدوية بعيون متفرّحة وسعال، فإنه لم يبدُ عليهم غير ذلك.





الصباح التالي للعاصفة الرملية

عندما توقف المطر، بدأ ستون وجايك وهال بترميم الضرر في الموقع، وكان من الواجب عليهم إعادة تفرغ كثير من الحفر ثانية. أثناء ذلك امتدت الصحراء ساكنة تحت سماء ربيعية صافية، ولبثت الأرض قاتمة ورطبة، مع برك قدرة في جميع التجاويف. استمرت البرك بالتضاؤل تدريجياً يوماً بعد يوم مما يعني أنه على الرغم من أن الهطل الأول كان قد غار بعيداً وبسرعة كبيرة فإن السطح قد جفّ سريعاً جداً، والأرض المغطاة بقيت رطبة، والآن تحفظ المطر المنهمر على سطح الأرض عندما كانت منطقة المنزل في الموقع قد نُظفَتْ، قرّر هانز أن يوقف الحفر هنا هذه السنة، لذا سيتسنى لهال أن يحظى بوقت كي يواكب المسح الذي قام به؛ عاد جايك إلى المنزل بسعادة كي يركّز جهوده على الألواح وطبقات الأختام التي وجدت خلال الموسم.

أصبح ستون الآن بعيداً في الأسفل في بناء أقدم من معبد أبو، الذي صنّفه هانز في الجزء الأوسط من حقبة السلالة الحاكمة الباكرا، محتكماً إلى نمط الأختام الأسطوانية التي وُجدت فيه، كان المعبد طويلاً وضيقاً، مع مذبح يغطي تقريباً الجدار الغربي. قبل المذبح كان هناك صفّ من ركائز من آجر طيني منخفض، التي كانت مناصد لحمل القرايين، وكانت هناك منابر (منصات) صغيرة مرتفعة مقابل الجدار الجنوبي.

قال هانز: «يفترض أنها من أجل التماثيل، فقد كانت عادة العبّاد أن يضعوا جميع تماثيلهم في معبد، وكأنهم يريدون أن يبقوا أنفسهم في حضرة الإله باستمرار، ولكن في هذا المستوى لم تكن هناك أية إشارة لكسرة تماثيل».

سأل ستون إن كان مستعداً للتصوير الأخير؛ لأنه لم يكن ينوي أن يمضي إلى أية نقطة أعمق بالحفر في هذا الفصل أيضاً.

أجاب ستون: «تقريباً، وصلنا فقط إلى مستوى الأرض فقط عند المذبح. بإمكانهم البدء بالتنظيف الآن».

فطلب إلى العمال أن يبدأوا بتنظيف الأرض بكاملها، وأخذ واحد منهم فرشاة كبيرة، وبدأ في المشكاة الضيقة في الجهة اليمنى بين المذبح والجدار الشمالي. راقبه ستون

لدقيقة؛ ثمَّ توقَّفَ ليلتقطَ رقاقةً من الرمل النَّاعم الذي خرج من الزَّاوية، كانت الرقاقةُ مثلثةَ الشكل، ملساءَ ماعدا قاعدتها، فحصها لدقيقة. إِنَّ أيَّ شخص ما عدا عالمَ آثار جيد كان ليقدِّفُ الشيءَ الصغيرَ بعيداً دون أيِّ تفكيرٍ - ولكنَّ الذي حدث أنَّ ستون كان عالمَ آثار في الحقل جيداً جداً. وضعها بحذر في علبة كبريت، ووضع العلبةَ في جيبه.

وصلتُ ريثمور وأمضتُ ما تبقى من فترة بعد الظهر، وهي تأخذُ صوراً للمعبد الصَّغير النظيف، كنتُ في الصباح التالي أطبعُ في المكتب، سمعتُ صوتَ أقدام سريعة تعدو بمحاذاة الباب، وشاهدتُ بعدها غلاماً من الموقع، هو حُسين الصَّغير، كان يهرولُ عبرَ الفناء إلى باب مكتب هانز. بعد لحظة، ظهر هانز وأتى مسرعاً إلى المكتب.

«أعطِ هذا الغلامَ جميعَ الأدوات ليُخرج جميعَ الأشياء الهشة، ممكن؟ وبعدها تعالي أنت بنفسك. فلدى ستون بعضُ التماثيل!».

اختفى؛ وأخذت حُسين الصَّغير إلى الغرفة القديمة وحملتُه صندوقاً كبيراً مملوءاً بسكاكين وفراشٍ وقطن طبيّ وصناديق صغيرة ثم هرولاً خارجاً. رفعت راحيل نظرَها متسائلةً.

قلت: «تماثيل في المعبد؟».

صاحت وقد ألقت قلمها الرصاص: «أوه، رائع!». اندفعت إلى الخارج «سأتبعك فوراً».

كان ستون وهانز وحدهما في معبد أبو عندما وصلتُ إليه. كانا جاثمين مقابل المشكاة جانب المذبح، وكومة جديدة من الرُّكام حولهما على الأرض النظيفة.

كانت المشكاة ضيقة جداً إذ أنها سُدَّت تماماً بهما.

انتقلتُ حولهما، وتسَلَّقْتُ على القسم الأعلى من المذبح، وحدَّقْتُ من فوق رأسيهما.

قال هانز: «انظروا إلى هذه، وجد ستون أنَّ الأرضَ كانت رخوةً هنا».

كَانَ فِي أَسْفَلَ أَرْضِ الْمَشْكَاةِ تَجْوِيفٌ مُسْتطِيلٌ طَوِيلٌ ، اسْتَطَعْتُ أَنْ أَرَى فِيهِ تَمَاثِيلَ
وَامِضَةً ، حُزِمَتْ بِإِحْكَامٍ بَعْدَدَ كَبِيرٍ مِنْ تَمَاثِيلَ حَجَرِيَّةٍ بَيَضَاءَ وَصَفَرَاءَ شَاحِبَةٍ وَرَمَادِيَّةٍ ؛
هَنَا عَيْنٌ غَرِيبَةٌ تَفَرَّسَتْ ، وَهَنَاكَ يَدٌ وَأَصَابِعٌ طَوِيلَةٌ التَّفَتِ حَوْلَ كُوبٍ ، بَدَتْ وَكَأَنَّهَا
تَنْبُضُ بِالْحَيَاةِ عِنْدَمَا قَامَ سِتُونٌ بِتَنْظِيفِهَا بِلُطْفٍ بِأَصَابِعِهِ .

قَالَ هَانَزٌ بِهَدْوٍ : «مَذْهَلٌ ، لِنَبْدَأْ بِإِخْرَاجِهَا» .

وَتَحَرَّكَ عَائِدًا لِيَدْعَ سِتُونٌ يَدْخُلُ الْحَفْرَةَ بَحْرِيَّةً . فَرَّاحٌ يَحْرَرُ التَّمَاثِيلَ الْمُبْعَثَةَ وَاحِدًا
وَاحِدًا ، وَيُنَاوِلُهَا لِهَانَزٍ ، بَيْنَمَا رَحْتُ أَنَا وَهَانَزٌ نَمُدُّهَا عَلَى قِطْنٍ طَبِيٍّ عَلَى الْأَرْضِ
الْقَاسِيَةِ ، كَانَ يَبْلُغُ طَوْلُ مُعْظَمِهَا أَكْثَرَ مِنْ قَدَمٍ . وَكَانَ الْعَدِيدُ مِنْهَا مَكْسُورًا ، وَمَعَ ذَلِكَ
فِيَّ جَمِيعِ الْقَطْعِ الْمَكْسُورَةِ كَانَتْ فِي مَكَانِهَا ؛ قَالَ هَانَزٌ إِنَّهَا بَدَتْ كَمَا لَوْ أَنَّهَا كَانَتْ
سَلِيمَةً عِنْدَمَا طُمِرَتْ ، وَلَكِنَّ وَزْنَ الْبِنَاءِ الْمُتَعَدِّدَ لِلْمَعْبَدِ فَوْقَهَا كَسَرَهَا وَحَطَمَهَا . ظَهَرَتْ
تَمَاثِيلُ أُخْرَى ، رِجَالٌ وَنِسَاءٌ ، الرِّجَالُ بِمَآزِرٍ مَزِينَةٍ بِأَطْرَافٍ مَشْرُشِبَةٍ ، وَالنِّسَاءُ بِعِبَاءَاتٍ
طَوِيلَةٍ مُلَقَاةٍ عَلَى كَتِفٍ وَاحِدٍ ، فِي حِينٍ تُرِكَ الْآخَرُ عَارِيًّا . وَكَانَ الْجَمِيعُ مَشْبُوكِي الْأَيْدِي
أَمَامَهُمْ ، وَبَعْضُهُمْ يَحْمِلُ أَكْوَابًا .

قَالَ هَانَزٌ : «إِنَّهُمْ عُبَادٌ ، بِالتَّأَكِيدِ» .

التَّقَطَّ سِتُونٌ بَعْضَ الْكَسَرِ وَوَضَعَهَا فِي صَنْدُوقٍ وَرَاءَهُ .

قَالَ : «هَنَّاكَ اثْنَانِ أَيْضًا ، وَلَكِنَّهُمَا أَكْبَرُ بِكَثِيرٍ - أَعْتَقِدُ أَنَّ عَلَيَّ تَوْسِيعَ الْحَفْرَةِ بِمَقْدَارِ
أَكْبَرٍ» .

جَاءَتْ رَاحِيلُ عَبْرَ بَوَابَةِ الْمَعْبَدِ ، وَوَقَفَتْ فَجَاءَةً ، تَحَوَّلَتْ بِنَظَرِهَا ثُمَّ ثَبَّتَتْهُ عَلَى الْمَشْهَدِ
فِي الْأَرْضِ . صَفَّ طَوِيلٌ مِنْ اثْنَيْ عَشَرَ شَخْصًا حَجَرِيًّا بَعِيونَ كَبِيرَةٍ ، وَأَيْدٍ مُتَشَابِكَةٍ ،
حَدَّقَتْ بِهَا بِصَمْتٍ كَصَمْتِ الصَّلَاةِ .

قَالَ هَانَزٌ : «رَاحِيلُ ، انْظُرِي إِلَى هَذِهِ» .

نَظَرَتْ رَاحِيلُ ، وَأَطْلَقَتْ صَرَخَةً مَفَاجِئَةً وَهِيَ جَفَلَةٌ وَمُنْدَهْشَةٌ وَمُبْتَهَجَةٌ . حَسَنًا رُبَّمَا
بِسَبَبِ تَحْدِيقِ زَوْجٍ مِنَ الْعَيُونِ الْمَرْعَبَةِ عَبْرَ الظَّلَالِ ، عَيْنَانِ كَبِيرَتَانِ بِلَوْنٍ أَسْوَدَ وَمَقْلَتَانِ

وامضتان⁽¹⁾ بلون أبيض وُضعت في وجه رجل ملتج وامرأة، يحمل كل واحد منها كوباً. وقفت راحيل في الخلف وقد أبكمتها الإثارة، وبدأ ستون مهمّة استخراج التماثيل. وبالتدرّج راح يحرّرها من الأرض المحيطة؛ وأخيراً أنزل سكّيناً وفرشاةً وأدخل يديه كليهما في التجويف، كانت التماثيل محطّمة في أماكنها، ولكنها كاملة تقريباً؛ أخيراً أحضرت ووُضعت بجانب الأخريات. لقد كانت بالفعل أكبر وأثقل بكثير، كان الشّكل الذكوري أكثر من قدمين في الطول، كما وقفت البقيّة على قواعد حجريّة ثقيلة.

لم يتفوّه أحد بشيء برهة. لقد حدّقنا بها، وبالمقابل حدّقت بنا بأعين واسعة مرعبة لا ترى، عندما استطعتُ سحب نفسي بعيداً ببطء رأيتُ أنّ قاعدة تمثال المرأة فيها فجوة عند قدمها اليسرى؛ وفي تلك الفجوة وقف ابنها ذات مرة، فالأقدام الصّغيرة لا تزال هناك.

قال هانز: «لا بدّ أنّها الإلهة الأمّ مع ابنها». كان وجهه أبيض إلى حدّ ما تحت حرق الشمس. أعتقد أنه بات منهكاً تحت ضغط ابتهاجه، وبسبب المحفّزات الهائلة الجديدة والتي لا بدّ أنها جعلت أفكاره تتسابق عبر هذا الحدث الذي لا يُصدّق.

كان الرجل ذا شعر كثيف كهرومانيّ أسود ولحية طويلة متموجة؛ كان الشّعْر قد لَوّن بالقار الأحمر والمقلتان البيضاوان قد قُدتا من صدف؛ وكانت القزحيتان الضخمتان من حجر أسود وقد بُتتا في دوائر قُدت من صدف.

دمدم هانز محرّكاً رأسه قليلاً: «إنه مذهل تماماً، للأسف ينقصه نهاية أنفه؛ وإلا فهو كامل».

انحنى ستون وفحص الطّرف المكسور وفجأة: «يا هل تُرى...». وسحب بسرعة علبة كبريت - وأخرج منها كسرة من حجرة بيضاء مثلثة الشّكل، ملساء باستثناء القاعدة... راقبناه ونحن حابسي الأنفاس بينما قرّبها من الوجه الغريب المقلوب، وبدقة وضع الكسرة في مكانها. متطابقةً على نحو دقيق.

قال هانز بعد برهة: «أعتقد أنّ هناك بعض النقش على قاعدته». كان الغبار ما

(1) وامضتان: ومض، وأومض فلان: أشار إشارة خفية. (القاموس المحيط، ص 847).

يزال ملتصقاً على كل أصابعه؛ ونظف بسرعة وبحذر مقدمة القاعدة العميقة للتمثال الضخم، وبسقوط الغبار ظهرت لوحة جميلة لنحت منقوش لغزالين جنباً بسلام ظهرأ لظهر كشكلين رعويين، بينما التفت أغصان مورقة خلفهما؛ وبينهما رفرف النسرب رأس الأسد بأجنحة ممدودة إنه إمدغود Imdugud.

قال هانز بهدوء شديد: «راعي القطعان إله النبات، هذا هو إله المعبد.. أبو بذاته».

كانت لقية فريدة لا بسبب عدد التماثيل التي وجدت معاً في كنز واحد فحسب، ولكن بسبب التاريخ القديم للتمثال. لا شيء أبداً يعادله بين كل ما عُثر عليه من قبل في التنقيب في بلاد ما بين النهرين أو منذ بدأ التنقيب فيها. قليل من نماذج النحت الحر المجسم⁽¹⁾ تم صنعه قبل هذا التاريخ في هذه المنطقة، وتألف وقتها بالدرجة الأولى من تماثيل صغيرة. ولكن هنا دون أية خلفية واضحة لتطور نحتي بطيء ظهرت هذه الأشكال ذوات الزوايا الغريبة منحوتة ببراعة فائقة متوازنة بين تصوير للأشكال البشرية وشكل مثالي مطلق. ظهرت كما لو أن النحاتين القدماء شرعوا في تصوير رجال ونساء أثناء الصلاة في المعبد، كانوا مشغولين بفكرة العبادة ذاتها إلى حد أبعد كثيراً من الأشكال البشرية الضعيفة التي تقدم العبادة للإله؛ أو على الأصح: كان الشكل موجوداً، ولكنه مبسط جداً، وجعل تابعاً لما هو أكثر من فكرة بشرية.

كانت الأجساد حادة الجوانب، وملامح الوجه بدائية، والأرجل ثخينة بشكل مذهل، من أجل أن تدعم الوزن الكبير للحجر الذي في الأعلى وحتى الوضعية المتوازنة تماماً، والأكتاف الدليّة المرفوعة قليلاً، والأيدي المتشابكة والوجوه المقلوبة الخاشعة التي عبّرت بقدرة مطلقة المشاعر الجوهريّة للعبادة. لقد كان عملاً قوياً للرجال في بداية زمن متمدّن مستقر ليس بعد سنة 3000 ق. م بكثير، يتقدّم مع حافر جديد تماماً للعالم القديم؛ ليترجموا للمرة الأولى مشاعر عميقة إلى مصطلحات من نحت مجسم. إنه حافر لم يمت منذئذ إلى الآن بين الحرفيين الذين ينحتون الخشب والحجر.

(1) تستخدم تشبّ التعبير الفني: carving in the round أي النحت المجسم ثلاثي الأبعاد، الذي يوحى بشكل الشخص أو الحيوان المراد تمثيله بأبعاده الطبيعية من جميع اتجاهات النظر إليه.

اعتقد هانز أنه بخلاف كنز الأواني النحاسية والسكاكين التي تعود إلى بناء متأخر في معبد أبو Abu، لم تكن التماثيل قد طُمرت لحمايتها في الأوقات العصيبة. لم يكن هناك دليل على أيّ تغيير عنيف توحيه آثارُ نار أو تقنيةُ بناء جديد، فقد أُعيد بناء المعبد الصّغير بسلام فوقها. بدا كما لو أنّها كانت عادة أنّ تجدد تماثيل العبّاد والآلهة عند تجديد بناء المعبد، فالتماثيل الحاليّة كانت تجمعُ بحذر وتوضعُ لتستقرّ في مكان مخصص قرب المذبح. وُجدت شظايا من تماثيل أخرى في المستويات الأعلى والأحدث، وربما كانت هذه في الواقع كلّ ما بقي من تماثيل كانت ما تزال تُستخدمُ في زمن الفتح الأكادي. لم تكن تماثيل الكنز قد طُمرت لأنها بليت، فجميعُ الزوايا ما زالت حادة، ولم تتشوش الأسطح مع الزمن، كما كان لو أن الشعر واللحي متألّقا وغامقا؛ وعلى الأغلب فإنّ كلّ انهيار وتحطّم كان سببهُ كما قلّت، ثقل التجديد المتراكب على الأشكال المكتظة بشدة. لا بُدّ أن يكون الثقل كبيراً، فعلى منزر أحد العبّاد كانت آثار واضحة لحواف التناير في المقدمة والظهر لتمثالين فوق وأسفل منه، ضُغِطت تماماً في حجر الكلس الأصفر الذي قدّ منه.

اعتقدت ريغمور أنه مع التّصوير الأخير لمعبد أبو في الموقع وباللقى النحاسية في الداخل فإنّ عملَ موسمها كما كان قد تمّ إنجازهُ بشكل جيد قد بدأ من جديد مرّة أخرى. فكلّ تمثال سُجِّل ونظّف ورُمّم، بدأت تعملُ عليه وهانز يطلبُ متلهفاً مناظرَ أماميّة، ومناظرَ خلفية وصوراً جانبية وصوراً قريبة للرؤوس والأيدي والأقدام والقواعد.

قال: «علينا أن نأخذ كلّ صورة ممكن أن تؤخذ هنا. الإله والإلهة سيُسلان بكلّ تأكيد إلى بغداد عند إجراء عمليّة اقتسام اللقى، وربّما معظمُ الأشياء الأخرى؛ لذا علينا أن نأخذ صوراً لمنشوراتنا في الحال، ولا يمكن لأحد أن ينتج أشياء أفضل منك ريغمور».

أطلقت ريغمور ضحكةً صاخبةً، وتصارعَتْ مع الوقت ودون الحاجة للقول بأنّها حقّقت مجموعةً كبيرةً من الصّور الجميلة عند نهاية الموسم.

* * *



«كانت تحدق بنا بعيون واسعة مخيفة متوعدة»

جاء يوم التقسيم، جاء المدير الجديد للآثار القديمة، الذي نَقَبَ في أرك Erech (الوركاء) لعدّة سنوات، جاء ليقوم بانتقاء الآثار لمتحف بغداد؛ هو رجل وسيم بشعر أبيض وعينين زرقاوين وصوت جميل صراح. كان عبقرياً، فَقَدْ فَسَّرَ قانون الآثار بجدارة من وجهة نظرنا. هذا القانون وضعته غرترود بل Gertrude Bell قبل ثماني سنوات عندما أصبحت المديرية الأولى للآثار القديمة في العراق. ينصّ هذا القانون على أنّ أيّ شيء فريد يعثر عليه المنقبون ينبغي إبقاؤه ضمن المجموعة الوطنية في متحف بغداد، وبعد ذلك تُقسَّم اللقى المتبقية بأنصاف بين مديرية الآثار وبعثة التنقيب. وكما توقع هانز، تم أخذ الإله والآلهة إلى المتحف، حيث يقفان حتى هذا اليوم⁽¹⁾، ولكن أرسل المدير الكثير من التماثيل الأخرى إلى شيكاغو، كل واحد منها على الرغم من تشابهها من نواح عدّة، كان متميزاً من ناحية أو أخرى، وكان بالإمكان وبطريقة قانونية تماماً تخصيصها لبغداد.

كان هانز راضياً بنتيجة التقسيم؛ وفي وقت متأخر من المساء ذهب المدير ذو العينين الزرقاوين اللامعتين إلى بغداد. لم نكن نعلم وقتها أنّه كان أحد أبناء هتّر الأكثر زرقة في العينين، وأنّه كان يستخدم وضعه الوظيفي في بغداد بهمة عالية كقناة لنقل الأفكار، وأكثر من الأفكار كانت تأتي من برلين عبره منقاةً، بينما كان الملك فيصل الأول ما زال على قيد الحياة. كان الملك فطناً وحساساً يقبض بيد من حديد على الأمور، وكان كل ذلك يجري بالخفاء. ولكن في السنة التي تلت توفي فيصل، ووجد هؤلاء الرجال الذين دعموه بإخلاص أنفسهم فجأة يواجهون وضعاً قميئاً مع رجال لثام في الحكومة والجيش يسعون وراء السُلطة، وقد دُعموا من خلال تمويل وصل إلى البلاد عبر وكالة

(1) لا أدري في الواقع ما وضع هذه اللقى الفريدة اليوم، بعد الدمار الهمجى المخزي الذي أصاب المتحف العراقي إبّان سقوط بغداد عام 2003. وكذلك فإن جميع المواقع الأثرية السومرية في جنوب العراق أضحت مباحة للنهابين اللصوص الذين دمّروا إلى الأبد معالم حضارية لم يعد بالإمكان استرجاع ذاكرتها بأي حال من الأحوال. ويُقدّر عدد القطع الأثرية التي سُرقَت من متحف بغداد بـ 170 ألف قطعة أثرية.. إن البشرية وبكل أسف تشهد في مطلع الألفية الثالثة جريمة ممنهجة في تدمير تاريخها!

عالم آثار مسنّ وعاديّ يتسكّع حول خزائنه الزجاجيّة في المتحف، وهو يترنّم بأغنية ألمانية.

ولكنّ هذا كان ما يزال في المستقبل؛ كنتُ هنا في الضّاحية خارج غرفة الآثار القديمة أحزّم اللقى التي تُركت لنا في حقائب، حينما كان جبرائيل يخطّ عنوانَ المعهد الشرقي وعبارة «In Bond to Chicago» بأحرف كبيرة سوداء على الأغطية. كان هناك شعورُ نهاية الدورة خاصّةً بعدَ يوم الدفع الأخير، عندما كانت البقعة السوداء الأخيرة قد غابت عن النظر متجهّة نحو الشمال لتستقرّ مرةً أخرى جانبَ الأكواخ الطينيّة وحقول البصل، تحت ظلّ بساتين نخيل في الصّيف الطويل الحار؛ بينما تسلّل صمت مطبّق خيم على التلّ الفارغ الجريح.

أخذتُ أنا وراحيل نحزّم الآثار طوال النهار، ننظر إلى الكثير منها للمرّة الأخيرة إلا إذا حملتنا عجلات يوماً ما إلى رحلة غير متوقعة إلى شيكاغو.

لقد كان عملاً طويلاً، سواءً كنّا نملاً صناديق صغيرةً بطبقات متعاقبة من القطن الطبيّ والأشياء الأصغر، أم كنّا نحلّ مشكلة الطّريقة الأسلم لجمع الأواني الكبيرة والتماثيل والأوعية النحاسية.

لا يمكنُ لأيّ من مشاكلنا أن تقارنَ مع واحدة من التي شغلت بيير قبل عدّة سنوات في نهاية أحد المواسم؛ حيثُ أنّه كان هو الذي حزم ونقل الثور المجنّح - في الصفحة 251 - من خرساباد إلى ضفّة نهر دجلة، مقدارَ خمسة عشر ميلاً في الطّريق إلى شيكاغو. كانت المنحوتة الضّخمة، مع خلفيتها الحجريّة، يزنُ أربعين طناً، وكانت الشّاحنة الوحيدة المتاحة تزنُ حوالي خمسة عشر. كان لديه التمثالُ بأكمله منشوراً إلى عدة قطع؛ ومع ذلك فإنّ وزن القطعة الأكبر تسعة عشر طناً. قاموا برحلات واحدة تلو الأخرى في الشّاحنة على طول طريق طينيّ ضيق كثير الصّدوع يسير جنباً إلى جنب مع نهر خوسر باتجاه الضّفّة المنحدرة لدجلة، حيث تقبّع باخرة شحنت صغيرة تنتظر حمل الشّظايا إلى سفينة كبيرة في البصرة.

شدت الحبال الضخمة على السلة الكبيرة التي تزن تسعة عشر طناً وبدأت الرافعة بالتحرك وأحكم شد السلة ولم يحدث شيء آخر، بدا كما لو أن الثور كان كارهاً مغادرة موطنه؛ مشمئزاً من تجربة مخاطرة من نوع جديد. أعيد تشغيل الرافعة مرة أخرى بكل قوتها الممكنة، وبدأ شد الحبل مرة أخرى. انتصر الثور تقريباً - إذ بقي الثور لفترة ساكناً على الضفة وفجأة شوهدت باخرة صغيرة وهي تحاول أقصى جهدها لتسلك جانبي الضفة. وفي النهاية رفع الوحش المقاوم والمقطع الأوصال بطريقة ما على لوح، وهو اليوم يزين الطرف من قاعة المتحف الضخمة في شيكاغو. يقف ساكناً ناسياً الأذى والظلم، في قطعة واحدة لا أثر فيه للندبة، يخرخر فوق رؤوس جميع الزوار المشدوهين...

بعد شرب شاي في وقت متأخر نفضت أنا وراحيل بقايا الحلاقة من شعرنا وذهبنا نتمشى نحو الجنوب، لأننا شاهدنا أعالي بعض الخيام السوداء على مسافة ليست بالبعيدة عبر الطريق الذي ذهبنا فيه. وبين الزوابي، التي ما زالت رطبة وهادئة؛ وحيث أن مستوى ضوء الشمس الذي كان منخفضاً الآن في الغرب قد أصاب الكثبان، شاهدنا شيئاً جميلاً - سطع بلون أخضر باهت. انتشر نمو خفيف لعشب طري كسديم فوق الأرض كلها؛ وحيث طفنا حول حصن رملي وصلنا إلى منخفض طويل ضحل ركزت فيه بركة كبيرة لعدة أيام، وجدنا العشب في المنحدر سميكاً ولامعاً، يبدو ذهبي الأطراف في ضوء الشمس. كادت المياه أن تتبخّر الآن، ولكن ما زالت بعض البرك القليلة الصغيرة التي تعكس السماء الربيعية تتبعثر هنا وهناك، وتبرعم أوراق العشب بينها. ولكن البرك كانت تتألق بزرقة أخرى أقوى أحاطت بها؛ حيث كانت مئات من أزهار سوسن زرقاء صغيرة تزهو في العشب. كانت تأتي كل سنة لفترة قصيرة جداً، لتتلاشى مع العشب في ليلة واحدة تقريباً؛ لأن الشمس امتصت بلا رحمة القطرات الضئيلة المتبقية من الرطوبة في الجذور الضعيفة، وفكرنا أنه لو أمكن لتلك الأرض أن تُروى مرة أخرى، فكم ستكون جميلة. كانت هناك طيور صغيرة تدور فوق الأزهار. تابعنا سيرنا عبر الجنة الصغيرة من الألوان: أزرق وأخضر وذهبي، إلى أن أتينا إلى

معسكر صغير، كان بعض البدو الرعاة قد استقروا قرب بركة أخرى، وكانت الخيام ملاحناً خشنة صُنعت من وبر ماعز أسود، وقد رُفعت الأطراف في هذا الجوّ اللطيف؛ وكانت هناك امرأة تطبخ على نار من بقايا الأشجار الجافة.

كان الرعاة يتقيلون قرب الخيام، بينما انتشرت العنزات السوداء الصغيرة على امتداد الكثبان، متلهفة لقضم العشب الغضّ، أقبلَ طفل صغير يحملُ جدياً حديث الولادة كأنّ يمشي بخطى قصيرة، يضحك ويتكلم، ويحاول إعطاءنا إياه، قمنا بملاطفة الأذنين السوداوين الحريريّتين الطويلتين، واتّجهنا بعدها نحو المنزل، بينما عاد الجدّي مرّة أخرى إلى الخيام.

كان من الصعب في هذا المساء المتوهج الهادئ أن نتذكّر أنّ هذه الأرض قد أصابها غضب هائج خبرناه من فترة وجيزة، لقد رأيت الصّحراء الآن في العديد من أحوالها، إما بردٌ وموت مثل القمر، أو محيطٌ فضيّ نثرت فيه جزر غير مأهولة، أو جحيّم أسود خائف، والآن هدوءٌ وجمال شاعري.

قطفنا بعض السوسن، ثم غابت الشمس، ولدى اقترابنا من المنزل بزغ بدرٌ تام فوق القمم الثلجيّة للجبال البعيدة، بدرٌ يلمع على الرغم من تباطؤ غروب ضياء الشمس⁽¹⁾.

لاحظت شيئاً غريباً لم يحدث معي من قبل: لقد كان لي ظلال، ممتدان في كلّ جانب على طول الأرض الخالية من الألوان الآن؛ كان أحدهما بسبب وهج غروب الشمس؛ وآخر باهت، سببه نور القمر الساطع. وبرزت للتو أمامنا إلى الشمال نجمة كجوهرة هائلة واستقرّت في الأفق مع أخريات معلقة على مسافة غير بعيدة فوقها. كانت كما أعلم دليل الدّب الأكبر. فكثيراً ما كنت أراقبه يتدلى من مخبئه السري، ليلة بعد ليلة. وينحدر في خطّ العرض هذا، ولم يعد دّباً قطبياً أبداً، كما في إنكلترا حيث

(1) هذا مستحيل.. لا يمكن أن يكون القمر يومها بديراً تاماً ابن 14، لأن البدر لا يرى أبداً في السماء مع الشمس، بل يشرق بعد غروبها بشكل تام. ولا بدّ أنّ تشب تصف ما رأيته في اليوم الثالث عشر من الشهر القمري.

يتأرجح حراً بشكل أبدي في الأفق الشمالي. كان من السهل فهم لماذا درست النجوم في البداية كعلم في هذا الجانب من العالم، حيث تلمع على مستوى النظر بشكل عام في الأرجاء فور حلول الظلام.

لم يكن هناك وقت للتفكير حول الفلك أو أي شيء آخر في الأيام القليلة التي تلت، فقد غادر كل من هانز وستون وجايك، نحو الشمال؛ كانوا يخططون للتحقيق في فكرة جايك التي جالت في ذهنه منذ الزيارة الأخيرة لخرسabad. كان من الممكن لي ولراحيل وهال أن نقوم بالترتيبات الأخيرة لإنهاء البعثة ثم نلتحق بهم في خلال ثلاثة أيام؛ ويلحق بنا سكان خفاجة فوراً بعد ذلك. أمضيت تلك الأيام وأنا أجمع حزمًا كبيرة لجميع مسودات الصور النفيسة والمطبوعات وصفحات السجلات ورسومات ومذكرات والمراسلة، متسائلة هل يمكن أن أجد كل هذه المعلومة المهمة سليمة في الطرف الآخر من الرحلة الطويلة إلى المكتب الصغير في شارع صقلية Sicilian Avenue. وفوق ذلك كانت هناك قوائم الموجودات بحاجة للتدقيق، وأسطوانات غرامافون قيمة ينبغي تخزينها بأفضل عناية ممكنة؛ وضعناها في الغرفة المظلمة، والتي كانت أبرد مكان لحمايتها من الفساد، وحتى من التخلل (الذي حصل ذات مرة من قبل) في حرارة الصيف الشديدة، والتي قد تصل إلى 130 درجة أحياناً.

سار بنا جبرائيل في صباح أحد الأيام الباكر نحو بغداد، وسرعان ما تلاشت الهياث البيضاء لعبد الله الطويل والطاهي المسن القصير والحراس الملثمين الواقفين أسفل البرج مقابل الجدران المشبعة بأشعة الشمس للبيوت الصامتة. تمايلنا حول كتف تلة رملية، واختفى تل أسمر. شعرت بإحساس غريب، لم أكن أتوقعه بالتأكيد، ولم أفكر بإمكانية حدوثه قبل بضعة أشهر.. هو إحساس موجه أشبه بإحساس الحنين للوطن. شيء ما في الأرض الجرداء بسماواتها الواسعة وهدوئها الفارغ كان قد استقرّ داخلي، يخبرني أنني لن أعرف أبداً - بغض الطرف عن نوبات الغضب والعبوس العرضي - هكذا صمت، وهكذا فضاء وهكذا سلام، في أي مكان آخر في العالم.

أحسست الآن فقط بأنني متعب من العمل لموسم طويل، متعبة من التوتر الحقيقي

للعاصفة الرَّمليّة الأخيرة تلك، ومتلهفة للانتقال نحو الشمال؛ رغم علمي - بعد تطوافنا على طول الطريق، فوق وعلى ضفاف القنّوات القديمة - بأنني كنتُ سعيدةً سرّاً؛ لأنني في الخريف، لو شاء الله، يمكن أن أعود إلى الصّحراء.



خرجتُ وقتَ الغذاء من عند الحلاق الوحيد في الشارع الجديد New Street، بشعور يشبه ثور آشوري مجعد الشعر. كان جميلاً جداً الحصولُ مجدداً على رأسٍ بشعر مصقّف، رغم أنني عندما قابلتُ الآخرين وقتَ الغذاء وجدتُهم يترنّحون بتأثير البَخاخات المَعطّرة التي وجدها الحلاقُ التركيّ مناسبةً ليختم بها عمله اليدوي. كانت في إحدى عينيه نظرةٌ عنف قد يكون سببها التأثير المتقلقل لانصرافي الجديد. سألت هال والشك يساورني إن كان يرى ذلك صحيحاً، وبعد التقصّي العميق في الأمر قال إن هذا يذكره نوعاً ما بزقاق سبّب له إرباكاً بين بعض الدّور في موقع السّلالة الباكّة رقم 2.

بعد الغذاء سلكنّا طريقنا إلى البازار، كانت الأزقة المرصوفة تتلوّى في هذا الاتجاه وفي ذاك، ووصلَ ضوءُ الشمس إليها مارّاً عبرَ الوديان الضيقة وحواشي الأقمشة والحصر الممدودة للوقاية منه، وسقطتْ أشعةٌ مغبرةٌ مبعثرةٌ من ضوء الشمس على الحشود المتراخمة وعلى الظهور المحمّلة للحمير الصّابرة وهي تُشقُّ طريقها، وتراجعُ قليلاً إلى الوراء، وتعلق داخل كهوف غامضة على الجانبين في المخازن حيث كان التجارُ يخزنون بضائعهم وبيعونها، واسترخت أخيلة قاتمة لأشخاص في الظلال خلف تلك الأكشاك، أو يجلسون القرفصاء قرب موازينهم الضخمة؛ وآخرون يراقبون الجموع المارة تحت أشعة الشمس بتكاسل أمامهم أو ينادون على سلّهم.

كانت هناك أكشاك تكدّستُ عاليّاً بالأقمشة، أغلبها مبهرج، ولكنّ بعضها غني ولطيف؛ وأكشاك بجميع أنواع الفواكه والحلويات، فيها حلقات ضخمة لفظائر مكدسة مليئة بالذباب علّقت على قضبان طويلة، كما لو أنّ أحدهم قد ربّع لتوه لعبة هويلا Hoopla جميلة. حوى بعضها ستائر من أحذية متدلّية تتمايل على الحبال بألوان

حمراء وزرقاء وخضراء بخيوط معقودة عند أصابع القدم، تحيط بأعالي الكهوف وجوانبها؛ أو تنبت من الأعمدة كشجيرات عيد الميلاد.

انجرفنا مع الحشد، إلى أن وصلنا إلى زاوية البازار حيث يعمل النحاسون. كان الضجيج في أذاننا غير المعتادة عليه يتلف الأعصاب، حيث طفق رجال صغار يضربون على صوانٍ وأوانٍ وقدور وأباريق قهوة، وأباريق شاي، بينما سَطَعَ ضوءُ الشمس على المعدن المرتج عبر المكان المظلم الدافئ، وراحت المطارقُ الصغيرةُ تترقع وتنقر وترن وتطرق بعنف، بينما تدافعت الحُشودُ أمامها ضاحكةً أو متنازعةً أو هاتفةً. لم يكن من المعقول لعيني الآن أن أرى كل هذا الجمع من الناس في آن واحد معاً....

ثم عُذْنَا إلى الشارع الجديد. كادت فترة المساء أن تنقضي؛ وعَبَقَتْ رائحة مركبة من دخان البنزين وزيت الطبخ والغبار والبهارات والخضار الفاسدة وطمي الأنهار وأشبعت الشارع الضيق بها، والذي كان الآن في عتمة جزئية. ولكن علاوةً عن الروائح والأنشطة الصاخبة كانت العربات الصغيرة المفتوحة تقعقع أمام الحشود، والسيارات الصائخة، والمُتَسَوِّلُونَ المشوهون المرعبون. وبزغت قبة ذهبية عالياً في السماء ملئت بأشعة الشمس القادمة من قبالة النهر. استقرَّ سرب من الحمام المُلون بألوان قوس قزح الأرجوانية والزرقاء والخضراء، استقرَّ على كتفها الساطع، وكأنه قد نثر عليها كلها أحجاراً كريمة كثيرة.

اتَّجَهْنَا حَوْلَ أَحَدِ الْأَزَقَةِ وعندَ بابِ جانبي، وعندَ دكانِ كاشي kashi إخوان؛ رَحَبَ بنا أحدُ الرِّجالِ الصَّغارِ بكأبةٍ وعيون مغشاة بسبب كثرة تعاطي الحشيش، وأرسلَ صبيّاً ليحضِرَ أكواباً من القهوة؛ جلسنا في الضوء الخافت بهدوءٍ مائع تحت مصباح يتوهج في الظلال كياقوتة هائلة، بينما جالَ في أعماق كنوز كهفه وأحضرَ سجّاداً جميلاً، وأقمشةً فارسيةً مطرزةً جميلةً، وخُمر، وشاحات حريريةً متموجةً بالأخضر والذهبي، ورديةً وبنفسجيةً، وزرقاء وفضية.

هَمَّهم قائلاً، وهو يرجع إلى الوراء ليحضِرَ أشياءً أخرى: «لقد وصلت قافلة لتوها من إيران».

هكذا ما زالت تصلُ القوافلُ محمَّلةً بكنوز الشرق عبر ممرات الجبل، وعبر سفوح التلال إلى داخل السهل المنبسط. بدت عيونُ كاشي الزائغة الرؤيا تراقبُ الجمال والحمير والسائقين، وهم يعبرون جيئةً وذهاباً، جيئةً وذهاباً على طول الطريق الذهبي إلى سمرقند.

مرَّ الوقت. ثم قالت راحيل بلطف وهي ترفع شيئاً جميلاً وامضاً آخر من كومة ألوان لامعة على الأرض: «أعتقد أنَّ عليَّ الحصول على تلك أيضاً».

قلتُ: «وعليَّ أن آخذَ تلك». لقد كان قماشاً مطرزاً بمربعات ذهبية ساحرة ومرشوش بطيور صغيرة باللون الأزرق الداكن وبأزهار ملونة بألوان قوس قزح.

قال هال: «وأنا أعلم أن عليَّ أن آخذَ تلك»؛ وأصابه الدقيقة تتحسُّ دثاراً⁽¹⁾ حريراً قرمزيّاً داكناً وعيناه المتعبتان تتألقان.

كانت بضائعُ كاشي من النوع الذي تصعب مقاومته في جميع الأوقات، إلا نحن، فقد قدمنا مؤخراً من أرض قاحلة عطشى للون ووفرة ناعمة، لقد كانوا مبتهجين. كان كاشي الصغير في وضع يجعله يشتري قدراً أكبر من الحشيش ليأخذه في حلم جميل إلى ما وراء هذه الأرض، في الوقت الذي غادرناه وقفَ على بابه يتسّم بضعمف، فقد كان قد انسحب إلى عالمه الخاص.

كان جبرائيل قد اكتشفَ بطريقة ما أين كنا. وكان ينتظرُ في الطريق ومعه السيارة. نظَّم مجموعتنا الثمينة، وقال إنَّه من الأفضل الذهابُ إلى المَحطة في الحال؛ لأنَّ القطارَ المتجهَ شمالاً يغادر في خلال ساعة.

وفي المحطة في الجانب الآخر من النهر، اشترى لنا بطاقات للدرجة الثانية ووضعنا في حافلة الدرجة الأولى مع بعض قصص محرّفة حول «speshul conseshun» (موافقة خاصة) للأشخاص الخبيرين بالآثار. كانت راحيل مترددة، وكذلك كان رئيسُ المحطة أيضاً؛ لقد كان صديق جبرائيل الحميم دون الحاجة للقول إنَّه من

(1) الدثار: ما فوق الشَّعار من الثياب. (القاموس المحيط، ص 500).

الواجب علينا أن نكونَ في حافلة الدرجة الثانية، هكذا قال، صفعه جبرائيل رافعاً
صوته بضحكة، وقاوم بمراذفة عربية: «حسناً، إذاً تريدُ أن تُخرجَهم».

غضبَ الرجلُ الصغيرُ وخمد.

أخذَه جبرائيل من ياقته، وبدأ بخنقه.

صرخ لاعباً ببطاقته المفضلة، وعيناه المتورمتان قريبتان من وجه ضحيته: «إنها
جامعة شيكاغو».

لم تشأ راحيل أن تشهدَ جريمة، انكأَتْ على النافذة، وتوسلت ليسمحَ لها أن تلتحقَ
بحافلة الدرجة الثانية. جلستُ أنا وهال متراصين نقهقه.

انطلق القطارُ مسرعاً.

كانت نظراتنا الأخيرة على جبرائيل ذلك الموسم كانت له وهو واقف وإحدى يديه
تطوّق رقبة رئيس المحطة، يلوّح بقبعته ومحاطاً بالابتسامات. وكانَ رئيسُ المحطة،
بربطته أسفل إحدى أذنيه، يتسّم ويلوّح أيضاً.

* * *



د. برستند وهانز وجايك في منطقة الدار الخاصة
منظر جوي لخفاجة، يُظهر منصّة المعبد والشكل البيضوي ذا الجدران

الفصل الثامن

استغرق الطريقُ منا أكثرَ من اثنتين وأربعين ساعةً للوصول إلى الموصل. بدأ مشروع سكة حديد برلين - بغداد قبل الحرب العالمية الأولى وبالطبع كان قد أوقفَ بعد ذلك، وبقي ناقصاً، بجزءٍ منه يبلغُ طوله مائة ميل أو أكثرَ على جانبي الموصل. وفي الساعاتِ الباكرة من الصّباح كُنّا ننتقلُ إلى الحدودِ الجنوبيّة، ليسَ بأكثرَ من مائة ميل شمالَ بغداد، انتقلنا إلى سهلٍ مقفر، مليءٍ بطبقاتٍ من الصّخر تتخلّلُ الأرضَ المكشوّة بالحجارة الملفوفة ببحرٍ من عُشبٍ مَمّوجٍ، تُحرّكُهُ النّسماتُ المُنعشةُ للفجرِ الرّماديّ. ومع سطوع الصّوّء بشكلٍ أقوى رأيتُ أنّ الجبالَ الشرقيّةَ كانتُ أقربَ الآن من الحدودِ الصّخريّةِ الشرقيّةِ للعراق التي تَمْتدُّ إلى الشّمالِ الغربيّ على طوال الطريق من الخليج العربي إلى الأعلى إلى آسيا الصّغرى Asia Minor.

انحدَرْتُ جداولُ الجبل من القمم إلى الأسفل تجري دائماً لمسافة أبعد غرباً في السّهل المُمتدّد، وتصلُ قُربَ نهر دجلة تحملُ معها الخُضرةَ للأراضي الشّماليّة على ضفافها حيثُ تَمُرُّ.

تابعنا السّفر بالسيارة، متّجهين قليلاً نحو الشّمال الشرقي لنرى مدينةً مسوّرةً قيل إنّها أقدمُ مدينة عُرِفَتْ بأنّها كانت مأهولةً بشكلٍ متواصل. إنّها أربيل؛ استَطعنا رُؤيتها من بعيد في السّهل عندما سطعتُ عليها شمسُ الصّباح، لقد بُنيتُ على هضبة مرتفعةٍ مائلةٍ بشكلٍ حادّ. تشكّلت الرّواحي المُغطاةُ بالعُشب من المُدن التي أعيدَ بناؤها منذُ آلاف السّنين، تماماً مثل تل أسمرٍ ومثل جميع المُدن الأخرى للسّهل التي ارتفعتُ ببطءٍ عن مستوى الأرض. ولكنَّ أيّامها قد انتهت منذُ زمنٍ بعيدٍ فقد تَسَطّحت الرّواحي

وأَقْفَرْتُ، وانجَرَفَ فوقَها الرَّمْلُ والحَصَى وبقايا قطع الخَزَفِ المُكْسَرَةِ، وبقِيَتْ أربيلُ عامرةً كمدينة مأهولة، جاثمة في الأعلى ودائماً ترتفع نحو الأعلى كلما تابعَ السُّكَّانُ تخريبَ بيوت قديمة هنا، مَعَمَلُ مهجُور هناك، وشيّدوا أبنيةً جديدةً على أساساتٍ مستوية تقريباً. تسَلَّفْنَا مُنَحْدِراً عالياً، وكُنَّا ندوُسُ في طريقنا فوقَ بيوت مطمورة لمدن قديمة إلى مدخلِ المدينة الجديدة؛ وتجوّلنا عبرَ أزقة مظلمة إلى البازار. بدأ كما لو أنّ بيوتَ تلٍ أَسَمَرَ قد عادتْ إلى الحياة؛ وكأنَّ أزقةَ هالٍ وساحاته قد عادتْ بجدرانٍ عاليةٍ مرّةً أخرى، وجدران البيوت الصّغيرة وأسطحها، وهمهمةٌ مع كلامٍ وضحك، وبكلِّ الضّجيجِ للنّاسِ المزدحمينَ كانَ شكلُ التّوافدِ والمداخلِ التي تنفتحُ إلى الشّوارع الصّغيرة يشبهُ تماماً تلكَ التي وجدها هو وجايك في مدينة أقدمَ بأكثرَ من 4000 سنة. وعلى الأرجح فقد احتفظتْ أربيلُ بالتّصميمِ ذاته إلى حدٍّ بعيدٍ في الشّوارع والبيوت عبرَ تاريخها الطّويلِ كلّهُ.

خَرَجْنَا أخيراً من قُفْرِ معتمٍ محيّرٍ إلى مدخلِ المدينة، ووقَفْنَا مبهورينَ على قمة المنحدرِ المطلِّ من فوقِ على السَّهلِ المُشمسِ السّاحِرِ إلى الجنوب؛ كانَ الهدوءُ مخيماً الآن، إلا من صوتٍ ضعيفٍ لموسيقى الرّيحِ التي تتحرّكُ فوقَ العُشبِ المائلِ. لا حوافِرَ شبحيّةٍ ترعدُ بالقرب، ولا صوتَ ارتطامِ معدنٍ؛ ولا صرخاتِ انتصارٍ إغريقيّ، ولا صرخاتٍ واهيةٍ ليأسِ هزيمةٍ فارسيّةٍ. فهناك في الأسفل تحتَ جُدرانِ إربيلِ القديمة، عباً داريوش Darius مجابهتهُ الأخيرةُ للإسكندر الشّاب، الذي أسكرهُ حلْمُ إمبراطوريّةٍ بلا حدود، تلكَ المجابهةُ التي رفضَ فيها عرضَ الملكِ العظيمِ بإعطائه الأراضي التي تَمْتدُّ على الضّفّةِ الغربيّةِ حتّى نهر الفُراتِ وجاءهُ بثورةٍ كبيرة.



أربيل، مدينة حديثة أقيمت فوق عدد لا يحصى من المدن



عامل وفتى، من اليزيدية أهل الشمال

وصلنا الموصل بعد حلول الظلام متعبين بسبب القيادة القاسية أثناء عودتنا إلى النهر، ثم إلى نقطة حيث نقلتنا سفينة إلى الضفة الغربية حيث تقع الموصل. علقت السفينة وسط النهر على ضفة رملية، وانتظرنا متوترين لمدة طويلة إلى أن غابت الشمس، بينما كان رجل عربي مسن، قام وحده لمواجهة مشكلته، ومعه عمود سارية يتعأد به ويناور لينقذ قاربه من الغرق. وبالقرب منا على الضفة، جلس القرفصاء أربعة من سكان الشمال الأكراد، بنظرات وحشية وعقصات⁽¹⁾ شعر سوداء متدلية إلى أكتافهم، وسكاكين في أحزمتهم المثنية الملونة، راقبونا باهتمام، كانوا يتمتمون ويتجادلون كما لو أنهم ليسوا على وفاق في توقعاتهم الممكنة للمدة التي يحتاجونها بعد الغروب للإفلات من جناية ارتكبوها، أو ربما كانوا أشخاصاً بريئين جداً ولكنهم ببساطة مهممون بنا جداً وبعملنا هناك، ومنغمسون بتشكيلة كردية مؤلفة من عشرين سؤالاً حول الموضوع، وعرفنا أنه كان لديهم في هذه المنطقة مؤخراً حوادث عديدة - من بينها واحدة أو اثنتان جريمة قتل - عندما احتجز أشخاص خارجون عن القانون مسافرين جهلاً، هذا ما زاد من إحساسنا بعدم الارتياح؛ لذلك فإن سماعنا صوت ارتطام السفينة القديمة المجنونة بالضفة عندما كانت الومضة الأخيرة لشمس الغروب تتلاشى كان صوت ترحيب حقيقي. وعندما أرخى الليل سدوله وعلى طول الشاطئ الغربي لنهر دجلة Tigris الآن كنا على الطريق ذاته الذي مشى عليه أسرى الحرب المرهقون الذين أسروا بعد سقوط الكوت⁽²⁾، في سيرهم المرهق مئات الأميال نحو تركيا.

طَوَّقَ الطريقَ قاعدةً هضبة ضخمة ترتفع في السماء عن يميننا، هنا كانت مدينة آشور Assyria القديمة التي كانت تطاول النجوم علواً؛ عاصمة مملكة آشور Assyria

(1) عقصات: جمع عقصة: وهي خصلة الشعر المجذولة. (القاموس المحيط، ص 804).

(2) المقصود المعارك التي دارت رحاها بين الإنكليز والأتراك في جنوب العراق إبان الحرب العالمية الأولى، وكان أهمها معركة كوت الزين التي جرت في 7 نوفمبر عام 1914 وأدت إلى انسحاب الأتراك رغم أنهم كبّدوا الإنكليز خسائر فادحة جداً، وأعقبها احتلال الإنكليز للبصرة في 22 من الشهر ذاته. انظر كتاب: رحلات المغامر العربي وليمسون، الفصل 29.

العظيمة، وحملت اسمَ إلهها القبليّ القديم. وتجمّعت عند نهاية الهضبة بعضُ أكواخ منخفضة، يُرى ضوء باهت فيها هنا وهناك؛ لقد كان السّفَرُ غريباً وساراً، واندفعنا أبعدَ في الظلام مرّةً أخرى نفكرُ أنّ عمالنا من الشّرقاطيين كانوا في تلك الأكواخ بعد عودتهم من أعمالهم في تل أسمر وخفاجة إلى أحضان عائلاتهم المحبّة؛ عادوا متخمين بأجرة خمسة أشهر كاملة، إضافةً إلى علاوات سَفَرهم.

كانت رؤية أضواء الموصل Mosul مطمئنة جداً، وهي تلمعُ أمامنا على مسافة ليست بالبعيدة.

بقينا ليلةً في دار الإقامة، وهي فندق سكة حديدية دون سكة حديدية، عالٍ وجاف بين طرفيها المتراميين، فلا أظنُّ في أيّ مكان آخر في العالم يمكنُ أن يقرم أحد بالقيادة مسافة مائة ميل عبرَ منطقة عسيرة للقدوم من محطة قطار إلى فندق محطة القطار. لقد كنتُ متعبّةً جداً عند الوصول، ولم يتبادرُ إلى ذهني أبداً أن أجِدَ مفاجأة ولو كانت بسيطةً تنتظرني، فقد كان ثمة ديكان روميّان ضخمان يتجولان في الممرّ خارجَ غرفتي، ويقدمان التحيّة بلطف.

انطلقنا في الصّباح التّالي بالسيارة خارجَ الموصل، عبرَ أيكتهّا⁽¹⁾ الذّهبيّة من المآذن الجميلة وعبرَ طرقها الضّيقة المغمورة بالشّمس إلى أجواء الريف المتألقة مرّةً أخرى باتجاه الجسر القريب الذي يجتاز نهرَ دجلة Tigris إلى خُرساباد التي تقع إلى شرق النهر. قطعنا نهرَ دجلة فامتدَّ أمامنا حاجز طويل منخفض مغطى بالأعشاب. وتعرّج الطّريقُ الرميّ في صدع عبرَ ضفافه الخضراء؛ وذهبنا بالاتّجاه الشماليّ الشرقيّ عبرَ منطقة زراعيّة هادئة. لم يكنْ هناك شيء ليُظهر أنّ تلك الأرض المعروثة الهادئة التي يقطعها طريق ونهر صغير متلائي فقط، كانت تُعجّ ذات مرّة بجموع محتشدة ومراكب حرب وجنود، فتلك الضفافُ الخضراء التي عبّرناها كانت في الماضي الجدران الغريبيّة لنيوى القديمة، ونحنُ الآن نعبرُ الموقع من المدينة نفسها. جاء النبي يونس

(1) الأيك: الشجر الكثيف الملتف. (القاموس المحيط، ص 1203). وهنا تشبّه كثرة المآذن بأجمة ملتفة من الشجر.

Jonah إلى هنا، يدعو بشجاعة إلى عبادة الله بعد خلاصه. وتحمل التسمية القديمة لـنينوى ارتباطاً واضحاً مع الكلمة السامية القديمة «سمكة»، وهناك نظرية تقول إن الحوت الضخم الذي اختفى فيه مدّة ثلاثة أيام كان ببساطة خطأ في الترجمة لمتاهة كبيرة في المدينة ابتلعتة عدّة أيام إلى أن ظهر كنبى وداعية إلى الله.

وعلى بعد ميل ونحن ما نزال نسير مع النهر يداً بيد، عبّرنا عبْر الجدران الشرقيّة. كان نهر الخسر، قد أطلق اسمَه على قرية خُرساباد المحدثّة؛ كان هذا النهر، أوسع وأقوى وأعمق في ذلك الحين، وقد شقّ منذُ عهد بعيد الجدار الشرقيّ لـنينوى Nineveh، تلك الفجوة التي فيه والتي مشينا فيها لتوّنا بسلام نحن وهو، وكان قد غمر بفيضانه جزءاً كبيراً من المدينة الكبيرة؛ مما أضعف مقاومتها الأخيرة ضدّ أعدائها.

ظهر الآن جمال الأرض وبدأ يُشعرني بالدوار، فقد كانت تلك المدينة هنا لتبدو جميلة في أيّ وقت - إلا الآن، عند رؤيتها للمرّة الأولى بعد أشهر أمضيّتها في الأرض القاحلة الجنوبيّة، فقد حمّلت رسائل كثيرة لترسلها العيون إلى الدماغ، دماغ في طور النقاّة يحتاج أن يُشرح له معنى اللون والشكل من جديد، ربما كانوا بمجموعهم يشكّلون جرعة كبيرة إلا لتلك الأفكار المُسبّقة الضعيفة ولومضات الجمال العابر في إحدى الأمسيات قرب تل أسمر.

كنا نرتفع قليلاً الآن، وكلما اقتربنا أكثر من التلال الخضراء العالية التي ما تزال على بعد عدة أميال أمامنا حوت الأرض المحروثة في كلّ جانب من الطريق القاسي أشياء حمراء غنيّة دافئة تشبه ما يراه المرء في ديثون Devon، وصار العشب السّميك متألقاً؛ وبرزت حقول هائلة من الخردل الأصفر مقابل السّماء الربيعيّة الصّافية، وارتفعت ذرى ثلجيّة في الجوّ النقيّ خلف التلال. كما سالت القنوات بمياه فوّارة في كلّ مكان، وكانت الأرض المعشوشبة مرشوشة بقطرات الندى ومثورة بشقائق نعمان قرمزيّة وزنبق برّيّ باهر.

اندفعنا مسرعين على طول الطريق الذي كان سرغون والد سنخريب Sennacherib بناه لنفسه حوالي نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، عندما أنشأ عاصمته الجديدة هنا، كنا

قريبين جداً من سفوح التلال، وإلى اليسار منا خلف النهر تماماً، قامت مجموعة من بيوت صغيرة مَقَشَّشَة السَّقُوف تحت أشجار طويلة. كانت تلك قرية خُرساباد. وفي الجانب الآخر قريباً من الطريق لاحت رابية ضخمة، كانت تلك هي التلة التي بناها سرغون، وعلى قمتهابُنِيَ قَصْرُهُ، بعيداً عن جدار المدينة. استمرَّ الطريقُ إلى الأمام يلتفُّ في قلب الهضاب بممرّات ضيقة منخفضة. ولكن تمهَّل السائق الآن وانعطف خارج الطريق، وأنزل تُرس المحرك إلى الأوّل ثم أعطى السيارة شحنةً قويّة من الوقود كي تعلق في مرتفع طينيّ حادّ وقصير أوصلنا إلى منطقة كبيرة منبسطة في القمة. لقد وصلنا إلى بوابات قصر سرغون.

هنا وعلى هذا الارتفاع استطاع الملك متابعة مراقبة الجبال في الشرق والشمال، على سهل يقع في الغرب، وفوق مدينته المسورة الجديدة التي امتدّت كلّها إلى الجنوب من القصر. جاء إلى هنا من نينوى مع وريثه الشاب سنخريب، على طول الطريق الذي شقّه بنفسه، الطريق ذاته هو الذي اجتزناه نحن. أمضى هنا سنخريب صباه، بينما زحفت جيوش أبيه إلى مناطق واسعة، وسبّغت رُعباً وخراباً لكلّ مَنْ وقف في طريق مملكة آشور Assyria الجبّارة. استمع إلى النبي ناحوم⁽¹⁾: «هو صانع هلاكاً تاماً، قد جاء على وجهك، تهيج المركبات في الأزقة، تترامس في السّاحات، منظرها كمصابيح تجري كالبروق». ومن ثم تكهن بسقوط آشور، صائحاً: «أين مأوى الأسود، ومرعى أشبال الأسود، حيث يمشي الأسد واللبوء وشبل الأسد وليس من يُخوّف؟ انظروا! ها أنا ذا عليك، يقول ربُّ الجنود».

كانت المنطقة أعلى الرابية الضخمة كبيرة بشكل كاف لتضمّ قصرًا وثلاثة معابد على الرغم من أنّ المشروع كان ضخماً فقد بنى المبنى كلّهُ من آجرٍ متنوع صغير مجفّف تحت أشعة الشمس. وفكّر أحدهم بأن يتمّ تأمين الأيدي العاملة من جيش هزيل من أسرى الحزب ساروا إلى العمل الإجباري في أرض العدو، وهكذا كان العديد من العمّال موجودين.

(1) انظر سفر ناحوم النبي، 1-2.

في الزاوية الجنوبيّة الغربيّة من المنصّة برزت رابيّة معشوشبة، على بقايا مفتتة لبرج المعبد، أي زقورات سرغون- وفي الوسط من المنصّة كان دائر البعثة الأثريّة. بدا منظره المتداعي مبهجاً وصغره مقارنة بالخطوط الأنيقة للدّار في تل أسمر. وله جدار طويل مكسو بالطين البنيّ في ناحية الغرب مقابل الموصّل؛ كان جزءً منه مسقوفاً بقش، وفي المركز له فتحة سماوية مربعة كبيرة، يدخل ويخرج منها دجاج عادي وديك رومي أو اثنان والكل يتجول تحت أشعة الشّمس.

جاء غوردون فجأةً عبر المدخل حيث سمع لتوّه هدير سيارتنا على المنحدر؛ كان خجلاً وضاحكاً ومرحّباً. أخبرنا أن كلاً من هانز وستون وجايك قد ذهبوا إلى التلال الخلفية، وكانت عودة هانز متوقّعة في ذاك المساء. قادنا عبر المدخل، ورأيتُ أنّ المنزل كان يتألّف من فناء واحد كبير معشوشب محاط بغرف صغيرة. كانت غرفتي الخاصّة في الجانب الشرقيّ تشبه كوخاً صغيراً، بسبب سقفها المصنوع من القش، ولها مدخل سطعت عليه شمس النهار وحوى عند العتبة حجارة رصيف بيضاء، على جانبيها نباتات ياقوت أزرق داكن كبير ورنجس شاحب تُعطر الهواء الدافئ. ظللتُ أشعرُ بالدوار. تضمّ الغرفة الصّغيرة نافذة صغيرة تطل غرباً، وعبرها استطعت من خلالها رؤية منصة خلف المنزل من عشب عرضها تقريباً عشرة أمتار تنتهي على نحو مفاجئ كحافة جرف، حيث كان جزء من القصر المكتشف يقبّع هناك، وخلف شعب عريض انحدرت تلة بلطف على هذا الجانب نحو الحقول الخضراء، لترتفع مجدداً قريباً جداً بعلوّ شاهق أعلى وأعلى إلى الأفق الجميل للهضاب الخضراء الهائلة. نظرتُ نحو اليسار واستطعتُ فقط رؤية الطريق الأبيض ملتفاً عبر العشب باتجاه صدع في الهضاب، وفي البعد تملأ خلفية الممرّ القمّم السّاحرة المكلّلة بالثلوج التي أخذت تملأ خلفية الطريق، والتي علمتُ أنّي لن أستطيع التحديق بها لفترة طويلة.

كان المنزل محلياً قديماً بُني فوق جزء صغير من قصر سرغون؛ هو كلّ ما تبقى من مستوطنة هنا في الأعلى بناها قرويّو خرساباد. وعندما قامت بعثة تنقيب أوسع للقصر ألزمت القرويين الانتقال قبل عدّة سنين، ولكنّ القرويين لم يتزحزحوا رغم

التعويضات الجزيلة التي قدّمت لهم مقابل خروجهم. لقد كانوا هنا دائماً مستمتعين بصحة جيدة، كما قالوا بينما كانوا دوماً في الأسفل عبر الطريق يُصابون بحرارة رهيبة. لقد كانت مشكلة، ذهب پير إلى الأسفل ليلقي نظرة على القرية المهجورة في سفح التلة، واكتشف بركة كبيرة راكدة تُعجّ بالناموس؛ فحفر قناة منها إلى النهر القريب، فذهبت البركة والناموس بعيداً؛ وبعد إقناع صغير آخر رحل القرويون، ولم يعانوا من هجمات المَلاريا مرّة أخرى. كانت البيوت على التلة الآن قد هُدمت، كلّها إلا واحداً، وتتابعت الحفريات باتجاه جدران دار البعثة مباشرة.

أخذنا غوردون بعد الغذاء أنا وهال في جولة حول قمة التلة. وقفنا على حافة الشُرفة المعشوشبة خلف المنزل، ونظرنا إلى أسفل نحو غرفة مرصوفة طويلة جداً امتدت شمالاً وجنوباً. كان هناك في الطرف الجنوبي بقايا درجات تقود إلى عرش حجريّ ضخّم ارتفع من قلب كتلة متشابكة من أزهار وعشب.

قال غوردون: «هذه هي غرفة عرش سرغون، ومدخلها من الفناء الخارجي هناك». وأشار إلى جانب طويل من الغرفة مقابلنا، حيث قطعت الجدار العميق فجوة واسعة. وفي الفجوة نفسها بعض الكسر من حجارة بيضاء تلتصق في العشب.

تابع: «هناك عثروا على الثيران المجنّحة، والتي يوجد واحد منها في شيكاغو، وقد أحاطت بذلك المدخل الذي يقود من الفناء إلى داخل غرفة العرش».

التفطنا مرة أخرى حول المنزل إلى الجانب الغربي للتلة، ونظرنا فوق سهل واسع، امتد الطريق والنهر منحنيين متباعدين سويّاً باتجاه أبعد من الموصل؛ استطعنا فقط تمييز حدّ ضعيف من الجدران الشرقية لنيوى، ولكن سديم النهر ارتفع فوق دجلة في الخلف، مغطياً الأفق بعيداً نحو الجنوب، استطعت رؤية هضبة هرمية الشّكل، انتصبت بنية وراسخة فوق السّهل الأخضر.

قال غوردون: «لقد كانت نمرود Nimrud عاصمة مملكة آشور بعد مدينة آشور Assur وقبل نيوى. ومدينة آشور في الاتجاه نفسه، ولكن أبعد بكثير من هنا، خلف

النهر - أبعد من أن تُرى». أخبرناه أننا عبرناه في وقت متأخر ليلة البارحة.

على امتداد هذه الأرض التي ترجعُ صدى الماضي القديم يدرك المرء لغة التكوين: بابل، أرك، أكد، آشور، نينوى، والآن نمرود؛ الذي ربما كان أسمه على غرار آشور يعكسُ ذكرى غامضةٍ لإله بطل أسطوريٍّ قديم⁽¹⁾: «وكوش ولدَ نمرود، الذي ابتداءً يكون جباراً في الأرض، الذي كان جبار صيدٍ أمام الرب. لذلك يقال: كنمرود جبار صيد أمام الرب. وكان ابتداءً مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة، في أرض شينعار. من تلك الأرض خرج آشور وبني نينوى».

قريباً جداً منّا أسفل في مستوى الأرض على الجانب الجنوبي من التلة شكّلتُ خطّة بناء ضخمة في الأرض المعشوشبة محتشدةً بعمال وأولاد يحملون سلالاً. استطعت رؤية حُمْر بلون برتقالي براق، وقرمزي لامع - أحزمة هائلة مربوطة بلون أزرق وأخضر وأرجواني - وومضة عرضية لكتان أبيض. بدت كما لو أنّ رجالاً من هذه الجنة السّاحرة لن يستطيعوا الحصولَ على لون كاف، ولكنّ عليهم لفّ وجوههم الداكنة وقاماتهم الرشيقة في تألق مماثل.

قال غوردون: «الثوران الجديدان هناك، تعالوا وألقوا نظرةً عليهما».

كانت الأرضُ المرصوفةُ للبناء تقريباً على بُعد عشرين قدماً أسفل مستوى الأرض الجديدة؛ مشينا بين منحدرات عالية لتربة حمراء مكللة بعشب وأقحوان أصفر، ثم اتجهنا نحو الزاوية والتقينا فجأة، كان المدخلُ الساحرُ محاطاً بوحشين هائلين. كانا مثيرين. وكان غوردون قد نظّفهما بشكل كامل، وعلى الأرض كان رجاله قد نقلوا أطناناً لا تُحصى من التراب من اللحظة التي صادفَ فيها للمرة الأولى هامة أحد الرأسين على مسافة قليلة تحت مستوى الأرض.

تألق الثوران بلون أبيض، وحدّقا بهدوء بعيون لطيفة بعيداً فوق رؤوسنا، وامتدّت أجنحة هائلة عالياً فوق ظهورهما الفخورة. كانت هذه الوحوش الضخمة، وهي

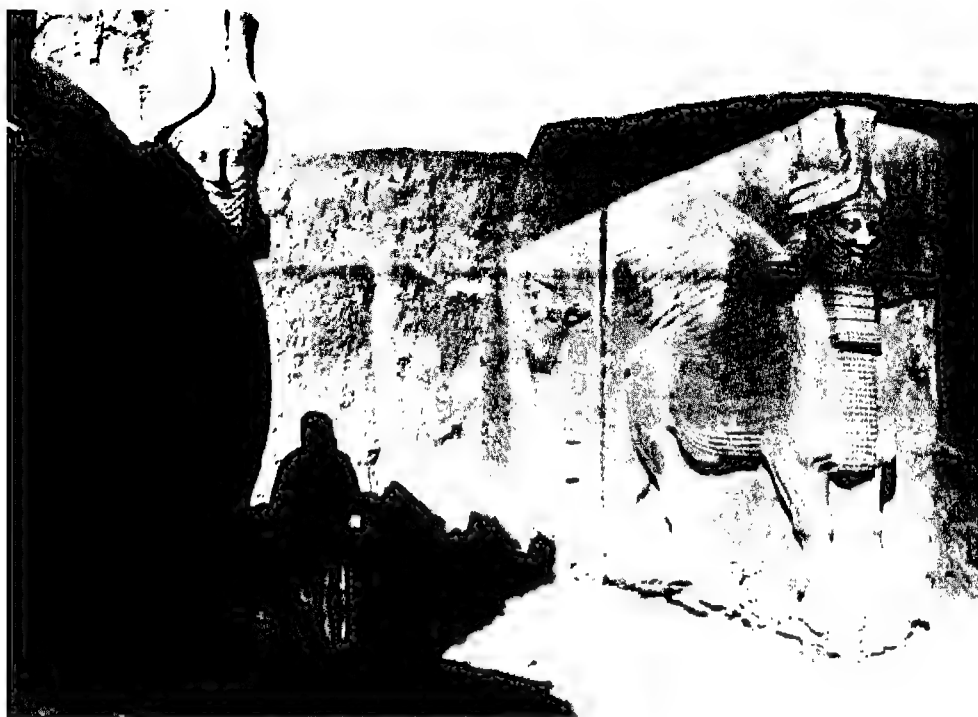
(1) سفر التكوين، 10: 8-11.

«الكروبيم» الأصلية الواردة في العهد القديم، تضم شكلين يظهر عليهما بشكل ساحر التباين بين وجهيهما المبتسمين الرقيقين الملتحيين، وجسديهما العدوانيين الضارين. كانا إلهين جليلين حما الملك الذي أجلسهما على مداخله، ولكنهما أيضاً مفترسان بالهجوم لقهر كل شر يمكن أن يدنو منه.

كان غوردون قلقاً عليهما بقدر ما كان سعيداً بهما. وقال: منذ أن انتشرت الأخبارُ باكتشافهما حصلَ على موجة كبيرة من الزوار جاؤوا من الموصل ليلقوا نظرةً عليهما، وعلى الرغم من وجود الحراس الذين تُركوا في المكان بين مواسم التنقيب فإنه لم يطمئن البتة عندما فكر بالمخربين الذين يحبّون نحت الحرف الأول من أسمائهم على الآثار، أو حتى كسر قطعة منها للذكرى، وصل إلى نتيجة على الرغم من أنها مكلفة في شروط أجور العمال كما اعتقد أنّ أفضل طريقة للتخلص من ذلك هي أن يقوم بإعادة دفنهما. وهذا ما فعله في نهاية الفصل؛ ولكن الكروبيم لم يعانیا أكثر من كسوف المؤقت هذه المرة، ذلك لأنهما اليوم يقفان بفخر في بغداد، يطوّقان بشكل مناسب جداً المدخل إلى المتحف هناك⁽¹⁾.



(1) أيضاً لا أدري ماذا حلّ بهما بعد سقوط بغداد في أبريل 2003 ونهب المتحف العراقي. ومن مفارقات الدّهر أن كاتبة هذه السطور، ماري تشب، توفيت في يناير من السنة ذاتها 2003، ولم يؤلمها القدر بمعرفة ما حصل لأثارها السّومريّة والأكادية الغالية على قلبها.



نوعان من الكائنات المبحنة
في خُرساباد



عندما تسلقنا قَمَّةَ الراية مرةً أخرى، أوصدت سيارةً المنحدر في الجانب البعيد، وقفز هانز إلى الخارج؛ كان هانز الأسمر جداً والمرح مبتهجاً وطلقاً، يحمل سترته على ذراعه.

نادانا: «إذا أنتم هنا - جيد! هذه المدينة - *mon Dieu*! (يا إلهي) - بعيداً جداً عن الزهور عليكم برؤيتها في جِروان - ولكن عليّ أن أخبركم عنها - سيبقى الآخرون هناك لمدة شهر، وسيكون لديهم معدات سترسل إليهم غداً. غوردون، هل بالإمكان الحصول على شاي من فضلك؟ خارجاً في الفناء؟ لا أستطيع البقاء بعيداً عن العشب».

انتقلنا جميعاً عبر المدخل، وجلسنا في ضوء الشمس لتوّنا نستمع إليه، لقد كان يوسّع التنقيب من أجل تتبع مفتاح لغز كان جايك قد عثر عليه مصادفةً في السنة الفائتة، بينما تابع غوردون ليدبر العمل في خرساباد. قد استخدمت تعبيراً مجازاً بحرياً، فقد حمل هانز رايته في خرساباد كأمرال استراتيجي، بينما ترك غوردون ليواصل نشاطه كقبطان لا يناقش، وقد قام بعمله بفعالية ممتازة.

كانت مدينة سَرغون على أية حال ذات الاهتمام الثانوي بالنسبة لهانز، على الرغم من أنه استطاع الإعجاب بروعة مفهومها، ومهما كان التنظيم الذي بناه سَرغون، فقد كان هدفه في الدرجة الأولى تنفيذ مخططات واسعة من الفتح مرفقة بعمل وحشي عديم الرحمة. وكانت النقوش التي تحكي قصة بسالة سَرغون في الحرب والصيد والتي نفذتها أزاميل مختصة باردة قد تركت هانز بارداً كبيروها في مواضيع تلك النقوش وفي طريقة تنفيذها، فقد أخبرته تقنيّتها المصقولة المتقنة عن الانهيار والموت وعن نحّاتين يتبعون عُرفاً مرهقاً متخلفاً في الزمان عن عام 700 قبل الميلاد. وعلى الرغم من كونها شاذة فهي تبدو متأخرة في الزمان عن أولئك الذين يفكرون بمعايير 2000 و3000 وحتى 4000 قبل الميلاد. لذا فإنّ سعادته تتفجّر في هذا المكان بشكل كامل من الجمال الذي يحيط به، وبالمقابل حيث كانت أرض الصحراء في الجنوب تُطبق بشدة على معنوياته، فإنّ العمل نفسه قد استحوذَ عليه مع ذلك. فهناك في الجنوب

في تل أسمر كان قرب بداية التاريخ قرب ظلال فجره، وكان رائداً انتقل إلى الأبعد في الأعماق المجهولة وإلى النور المتقطع لكل اكتشاف جديد، حيث كان رجال متلهفون قد خرجوا مؤخراً من صراع البقاء، يجربون في الصخور والمعدن لأول مرة بأيديهم المجردة لخلق نزعات في عقولهم المندفعة.

هنا تماماً كان اهتمام هانز العميق في التعبير عن فكر الإنسان القديم عن طريق دراسة مخلفاته المادية عبر العصور في العالم، وأنا أعرف أنه قد انشغل بالدراسة في مقارنة التماثيل المصرية القديمة وتماثيل بلاد ما بين النهرين، واختلاف مظهريهما على ضوء كنوز التماثيل التي وجدت في أبي سُمبل. وبينما كان هنا في ضوء الشمس يأكل كعكة محلاة، ويخبرنا بمرح عن سنخريب Sennacherib كان لديه نقطة أرق لابن سرغون هذا، الذي ما كان ليختارَ بينه وبين الأب والابن عندما نتحدث عن ممارستهما الوحشية، فالابن على الأقل كانت لديه رغبة في الزراعة غير موجودة لدى أبيه. وكان هانز نفسه بستانياً متمرساً ممتازاً.

عندما تولى سنخريب الحكم في عام 705 ق. م هجر مدينة والده الجديدة، وعاد إلى نينوى التي أصبحت أقوى عاصمة عرفتها إمبراطورية الآشوريين على الإطلاق. كانت جيوشه قوية، وحملته العسكرية مدمرة، وعلى الرغم من ذلك فهذا لم يكن مجال اهتمامه الوحيد، إذ كان عقله مركزاً على بناء نينوى التي هي أجمل مدينة في العالم، وكان ناقدًا لإحجام أسلافه عن فعل ذلك. قال:

«لم يبذل أي واحد منهم اهتمامه العميق للتفكير بالقصر في الداخل، أو حتى أن قلبه آمن فيه، قصر المقر الملكي الذي أصبح منظره هزيلًا. ولم يعمل تفكيره، ولا أعطى توجيهاته لمد طرق المدينة وتوسيع الساحات وحفر قناة، أو زرع الأشجار».

فقرر أن نينوى يجب أن تتوسط في أحضان أراضي المتنزهات والحدائق والبساتين؛ ولم يُضغ وقتاً. وقال بعد سنوات قليلة من ارتقائه العرش:

«زرعت جزءاً كبيراً أينعت فيه جميع الأنواع من أعشاب وفواكه بستان، وأشجار

كالتّي تنمو على الجبال وفي كلدان Chaldea، زرعُها عندَ جانب القصر. ومما يمكن أن يُنبَتَ بساتين، قسَمْتُ بعضَ الأراضي المشاعة فوق المدينة لقطع أعطيَها لمواطنين من نينوى، من أجل عملِ بساتين غنّاء من حدود المدينة في كسيري Kisiri إلى السَّهل قُربَ نينوى، عبرَ الجبل والأرض المنخفضة. وبمعاول حديدية قطعْتُ ووجَّهْتُ قناة، جعلْتُها تفيضُ بمياه مستمرة الجريان من نهر خوسر Khosr إلى داخل تلك البساتين في قنوات للرّي».

كانت مشكلته الأكبرُ التزوّد بالمياه. فطاف بنفسه طولاً وعرضاً في المنحدرات والجبال، يستكشف كلَّ جدول ويحوّل مساره إذا اسْتَطَاعَ إلى نهر خوسر، حفرتُ معاولُ رجاله طريقاً للماء عبرَ الصُّخُور في مكان واحد، وفي آخر بنوا ضفافاً ترابيةً للسيطرة على الفيضان. قال إنّه تسلّقَ جبلَ موسري Musri أثناء بحثه - ولم يكن جبل موسري إلا الصّفّ الأخضر، جبل بعشيقه Jebel Bashiqa، الذي يمتدُّ في الأعلى هناك خلفَ المنزل؛ قال إنّه تسلّقَه بصُعوبة شديدة، وذلك مفاجئ لمثله فالمعروف عنه أنه نشيط جداً، فمنحدراتُ الجبل الخضراء شديدة الانحدار لم تكن أصعب بالسير من مرتفعات الآكام الجنوبيّة. وربما كان قد اعتاد أيضاً على حركة رشيقه لمركبة حربيّة، حملته على الأرض في مواجهة مدينة عبريّة منكودة الحظ. هناك ذهب سنّخريب، شخصٌ صغير يخطو خطى واسعة على طول الأفق متبوعاً على الأغلب بقافلة من الكهّان وموظفي المحكّمة ومهندسين، قد يتعرقون قليلاً، لكنهم يبدلون غاية جهدهم للاستمرار في الصُّعود؛ بينما راح هو يشتم رائحة ماء والمزيد من الماء لمدينته الخضراء المحبوبة، غير آبه ببناء أبيه العظيم المُمتدّ أسفل منه تماماً، والذي كان قد آل إلى السُّقُوط. ولكن بعدَ زراعته المزيد من الأراضي حول نينوى، جعلها من شجيرات وأشجار نادرة وغلّال، ووجد أنّ عليه الدّهَابَ أعمق في الجبال نحو الشرق، ليجرّ المزيد من المياه البعيدة لحاجاته.





مختار جروان جالسا على كتل من الحجر
منقوشة بشذرات من كتابات تذكر أعمال ستحريب



ستون وجايك يقفان على قناة الماء، وخلفهما قرية جروان

أخبر عامل في خرساباد جايك في السَّنة الماضية أَنَّهُ كانت هناك قرية في الجبال حيثُ بُني قسم من المنازل، فيها قطعَ كَثيرَة من الحَجَر عليها كتابَة. اسْتَمَعَ جايك بكسل، فقد اعتادَ علماء الآثار أن يُقادوا لأُميال عَبرَ مناطق وعرة ليروا نقشاً مدهشاً، فيتبين بعد العناء أَنه لا أَكثر من سطح صَخْرَة قاسية مَخْدُوشَة بِشكل طَبيعي. ولكنَّ هذا الرَّجُل كان لديه من الفُطْنَة والإمكانية أَن عملَ رُسُومات لبعض العلامات؛ قال إِنَّها كانت على حَجَر، وقد اعتادَ صاحبُ المنزل اسْتِخدامَها كمقعد خارج الباب.

عندها أَصْبَحَ جايك مهتَماً بالإشارات على الورقة والتي كانت بلا ريب مُسمارية، فقامَ بِحَمْلَة على متن حمار مع حُسين العامل. ذهبَا عَبرَ الممرِّ خَلْفَ المنزل، إلى الأمام عَبرَ سهلٍ كَثير إلى قرية صَغِيرَة تُدعى عين سفني⁽¹⁾، إلا أَنَّ حُسيناً لَمْ يَتَوَقَّفْ هناك بل التَفَّ نحو اليمين في الجَنوب الشَّرقي، وذهبَا بضعَ أُميال يتبعان طريقاً صعباً جداً إلى أَن دَخَلا وادياً يغرُجُ فيه نَهْر. في الجانب البعيد من النَّهر تَقَعُ قرية جروان، التي بُنيت مُستويةً على طول ضفَّة مَعشوشبة، امتدَّت على الجوانب اليُمْنى للنَّهر، وتبْدُو كأنَّها جُزء من جسر منخفض مطمور.

كان القرويون من طائفة اليزيدية، وهي طائفة غريبة من الشماليين يتكلمون لهجةً محليَّةً من اللُّغة الكرديَّة تخصُّهم وحدهم؛ عندهم ضريح بهيَّ حُفَظَ بعناية شديدة في أَعلى الجبال ما وراء عين سفني قليلاً. اصطحب حسين جايك ليرى المُختار، أي زعيمَ القرية، الذي اسْتَطَاعَ لحسن الحظ أن يتكلَّم اللُّهجة اليزيدية المحليَّة بِشكل مقبول، وقام بدور المترجم. كان علي المُختارُ جالساً يُدخِّنُ بهدوء خارجَ منزله الذي كان مَبنيّاً مقابل الضفَّة المَعشوشبة. كان يجلسُ على مَقْعَد طویل حَجَرِيٍّ مَصنوع من

(1) عين سفني: تقع في محافظة نينوى شمال مدينة الموصل على بعد 60 كيلومتراً، وهي مركز قضاء الشيخان، وهي من المدن المهمة للديانة الإيزيدية (اليزيدية) لوجود أكبر معابدها هناك، وهو معبد لالش التوراني. يدعي البعض أن اسمها مشتق من قصة سفينة نوح، حيث يوجد بقرب عين مائها تل يعرف بتل السفينة. ويُلفظ اسم عين سفني بالكرديَّة: ئيسفني. وإلى الشرق منها قرية (جروانا) التي تبدو فيها آثار أفنية الماء التي أمر بإنشائها الملك الآشوري سَنحريب ابن الملك سرجون الثاني.

أَرْبَعُ كُتْلَ بَيْضَاءَ كَبِيرَةٍ. احْتَوَتْ مُقَدَّمَةَ الْكُتْلِ نُقُوشًا حُفِرَتْ فِيهَا، تَمَامًا كَمَا قَالَ حُسَيْنٌ؛ وَلَكِنَّهَا كَانَتْ مُجَرَّدَ شَطَايَا مَخْتِيَّةٍ لِلرَّجَاءِ. وَلَكِنْ عِنْدَمَا نَهَضَ الرَّجُلُ الْمُسْنُ لِلِقَاءِ التَّحِيَّاتِ، شَاهَدَ جَايِكَ أَنَّ هُنَاكَ نَقْشًا أَكْثَرَ غِنًى، حُفِرَ فِي كِتْلَةٍ فِي الْجِدَارِ مُقَابِلَ الْمَكَانِ حَيْثُ كَانَ الْمُخْتَارُ يَسْتَنْدُ، وَبَعْدَ تَبَادُلِ التَّحِيَّاتِ امْتَدَّ جَايِكَ بِاتِّجَاهِ الْجِدَارِ، وَقَرَأَ عَلَى حَجَرٍ بُنِيَ فِي هَذَا الْبَيْتِ الصَّغِيرِ الْمَقْشَشِ السَّقْفِ فِي الْقَرْيَةِ الْهَادِئَةِ الَّتِي تَبْعُدُ مَا يَقَارِبُ ثَلَاثِينَ مِيلًا مِنْ نِينَوَى، قَرَأَ:

«هَذَا مِلْكٌ لِسِتْخَرِيبِ

مَلِكِ الْعَالَمِ، مَلِكِ آشُور».

سَأَلَ: «مَنْ أَيْنَ أَتَتْ هَذِهِ؟».

«مَنْ السَّدِّ فِي الْخَارِجِ - اسْتَخْدَمْنَا حِجَارَتَهُ عِدَّةَ سِنَوَاتٍ».

ذَهَبَ جَايِكَ وَنَظَرَ إِلَى الضَّفَّةِ الْعُشْبِيَّةِ الْوَاسِعَةِ؛ وَالَّتِي تَصِلُ إِلَى نَهَايَةِ فِي قَاعِ النَّهْرِ، وَتَتَابِعُ بَعْدَهَا بَوَاضُوحَ عَلَى الْمَكَانِ الْبَعِيدِ حَتَّى تَخْتَفِيَ فِي الْأَرْضِ الْمُتَرَفِّعَةِ إِلَى الْغَرْبِ. سَأَلَ إِنْ كَانَ يَوْسَعُهُ تَنْظِيفُ قِسْمٍ مِنَ الْجَانِبِ الْعُمُودِيِّ لِلضَّفَّةِ مِنَ الْعُشْبِ وَالتُّرَابِ؛ فَأَرْسَلَ الرَّجُلَ الْعَجُوزَ فِي طَلَبِ بَعْضِ الْقُرُوبِينَ لِقَطْعِ الْمَرْجِ. التَّمَعَّ عَلَى الْفُورِ حَجَرٌ أَبْيَضٌ عَبْرَ التُّرَابِ الرَّطْبِ، وَامْتَدَّتْ نَقُوشَاتُ وَاضِحَةٍ مَنُحَوْتَةٍ عَلَى طُولِ وَجْهِ الْجِدَارِ الْمَقْطُوعِ وَاضِحَ الْمَعَالِمِ، ثُمَّ لَتَخْتَفِيَ خَلْفَ مَنْزِلِ الْمُخْتَارِ الَّتِي قَابَلَهَا هُنَا فِي الزُّوَايَا الْيَمِينِيَّةِ. نَظَّفَ جَايِكَ آخَرَ مَا تَبَقِيَ مِنَ الطَّبَقَةِ الْعُلْيَا مِنَ التُّرْبَةِ وَقَرَأَ النَّقْشَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَفِيَ بِالْمَنْزِلِ:

«أَمَرْتُ بِحَفْرِ...

فَوْقَ وَهْدَةٍ عَمِيقَةٍ

مَدَدْتُ جَسْرًا مِنْ... بَيْضَاءِ

أَمَرْتُ بِالْمُرُورِ فَوْقَهُ...».

لقد علم الآن أنَّ الضَّفَّةَ المعشوشبةَ كانتَ جسراً من نوع ما، وليسَ سداً - ولكن ما هي الكلماتُ المفقودة؟ ماذا كان لدى سَنَخْرِب «لِيَأْمَرَ بِالْعُبُورِ فوقَه؟» هل كانت مركبته البحرية؟ أم جيوشه؟ لقد كانَ هذا هاجساً له وأراد اكتشافَه بشدة. أخذَه المُختارُ عائداً إلى بيته الصَّغير، الذي بُنيَ بِشَكْلٍ كاملٍ من حجارة قُدِّمَتْ لَهُ من الملوك الآشوريين الأقوياء، وأعطى لَهُ ولحسين خبزاً لِيَأْكُلَاهُ حُشي بقشدة الحليب اللذيذة والعسل. قال مرةً أخرى: إِنَّ الضَّفَّةَ في الخارج كانت سداً؛ ولقد بناه ملك منذُ زمنٍ قديمٍ جداً؛ لحفظ مياه الفيضان القادمة من الجبال، لذا فإنَّ أرضَ سهل جروان يمكن أن تُجَفَّفَ وتُصبحَ مرعى، ولكن جايك انصرف فكره إلى شيءٍ مُختلف، لقد كان مشغولاً جداً بمحاولة التوازن بين القشدة والعسل في رغيف الخبز، على أن يَقُومَ بالمزيد من النقاش. وافق هانز بأنه كان يستحقُّ البَحْثَ بجدارَة؛ والآن في هذه السنة كان هو وريغموور وستون قد عَيَّنُوا في بَيْتٍ صَغيرٍ مُقَشَّش الشَّفَف في عين سفني، للبدء بالعمل لكشف التَّركيب الغامض في الوادي البعيد عند جروان.

في وقتٍ مُتأخِّرٍ جداً من اللَّيْلِ أخبرَ الحارسَ عن سَيَّارة آتية على طُول الطَّرِيق من الموصل - وتقدَّمت فيما بعد ببطء على المنحدر؛ وخرج منها أناس خفاجيون. لقد كانوا في رحلة رهيبَة أولاً عبرَ عاصفة رملية شديدة عندما كانوا في القطار، ولم تؤدِّ التَّوافدُ المُتَحَرِّكةُ إلى صدِّ أيِّ منها؛ ومن خلال المَطَرِ الغزير وهم يسيرون إلى الأمام. (...عالم الكابوس هذا الذي كانوا يصفونه بدا بالنسبة لي غير حقيقي). كان السائق قد تنقَّلَ في مُعظم مَنَاطِقِ العراق الشَّمالِيَّة، وظنُّوا أَنَّهُ كانَ يَبْحَثُ عن الطَّرِيق الأكثر جفافاً لِيُسلِّكه. قالتِ بتي ذاتُ الوجه الأبيض وهي تغوصُ في كُرْسِيِّ قَرَبِ النَّارِ، وقُبَعَتْها مُنْسَدَلَة على حواجِها: «وإذا أخبرَني أحد ما بأننا قدمنا إلى هُنا في طريقنا إلى شيكاغو فسوف أصدِّقُهم». كان پيرير يريِدُ البقاءَ في الموصل عندما وصلوا إليها أخيراً؛ ولكنَّ البَقِيَّةَ أَلْحُوا على الاستمرار لخمسة عشرَ ميلاً أخرى للوصول إلى هنا، ليموتوا بشكلٍ مريح بين أصدقائهم. اندفعنا نحوهم لِنُسانِدَهم ونُخَفِّفَ عليهم، حتَّى أَصْبَحُوا سريعا بغاية السَّعادة، وقد نَسُوا مَتاعِبَهم.

حتى هذا اليوم لم أكن أعرف ماذا يُفترض بمعظمنا أن يعمل في ذاك الربيع المُبهج في خرساباد. فهانز كان يرغب كثيراً أن يقوم بالبحث في تلة عالية تُدعى شينشي Shenshi تبعد قليلاً على امتداد الطريق، وقام بيير وماك وهال بواجبهما بشكل تام كل يوم، ونقبوا فيها، ولكن في إطار ذهني غير مسؤول وقتئذ لم أستطع ادراك ماذا يفترض بهما أن يهدفا إليه، وما إذا كانا يفعلان ما يهدفان إليه فعلاً. لقد بدأ ذلك بشكل محبط، على أعلى قمة بمقبرة قديمة. أخبرني هال بأن كل ما فعله كان تسلق قمة شينشي كل صباح، وكان يمشي حوله مبتسماً بلطف للمشهد، ويقوم برحلات بين الفينة والأخرى فوق هيكل عظمي.

كان هام يساعد غوردون في مسح الأرض، ولكن عندما كان يفاجئه أحد بشكل غير متوقع يراه ممدداً على ظهره في المَرَج ومعه لفافة تبغ، مبتسماً بلطف للسماء. ومن الممكن أن يقول إنه مثل هايمن كابلان Hyman Kaplan، كان يقوم ببعض «التفكير العميق».

قامت راحيل بمساعدة غوردون دون تمييز بالتسجيل، وبالأعمال الروتينية الداخلية، وحاول هانز أن يُرسل تقارير مُحكمة إلى شيكاغو؛ بينما في حقيقة الأمر لم أقم أنا بأي عمل، وطوّرتُ تقنية لم تتركني أبداً منذ ذلك اليوم، وهي الشَّغف بأن أبدو مشغولة إلى أبعد حد في الإنجازات. أحياناً برشوتي بلفافة تبغ ألمانية (cheroot)، واقترح هانز بأنني يمكن أن أطبع شيئاً له. لم ينزعج أحد وحمل غوردون على راحته بشكل سهل، فأنتج وجبات أمريكية لذيذة بشكل لا يصدق؛ بينما انغمسنا بالطواف بالطول والعرض حول الريف، ومشينا أحياناً في بعض الأوقات على طول الأفق الواسع في جبل موسري Musri التابع لسنخريب، على طول طريق موجود منذ قبل التاريخ، كان هانز قد أَرانا إياه.

هنا في الأعلى إلى اليمين استطعنا رؤية السَّهل الكبير شرقاً إلى عين سفني؛ وهنا أيضاً حصلنا على مشهد كامل لجبل هائل مُغطى بالثلج يقف ممتداً إلى أبعد مدى يمكن أن تشاهده العين شمالاً وجنوباً، وبعيداً في المنطقة الخلفية البعيدة لكردستان

وبلاد فارس. وبقينا في بعض الأوقات في السهل، نكتشف قرى ساحرة مختلفة في ظلال الأرض المنخفضة؛ قرى صغيرة مُستظلة بأشجار حَقِيقِيَّة - لا يوجد هنا نخيل أبداً - حيث تفور المياه الصافية في كل مكان على قنوات حَجَرِيَّة بارزة. وقام الكُرد بالترحيب بنا خجولين مبتسمين ويمكن التقاط نظرة مفاجئة لحديقة صغيرة مليئة بالورود عبر مدخل في جدار حجري.

كان بإمكاننا اجتياز برك مطرية كبيرة في الأرض المعشوشبة، حيث أتت اللقالق، وعششت الآن في الأشجار العالية في قرية خُرساباد، وضربت بأجنحتها جيئةً وذهاباً ما بين أعشاشها والماء غير مسرعة أو خائفة. انطلق الكلب الأسود المُسنَّ السبيلي spaniel التابع لموقع الحفر في المياه الضحلة، نابحاً عليها؛ كانت من الممكن أن تطير ببساطة عالياً أبعد من أن تُنال لبضع دقائق عندما جاء يقفز ويرشرش في الماء، فسحبت أرجلها المتدلية بكسل بما يكفي لتبتعد عن أذنيه المتأرجحتين؛ ثم أطل عليها وهو تحتها وبدا مندهشاً؛ لأنه أخطأ الهدف وكأنه يقول: «يا للحَيَّة! أعلم أنه كان يوجد هنا لقالق!»، ثم عادت اللقالق مرةً أخرى إلى النهر خلفه، وتابعت شؤونها الخاصة بهدوء، بينما هزَّ الكلب جسده كله بالقرب منا، مُتوقِّعاً أن يُدعى كلباً ذكياً جداً جداً.

وصلت في أحد الأيام رسالة من عين سفني تقول إن هانز كان قد طلب بِسُرْعَةٍ فائقة الذهاب إلى هناك؛ وفي الصباح التالي وبوقت مبكر جداً جلس في سيارَةِ المَوقِع، ولم يحتاج للفاقة تبغ هولندية Dutch cheroot ليقنّعي بالذهاب أيضاً، كانت الطريق من عين سفني إلى جروان وعرة جداً بالنسبة للسيارة، فلذا انحدَرنا وجَرِينا على الصُّخُور وعبرَ قيعان عِدَّة وديان جافة إلى حدٍّ ما الآن، ثم وصلنا إلى القرية.

تمتم هانز وقد دَنَونا من القرية: «يا إلهي *Mon Dieu*! كم فعلوا من أشياء منذ أتينا هنا».

كانوا هناك، بانتظارنا - بدا ستون، أكثر نحولاً من قبل مع ابتسامته الملتوية المرححة أسفل نظاراته السوداء. وجايك بقميص ذي لون كاكي وبنطال قصير، وكان شعره قد ابيضَّ بالكامل تقريباً بفعل الشمس، وبدت ريغموور سمراء كحبة توت مشرقة، كانت

تعلوهم نظرة انتصار مكبوتة، وكان جميعُ العُمالِ اليزيديين من حولهم ينقلون التُّرابَ من الحفرة، بينما كان بعضُ الشَّرْقَاطِيِّينَ الذين أحضرهم سِتُونُ معه ينقرونَ على جوانبِ الجُدرانِ الحَجَرِيَّةِ. كان اليزيديَّةُ غريبين بشدَّة، يضعونَ أَغْطِيَّةَ رَأْسِ قَرْمَزِيَّةٍ ويرتدونَ قمصاناً بِيضاً وسراويلَ فضفاضة. وتركوا شعرَهم طويلاً، إما حراً غيرَ مربوطٍ ليصلَ إلى الكَتَفِ، أو مجدولاً في عدةِ ضَفائِرٍ صغيرةٍ مُحْكَمَةٍ مدهونةٍ بالزَّيت. لم يكنْ هناكُ أيُّ لمسةٍ لِلَوْنِ الأزرقِ في أيِّ مكانٍ في ثيابهم؛ لأنَّ الشَّيْطانَ الذي يسترضونه يغضبُ من هذا اللون.

أزيلتِ الطبقةُ العليا من التُّرْبَةِ كُلِّها من القمةِ ومن جزءٍ من جَوَانِبِ الجسرِ الذي امتدَّ بلون أبيضَ، وكان واضحاً على جانبي النَّهْرِ. علمنا أنَّ طولَه بالمجملِ كان يزيد على 900 قدم، مشينا إلى الحفرةِ الكبيرةِ حيثَ لَمَعَ النَّهْرُ الصَّغِيرُ خلالها، وأرانا سِتُونُ قاعَ النَّهْرِ هناك، وقد رُصِفَ في أحدِ الأَيَّامِ لِيَتَحَمَّلَ ثَقْلَ القَنَاطِرِ التي امتدَّت فوقه. ووجد على أحدِ جانبي النهرِ اثنانِ من الأقواسِ المُسَنَّنةِ سليمةً تقريباً، وفي قاعِ النهرِ حَاجِزَةٌ أمواجٍ نصفُ دائريَّةٍ ثَقِيلَةٌ منقوشة، اسْتَقَرَّتْ عليها دعامةٌ قوسٍ من الأقواسِ. وعليه فإنَّ النَّهْرَ لا بُدَّ أَنَّهُ كان يجري عميقاً وواسعاً وقوياً حتى احتاج إلى مثلِ تلكِ الحَاجِزَةِ القويَّةِ المؤثِّرة. قامَ سِتُونُ بحسابِ المسافةِ بين المنحنى من القَنَاطِرِ الباقيةِ والمسافةِ التي يجب أن تُمْتَدَّ لِيَكُونَ عددها خَمْسَةً في الأَصْلِ، وبعدَ أخذِ بعضِ القياساتِ انتَقَلَ إلى مُسْتَوَى سطحِ التُّرْبَةِ في الجانبِ الآخرِ من قاعِ النَّهْرِ، وأشارَ لبعضِ العُمالِ أن يَحْفَرُوا نَقْطَةً محدَّدةً في الأسفلِ عبرَ التُّرْبَةِ وأخبرهم أنهم يمكن أن يجدوا حجراً مدوراً عليه كتاباتٌ مَنقُوشَةٌ. ولا بُدَّ أَنَّهُم نسبوا إليه قوَّةً سحريةً عندما ضُربَتْ معاوِلُهُم بشكلٍ مباشرٍ في الأسفلِ عندَ حَاجِزِ الأمواجِ الخامسِ تماماً كما قال.

أمكن رؤيةَ البقايا من الحواجزِ هنا وهناك على طولِ الجَوَانِبِ من الجسرِ؛ وبينها كانَ السَّطْحُ الذي صنع من حجارةِ الرَّصْفِ قد وُضِعَ بعنايةٍ بالغَةِ فوقَ طبقةٍ عميقةٍ من الإسمنتِ. قالَ كُلٌّ من جايكٍ وسِتُونِ إِنَّهُم وجدوا العنايةَ الكبيرةَ التي تَعَامَلُوا فيها مع السَّطْحِ غامضةً ومُحَيِّرَةً حتَّى اليومِ السابقِ. ثم بالكشفِ عن الجانبِ الشمالي من

الجسر المقابل تماماً لمنزل المخترع علي، كان ستون قد اكتشف عدّة دعامات جميلة، وعلى كلّ واحد منها، وفي كلّ تجويفة بينها، حُفر نقشٌ مشماري دقيق. قال جايبك: «هانز تعال وانظر إليها».

انتقلنا جميعاً إلى الجانب الشمالي للجسر إلى أن توقف جايبك عند فسحة كان النقش فيها واضحاً جداً.

قال: «تكرّر النقش ذاته على طول الجدار، والذي شاهدته في الجدار عند منزل علي السنة الماضية كان جزءاً منه».

قال هانز: «تابع».

قرأ جايبك ببطء من كتل الحجر البيضاء، مؤكداً عندما وصل إليها، الكلمات التي يعرفها سابقاً من كسرة علي:

«سنّخرب، ملك العالم، ملك آشور، يقول: لمسافة طويلة، بالإضافة إليها مياه ينابيع الجبال إلى اليمين والشمال من جوانبها، أمرتُ بحفر قناة إلى مروج نينوى. وفوق الوهاد العميقة مددتُ جسراً بكتل حجرية بيضاء. أمرت بالعبور فوقه على هذه المياه».

إنه عبارة نهر.. لا آلات حربية.. ولا جنود.

سادت فترة صمت قصيرة، ثم التفت هانز لينظر إلى الأسفل على طول قطعة بيضاء ضخمة امتدت بعيداً فوق العُشب.

«أمرتُ بالعبور فوقه على هذه المياه»... كرّر محرّكاً رأسه قليلاً كما هي عادته أحياناً عندما تكون الكلمات غير ملائمة. «إذن فهذه قناة مياه.. أقدم قناة مياه تُعرف إلى اليوم على الإطلاق!».



مشينا خلال فترة استراحة وسط النهار في طريق صغير بأعلى الوادي، وقمنا بنزهة على المَرَج قرب النّهر حيثُ امتدّ فوقه جسر محدّب. لمعتُ أكوام زرقاء من نوع من

زهر الحواشي الكبير على طول حوافي النهر، واهتزَّت سراخسُ برية صغيرة وتألقت بين شلالات صغيرة. وفي العشب كانت هناك زهرات سحلب بلون بنفسجي وزهري صغيرة، وزنبقٌ متمایل مخطَّط باللون الأحمر والأصفر، وتمأيلت في كل مكان شقائق النُعمان في النسيم العليل، بلون أبيض وأزرق وأرجواني قاتم وقرمزي مُتوهج، علَّق اليزيديون شقائق نعمان قرمزية فوق مدخل ضريحهم رمزاً لدم إلههم المتوفى أدونيس، وقد دخل دينه بعمق داخل نسيج عبادتهم الغني الغريب.

قال هانز مهتماً وهو يعضُّ بقوة على شطيرة كبيرة: «علينا محاولةُ تتبع طريق القناة».

قال ستون: «أعتقد أنه في الطرف الشرقي لممر القناة، بدايةً تعرج القناة الفعلي حول الهضبة إلى الشمال ثم إلى الوادي التالي، حيث يجري نهر غومل Gomel أسفل ذاك الوادي».

ومن المحتمل أنه حوّل ذاك النهر إلى قناة في مكان ما أعلى الوادي - علينا أن نحقق في ذلك عندما تنتهي من هنا».

بدأ جايك يخبرنا حكاية شعبية عرفها صدفةً عن طريق كلمة أظهرتها بين العمال في الأيام القليلة الماضية.

لقد كانت قصةً قديمةً قديمةً جداً، إذ أن جميع اليزيديين الأميين من جروان، وبعض القرويين من عين سفني يعرفونها.

استلقينا بين الأزهار، والماء يترقرق قريباً منا، بينما كان جايك يسحب نفساً من غليونه الدانمركي المعقوف، ثم بدأ يتحدث بصوته الرقيق الدانمركي وكأنه هانز أندرسن المعاصر:

«كان في قديم الزمان زمان بعيد جداً، كان هناك ملك عنده ابنة جميلة، واحتاج الملكُ مياهاً أكثر لمدينته لتكون جميلة وخضراء. وكان قد تقدّم لخطبة الفتاة خاطبان، وقد أحبّت واحداً منهما. قال الملك إنه سيعطي الأميرة لمن يستطيع أن يُحضّر الماء

لمدينته لتكون جميلة وخضراء. ذهب أحد الخطّاب في الحال وبدأ العمل في الهضاب والجبال بعيداً عن المدينة، وحفر قنوات، وأحضر الماء أقرب وأقرب إلى المدينة، ولكنّ الخاطب الثاني الذي أحبّه الأميرة، جلس في المقهى كسولاً. وعندما أحضر الخاطب الأول الماء قريباً من المدينة، ذهب الثاني وجلب أقمشة كتّائية كثيرة، ومدّها في الليل على الأرض قرب جدار المدينة. ولدى شروق الشمس أنارت الكتان، وبدأ كأنّه نهر؛ وشاهده الخاطب الأول من بعيد واعتقد أنّ الآخر قد أنجز المهمة؛ فمات حزناً، وفاز الخاطب الثاني بالأميرة».

هناك في الأسفل، أدنى من امتدّت قناة سنّخريب عبر العشب، كان العمّال يستريحون بمجموعات صغيرة، ويجثمون بالقرب من حجارته، لمعت وشاحات اليزيدية ساطعة مثلها مثل شقائق النعمان القرمزية. لم يكونوا يعلمون أبداً أنّ تلك الضفة المعشوشبة التي يسمونها سداً قد جلبت في قديم الزمان ماءً عبر الوادي.. وما زالت، إنّ مآثرة سنّخريب الكبرى باقية في ذاكرتهم بشكل قصّة خياليّة وصلت إليهم شفويّاً على امتداد أكثر من 2600 سنة⁽¹⁾.



غادر هانز بعد عدة أيام من هذا إلى أمستردام، حيث كان سيحاضر قبل ذهابه إلى إنكلترا، وهناك سيمضي صيفه الغنيّ المعتاد بالعمل ومعارض الفن والكتب والموسيقا وأعمال الزراعة والأصدقاء، ثمّ المزيد من العمل مجدداً. كان يمكن أن يكون صيفاً شاقاً في المكتب لأنّ كلّ شيء كنا قد أنجزناه سلفاً وكلّ شيء قد كشفناه في تل أسمر، وخفاجة، وخرساباد، والآن جروان (حتى ششني Shenshi، ربما هياكل

(1) يا للزوعة.. إنّ أجمل ما يصادف عالم الآثار دون ريب أن يستمع من السكّان الرّيفيين لمنطقة أثرية رواية أسطورية انتقلت بالتواتر الشفهي عبر آلاف السنين، لتبقى منها دلائل في ذاكرة الناس المتصلة بها دونما انقطاع منذ ذلك الحين! ومن ذلك ما سمعته بأذني في جبال الساحل السوري: أيلي (اسم الإله الوثني إيل والد البعل).. وما يُسمع في جميع قرى بلاد الشام: أرض بعل.. وما سمعته في قرى ريف دمشق عن طاحون البشكية، فاكشفت طاحوناً بناها أمير مملوكي هو منجك (المنجكية).

عظمية، وكلها يمكن أن تكون تحوي تعريفاً بيانياً صغيراً أنزلت في مكان ما)، كان ينبغي أن تكون مُتناسقةً مهيأةً للنشر. والآن وبما أنني استرحت، كان من المفيد أن أعلم أن الحياة في أي مكان يتواجد فيه هانز كانت غنيّة ومثيرة، حيث تبعت هانز إلى هنا بعيداً عن العواصف الرملية، كذلك يمكن قريباً أن أتبعه في صحوته إلى في لندن.

أصبحت مجارته التَّمَطُّ الاعتياديّ لأيامي وشغلي الشاغل، بأكثر من طريقة واحدة، من الآن فصاعداً؛ سواء كنتُ أَقْطُبُ جيبيني وأنا أقرأ مواعيدَ السفينة والسكة الحديدية وأنا أذهبُ وأعودُ باستمرار بينَ لندن وبغداد سنة بعد سنة، متبعةً معلّمي؛ أو أتتبع مقالاته المَحْبُوكَةَ اللافِتة للنظر بعناوينه ومقالاته ومحاضراته وكتبه. كانت كتاباته من النوع الذي يصعب فهمه لمن ليس لديه معلومات أساسية، ولكنها في النهاية مجزية إلى حدّ بالغ لمن يبذل فيها جهده. كان دائماً مستعداً لأن يشرح ويفسّر، وعلى اعتبار أن شخصيته كانت مركبة ومشرفة فقد كان يتحمّل الجهلة، لكنه لا يطيق الأغبياء أبداً.. ربما ليس برضاه، ولكن على الأقل بلطف لطالما كانوا متواضعين ويحاولون بشدّة فعلاً استعمال عقولهم. غير أن الجاهل المغرور كان يزعجه فيظنّه ذلك الجاهل متكبّراً.

الآن خُرساباد وقريباً في لندن، كانت الحياة جيدة جداً. وبدت أقرب لأن تكون مثاليةً عندما وصلت رسالة من الزوجين پندلبري Pendleburys تقترح أنه يجدر بي وبستون أيضاً إن كان يستطيع المجيء - أن نقضي بضعة أسابيع في كريت معهم قبل الذهاب إلى إنكلترا. سمعتُ صدّي ضعيفاً من سنة خلّت - جون ينادي من رصيف الميناء في بلاد فارس: «إلى كريت السنة القادمة» - كانت الدائرة السحرية قد اكتملت تقريباً.

ولكن قبل مغادرتنا خُرساباد، كان عملنا في العراق في ذاك الموسم قد توجّ بازدهار غير متوقّع. فقد استلم غوردون برقية من بغداد تقول: إن الملك فيصل قادم شمالاً في إجازة، ويريد مشاهدة الموقع - وبشكل خاص الكروبيم الجديدين - ويمكن أن يصل في منتصف النهار خلال يومين. سيكون معه ولي العهد، ويمكن أن يبلغ عدد

المرافقين ما يقاربُ الاثني عشر. اعتقدنا أنَّ ذلك جيد حتى لاحظنا وجه غوردون. لقد كانت دراسة مذهلةً مشتركةً للجنون والهلع والتسلية - وفي الأغلب جنون.

قال: «الشوران اللعينان، لقد انتهى الرجال اليوم من دفنهما مرةً أخرى.. لقد تكلفنا تقريباً مصروف أسبوع».

ترنَّح ليضَع جميعَ الرجال الذين استطاع حملهم إلى العمل في إعادة إظهار الثورين بأقصى سرعة، ثم تنظيفهما حتى اللمعان؛ وعندما علا رأسهما الضخمان السطحَ مرَّةً أخرى بدتْ الابتسامةُ أكبرَ من ذي قبل. وبدا أنَّها تقول: «أتينا إلى هنا مرَّةً أخرى، عندما تنتهون من مجارفكم ومعاولكم ومكانسكم أيها الرجال الصغار اتركونا الآن نلمع في نور الشمس إلى الأبد بينما نحمي ملكنا؛ لأننا نحن وحشا الملك».

اندفع بقتنا هنا وهناك للتحضير يتناقشون حول الإجراءات. قال ماك: «يمكننا بما يخصُّ الملك جميعاً أن ننحني ونبجله إلى أن نشعرَ بالدوار، ولكنه لم يُجلب إلى هنا بسبب إيمانه بالملوك، ومن حيث المبدأ كان سيلحقه الشنار إن كان هو الذي سينحني».

جاء صباح يوم الزيارة، وقرب الظهيرة انطلقتْ صيحة من الحارس الذي كان غوردون قد أوقفه مراقباً على قمة هيكل سرغون. ركضنا جميعاً إلى الحافة الغربية من الرابية، وبعيداً جداً بوضوح الجدران الخضراء لنيوى كان خطَّ طويلٌ من سيارات تسير على امتداد طريق سرغون، وباقترابها استطعنا رؤية ثلَّة⁽¹⁾ من فرسان عرب يمتطون جيادهم بعظمة على جانبي السيارة الأولى. سَطَعَتْ أثواب ووشاحات بيضاء، وتمايلت شرايش عدة الفرسان بلون ذهبي وأخضر وقرمزي، ولمعتْ مواشير البنادق ومقابضُ السُّيوف. لم يركب الفرسانُ في الحرس الرسمي، ولكنهم أخذوا يمشون ويدورون في الحُقُول على جانب الطريق أشبه بنوارس⁽²⁾ بيضاء كبيرة بريَّة وجميلة تدورُ حولَ قافلة من سفن صغيرة تآرجحت وتمايلت قليلاً في بحر متلاطم الأمواج.

(1) ثلَّة: جماعة من الناس. (لسان العرب 2، ص 123).

(2) نوارس: جمع نورس: طير الماء الأبيض. (حياة الحيوان للدميمري 2، ص 843).

ثم أبطأت السيّاراتُ وانعطفَتْ، وارتقتْ المُنحَدَرُ واحدةً تلو الأُخرى. ترَجَّلَ المَلِكُ فيصل ووريثه الأمير غازي من السيّارة الأولى. إنَّها المَرَّةُ الثّانية التي يأتي بها الملكُ مع وريثه الشّاب من نينوى.

ولكن ها هنا كان أماننا رجلُ سلام تاركاً خلفه أيامه الحربيّة. مضت الآن عدّة سنوات منذ حمى مع الكولونيل لورنس جناح جيش آلنبي Allenby الأيمن، وأبعدَ الجيشَ التركيَّ بعيداً إلى دمشق، بل وأبعدَ منها.

كان طويلاً ونحياً، له رأسٌ صغير، وشعرٌ أشيْبُ نَمى إلى الخلف عن جبهةٍ مهيبية فوق عَينين متعبتين حادتين جداً بلونٍ عسلي. لقد كان من السّهل معرفةً لماذا أدركَ لورنسُ من اللقاء الأوّل أنّه هو الرّجلُ الذي بحثَ عنه قائداً للعربِ المقاتلين. يقول لورنس:

«شعرتُ من النّظرة الأولى أنّه هو الرّجلُ الذي قدّمتُ الجَزيرةَ العربيّةَ لأبحثَ عنه، القائدُ الذي يمكنه الارتقاء بالثّوار العرب إلى مجدٍ تام. بدا فيصلُ طويلاً جداً أشبهَ بعمود، نحياً جداً، في ثيابه البَيضاء الطويلة الحريّة وغطاء رأسه البُنيّ الذي حُزِمَ بعقالٍ ذهبي وقرمزي لامع، كانت أجفانه مسدلةً، ولحيته السّوداءُ ووجهه الشّاحِبُ كانا أشبهَ بقناعٍ يقابلُ غرابةَ يقظة جسدِه المُستمرّة، وكانت يداه متصالبتين أمامه فوق خنجره».

صافَحنا جميعاً باليد، وانحنى ماك بوقار شديد على تلك اليد أكثرَ من أيّ شخصٍ آخر. قال فيما بعد: «لقد كان بالفعل ما كنْتُ أتخيّله عن ملك».

تناولنا طعامَ العَداء في الهَواء الطلق على حَيْد⁽¹⁾ واسعٍ معشوشبٍ يُشرف على غرفة عرش سَرغون. جَلَسْتُ راحيل على يمين فيصل، وأنا عن يساره؛ ومقابلنا بيتي ووليّ العهد، شابٌّ نحيل، خجول، مبتسم، كان يرتدي بَرّةً أنيقةً، وصل لتوّه من المدرّسة في هارو Harrow. وهكذا جلسَ الملكُ فيصلُ وتحدّث معنا، تدور عيناه الآن على الحُجرة

(1) حَيْد: كل نتوء في قرن أو جبل. (القاموس المحيط، ص 356).

الطويلة حيث جلس الملك سرغون ذات مرة أمام الجمهور، وينهض الآن وينظر نظراً فضوليةً متشوقةً إلى الهضاب خلفه تماماً، تلك التي تسلفها الملك سنخريب ذات مرة. بعد الغداء طلب أن يستعرض الموقع كله، ثم تحوّل الرجل الهادئ الهزيل إلى نوع من طاقة كهربائية. ذهب في كل مكان، بخطوات سريعة واسعة، يفحص بعناية كل شيء، وأخذ يسأل أسئلة لا تُعدّ ولا تُحصى. كان الأمير الشاب غازي أقصر من والده بمسافة رأس، كان معظم وقته على عجلة من أمره؛ وتبعهما الوكلاء وموظفو القصر متعرقين قليلاً، لكنهم كانوا يبذلون جهدهم لمتابعتهمما....

عندما انتهى كل شيء بعد الظهر، ذهبت أنا وهام وهال للسير نحو التلال. وعدنا عند حلول الظلام عبر قرية صغيرة، كان أمامنا فلاح كردي يمشي عائداً إلى بيته، وقد تدلت حلقات شعره الداكنة على كتفيه من تحت عمامة وضعت بشكل أنيق، كان يمشي مع معزاة كبيرة تتبعه متلهفةً عند عقبيه، مرة على جانب، ثم على الآخر. في كل مرة كانت تغو⁽¹⁾ فيها كان هذا الرجل القوي يجيئها بنوع من دندنة⁽²⁾ تُعيد لها الطمأنينة. وعندما أدركناه رأينا أنه كان يحمل بلطف شديد مولوداً جديداً بأذنين حريريتين، حيّانا الرجل بابتسامة لدى وصوله إلى منزله، واستدار ليدلف⁽³⁾ عبر المدخل. تصاعد دخان أزرق من مجموعة المنازل الصغيرة، ولاحث مقابل الغروب المتوهج كتلة قاتمة من قلعة سرغون فوقنا كتهديد شرير كان يريد أن يقسم العالم المعروف ذات مرة. ولكن ناحوم انتقم منذ زمن بعيد، فولى الأسد القديم، وولى شبل الأسد القديم سنخريب، وتعرّضت نينوى للخراب. وباتت البلاد بسلام، وأصبح الرجل الصالح ملكاً.



(1) الثغاء: صوت الغنم والظباء وغيرها عند الولادة. (القاموس المحيط، ص 1635).

(2) دندنة: أن تسمع من الرجل نغمة ولا تفهم ما يقول. (لسان العرب 4، ص 419).

(3) دلف: مشى مشى المقيد. (القاموس المحيط، ص 1046).

الفصل التاسع

نُظِمَتْ خمسُ ياقوتات في خيط شَفَّافٍ وامتدَّتْ عبر عالم أسود، فلمعتْ في اللَّيلِ أماننا إلى الأعلى بينَ حينٍ وآخر، وقد تختفيَ منها واحدة أو اثنتان؛ وفي بعض الأحيان يمكن أن تتضاءلَ كُلُّها إلى أن تصبحَ بحجم رأس الإبرة بعيداً، بعيداً جداً.

كنت أنا وراحيل في السيَّارة الأخيرة من الموكب نجاهدُ في طريقنا باتجاه الغرب من الموصل إلى نهاية الخطِّ الحديديِّ الشَّماليِّ في نصيبين شمالَ شرقِ سوريا.

كانت عائلةُ ماك في إحدى السيَّارات في الطليعة، كانت المدينةُ هنا في الجُزءِ الشَّماليِّ الأقصى من العراق أقربَ إلى الحدود التركية، كثيرة التلال، مقفرةٌ جداً. سهلٌ يمتدُّ دونَ شَجَرٍ لا يحوي إلا طرقاً محفورةً مليئةً بأخاديد التفت فوق تلة وأسفل وادٍ تتصالب معه بلا نهاية. ومع كلِّ ما تبدو عليه من فراغ كان السَّهْلُ موطنَ اليزيديين حيثُ يتجولُ الكثيرُ منهم بثقة هنا وهناك في شؤونهم الشرعيَّةِ بسلام، ولكنَّ شهرتهم التي اكتسبوها في قطع الطرق كانت السَّبَبُ في منع السُّلطات النَّاسِ السَّفَرِ منفردين على هذا الطريق، وكان مرورهم بتلك المناطق على مسؤوليتهم الشَّخصيَّةِ. كان الطَّرِيقُ الطبيعيُّ بالمرافقة - التي بدتْ بالنسبة لي فكرة من الدَّرَجَةِ الأولى فيما لو صادفَ أن كنت في أيَّة سيَّارة من الصفِّ إلا الأخيرة. لم أستطعُ إلا التساؤلَ عمَّا سيحصل فيما لو تعطلَّت السيَّارة الأخيرة بين نوبات الهزَّات وأنا أمسكُ برأسي وهو يصطدُّمُ بسقف السيَّارة أو إطار نافذتها مرَّةً تلوَ أخرى، كنت أتساءلُ ماذا سيحدثُ لو تعطلَّت السيَّارة وكانت هذه السيَّارة تحملُ كلَّ الدلائل على حدوث ذلك في ظلمة اللَّيلِ الشَّديدة، ولن يعلمَ أحدٌ ممَّن في المقدمة بتعطُّلها أبداً.

تغيّر الطقس، وكانت السماء ملبدة بالغيوم، وغرق الطريق بالوحل الرطب. اندفعنا بسرعة كنا، نهبط ونزلق؛ وسرنا ببطء في بعض الأوقات إلى درجة التوقف التام، مع عجالات تدور وسائق يهدر؛ ومن ثمّ يمكن للأضواء الخمسة الصغيرة للسيارات التي تتقدمنا أن تنسحب إلى مسافة أبعد وأبعد، ربما لتختفي كلها في منحدر بعيد أو حول تلة من التلال. ثم استطعنا أن نقلع إلى الحياة مرةً أخرى، وترنحنا إلى أسفل الطريق، وبعد ميل أو ميلين من التوتر المزعج لمحننا بسعادة لمحّة من آخر ضوء أحمر، ومن ثم الأخرى والأخرى. وفكرت متجهمة⁽¹⁾ وأنا أراقب الأضواء في الظلام بأنّه لا ينبغي لأحد أن يلوم أحد منّا عندما يكون على البطات العرجاء أن تتلكأ وتلكأ طوال الطريق، وكل ما في الأمر هو البقاء مع الركب، ويجب ألا تنتهي الأوقات السعيدة وألا تأتي متفرقة أبداً.

قادنا جبرائيل بسيارته إلى الموصل فوصلنا عند الغروب؛ وكانت القافلة قد غادرت دار الاستراحة عند منتصف الليل. كان المطر قد هطل على خرساباد طوال النهار؛ ولكن الشمس سطعت من جديد منخفضة أفقيّة، تحت غيمة طويلة سوداء، تماماً عندما تحركت السيارة أسفل المنحدر تحوّل المنزل البني القديم فجأة إلى اللون الذهبي، ومقابل الهضاب المغطاة بغيوم أرجوانية، وتحوّل بياض اللقلق إلى اللون الوردّي الداكن عندما لامست ريشاته أصابع الشمس الذهبية وهو يضرب جناحيه ببطء فوق البيت باتجاه البحيرات.

وقف هام وهال وحدهما على قمة المنحدر عندما كنا نغادر.

قلت، ضاحكة وبطريقة سهلة: «أراكم في لندن».

أجاب أصدقائي الأعزاء: «نراك في لندن».

فعرفت معنى الموت الصّغير عند مغادرة قطعة من الحياة في فراق إلى الأبد مهما كانت احتمالات المستقبل واعدة.



(1) متجهمة: تجهّمه: استقبله بوجه كربه. (القاموس المحيط، ص 1409).

استمرّ المشوار بالسيارة إحدى عشرة ساعة، وامتدّ الضوء البارد من الفجر وراءنا
أخيراً، وفي كلّ وقت فتحنا فيه أعيننا النعسة بين فترات نوم خفيف مضطرب، كان
العالم يزداد ضياءً، والسهل يزداد خُضرةً.

همهت⁽¹⁾ راحيل يائسةً من زاويتها: «لا أعتقد أنه يمكن لي أن أشعر بالدفء مرةً
أخرى أبداً».

عندما بزغت الشمسُ كان الحالُ أفضلَ قليلاً، ولكننا كنا متعبين ومرتعشين
بشكل بائس، وعند منتصف النهار تتالت السيّاراتُ في المقدمة على منحدر بسيط،
واختفت واحدة تلو الأخرى عبر فجوة في الأفق المنخفض، وبدت أنها فعلت ذلك
مئات المرات من قبل. تبعناها وعندما انتهينا من الفجوة، نظرنا إلى الأسفل إلى منظر
غريب مذهل. المشهد الطبيعيّ الأخضر المنتظم لا يزال ممتداً أمامنا - ولكنه أخيراً لم
يعد فارغاً تماماً. كانت السيّاراتُ تنحدرُ نحو الأسفل، وتتجهُ نحو شيء صغير مربع
أسود يقف منفرداً بشكل كامل في السهل، ويمتدُّ على الجانب البعيد له خيط مزدوج
منحنٍ وامض متجه نحو الأفق البعيد، كنّا ننظرُ إلى الحواجز التي تعلّم نهاية جدول،
كان متواصلاً لولا الموثب المائي في إسطنبول - والذي كان مبدؤه على بعد أكثر من
2000 ميلاً، حيث تقع محطة سيمپلون Simplon-Orient-Express الكبرى بعيداً
عن الأمواج الرماديّة المالحة، التي ترتطمُ بجدار الميناء القديم في كاليه Calais.

بدا القطارُ غير حقيقي، كما لو أنّ طفلاً مارداً قد نصب لعبته من قضبان وحواجزٍ
على أرض بيت حضانة غير متناه. والآن أقبل من بعيد قطار حديث أخذ يدرجُ متباطئاً
حتى بات يزحف عندما وصلَ إلى نهاية رحلته، وارتطمَ بصوت «بونك» bonk!
بالمصدّات القليلة المنعزلة في وسط اللامكان.

عندما زحفتُ جموعُ المسافرين القليلة المتبعثرة خارج السيّارات وانتظروا،
متراخين تحت أشعة الشمس، بينما كانت أمتعتهم تنزلُ وتكدّس إلى جانبهم، تجسّدت

(1) همهت: الهمهمة: الكلام الخفي. (القاموس المحيط، ص 1512).

اللَّمْسَةُ الأخيرةُ المتنافرةُ في شكل خادم عربية النوم الذي يتحدث الفرنسيةَ وهو قزم كان يرتدي بزةً أنيقةً بنيةً، وقبعةً بارزةً وأزراراً لامعة، قفز ذلك الخادمُ من الدرجات العالية لعربة النوم، ورَحَّبَ بنا على متن القطار.

ابتسمتُ أنا وراحيل بشحوب بوجه ماك وزوجته، وتوارينا⁽¹⁾ في المأوى من عربية نومنا، وخلال ثانية عبرنا من عالم لآخر، بُهرنا وسطُ الراحة الحقيقية للمقاعد الموسَّدة المُحاطة بخشب قاتم لامع وزجاج ونحاس وامض، والمناشف النظيفة والمياه الجارية. طلبنا إلى الرجل الصَّغير أن يهيئَ الأسرةَ في الحال، ونجحنا بصعوبة في البقاء يقظين إلى أن ذهبَ ولم نتحرك ولم نعلم أن العجلات المدمدمة والمقعقة كانت قد بدأتْ بالتحرك أسفلَ منا، وتقدم القطار بعيداً في وقت متأخر من بعد الظهر في رحلة طويلة إلى إسطنبول.

استغرقت رحلتنا ليلتين ويومين لننحدرَ عبرَ الشَّمال الغربيِّ من التخم الشرقي لسوريا إلى إسطنبول، وفي صباح اليَّوم التَّالي الباكر كنَّا نتجولُ حولَ زاوية البحر المتوسَّط، حيثُ تواجه سوريا تركية⁽²⁾. ثم ولجنا متقدمين باتجاه السلسلة الهائلة لجبال طوروس، وبدأنا بالتَّرنُّح ببطء شديد في هذا الطريق وذاك على طول منحدراته الجنوبيَّة الصَّخريَّة، وعلى طول منحدراته الشاهقة.

عند المساء كنا بعيدين في أعلى الجبال نزحفُ إلى الأمام في الجانب الواسع نحوَ الطَّريق الذي قدَّمنا منه، كان ثمة حاجز صخري ضخم في الأسفل عبرَ السَّهل السَّاحلي الكبير، يقسم الجبالَ بحدة من الأرض المُنخفضة في الخلف، ولكن كانت هناك فجوة مربعة واضحة المعالم فيه شقٌّ واسع في السلسلة الطويلة حفره النهرُ المتدفقُ خلالها عبرَ العصور، ويتَّجه بعيداً إلى النُقطة الزرقاء، كانت تلكَ الفجوةُ هي

(1) توارينا: استترنا. (القاموس المحيط، ص 1730).

(2) أقوم بإثبات اسم سوريا بألف ممدودة على اعتباره صيغة يونانية لاسم (آشور) الغربية. أما تركية فبتاء مربوطة على اعتبار أن لفظها الأصلي: Türkiye بتخفيف الياء دون شدة، وإمالة التاء المربوطة.

البوابات الكيليكية Cilician Gates، التي من خلالها عبر الإسكندر مع جيشه العظيم متجهاً إلى أنطاكية وأربيل وإلى الشرق. فيما وراء السهل إلى اليمين بعد الزاوية اليمنى للبحر مباشرة في المكان الذي انعطفنا فيه منذ ساعات مضت وخلف المياه، استطعنا رؤية الجبال السورية البعيدة مكللة بالثلوج، تتوهج في الشمس الساطعة.

ثم انعطف القطار بعيداً عن السهل للمرة الأخيرة، واختفى في قلب الجبال، وبدأ يزيد من سرعته؛ لأننا وصلنا إلى قمة الجبل، ثم انطلقنا داخل وخارج أنفاق قصيرة جعلت ومضات الغسق⁽¹⁾ تدخل وتخرج، كنا نلمح لمعان القمم الرمادية المذهلة ترتفع فوقنا حيناً وحيناً نرى وديانا عميقة ونحُن نترنح على الحافة الضيقة، أو نختبئ مرة أخرى في عتمة قلب الجبل في سواد هادر⁽²⁾.

هبطنا طوال تلك الليلة نحو الأسفل - وفي اليوم التالي تركت مناظر الوادي الجميلة في نفوسنا ذكرى لطيفة، فطوال الطريق كنا نمُر به وقد ملئ زهراً كالزبد بلون أبيض وزهري، ومررنا بجداول تندفق على مجرى نقي من الصُخور، إلى أن انزلقنا بهدوء مرة أخرى عندما تلاشى ضوء النهار، إلى التوقف التام على شواطئ البوسفور Bosphorus عند ضاية أسكدار Scutari.

قادنا توماس كوك Thomas Cook الملاح بمعطف مطري خارج المحطة بعد برهة إلى زوارق بخارية صغيرة متفرقة لنعبر المياه، وكان الظلام الدامس قد خيم علينا، وما كان بإمكاننا في البداية رؤية أي شيء من إسطنبول باستثناء بضعة أضواء ساطعة، وتشابكت بعض المرتفعات بالنجوم، والتمع ضوء مصباح كهربائي واضح فوق رأس T. Cook وسطع في وجوهنا وأضاء المياه المتمايلة، سأل عندما رأنا نحدق إلى الأمام دون جدوى: «هل تريدون رؤية إسطنبول القديمة؟» ثم رفع ذراعاً طويلة وأطفأ المصباح الكهربائي، فأصبحنا فجأة في الظلام. ولكن استطعنا رؤية الأرض، هناك هضبتان طويلتان ومرتفعتان التقتا أمامنا مباشرة بصف من الأضواء على مستوى الماء.

(1) الغسق: ظلمة أول الليل. (القاموس المحيط، ص 1181).

(2) الهادر: الساقط. (القاموس المحيط، ص 638).

قال توماس Thomas مشيراً إلى التلة على اليسار من الجسر: «إسطنبول القديمة». يظل قمته سواد مقابل الزرقة الداكنة، والسماء منثورة بالتجوم المتلاثة، وامتدت أرض الأحلام والخيال بما فيها من قباب محتشدة ومآذن ومنارات شاهقة.

تابع مشيراً إلى الجسر: «القرن الذهبي، تجري المياه في أرضه هناك لمسافة طويلة بين المدينتين، القديمة والحديثة».

ارتطمنا بلطف مقابل منصة هبوط خشبية، وبعد لحظة كنا نقف مرة أخرى على قطعة من أوروبا. تجولنا لمدة يومين قرب المساجد والشوق وقصر إسطنبول القديمة؛ ثم غادرت راحيل بقطار إلى كاليه Calais؛ تكررت العبارة التي قالتها مجموعة التنقيب في الموقع «أراكم في لندن».

ركبت في ذاك المساء سفينة إلى أثينا، و: «نراكم في سوريا» صاح ماك وزوجته، وهم يضحكان بين الحشد على رصيف الميناء، فهم سينقبان قرب حلب في الموسم القادم.

لوحت إلى أن غابا عن ناظري، ثم اتكأت على الحاجز مسافرة وحيدة مرة أخرى، عندما أقلت السفينة ببطء بمحاذاة المدينة القديمة الساحرة. هناك في الأعلى، في قصر السلاطين شاهدت ثروتهم الخرافية وسجدهم المزين باللالئ والأحجار الكريمة من جميع الألوان، وتدلّت أكبر زمردة في العالم بسلسلة رقيقة فوق تاج ملبس بالجواهر، وغرفة بعد غرفة حيث كانت الجدران والأعمدة مغطاة بمجموعات من الخزف الصيني التي لا تقدّر بثمن، وهناك مكتب قراءة ذهبي صغير لابن الحاكم المبجل الصغير، حيث كانت حتى سكّين فتح الرسائل من الذهب الخالص انتهت في نهايتها بماسة متألقة.

تجوّلت هناك في الأعلى عبر الأفنية المزوّفة وداخل مقاصير صغيرة مظلمة بالأشجار، ومن هنا من السفينة استطعت الآن رؤية الغرفة المضلّعة الصغيرة، وهي في مكان مرتفع فوق الزاوية الشرقية من الجدران القديمة، مكسوة في الداخل بقرميد

أزرق، وهي تُسمّى مقصورة بغداد، كان السلطان يجلسُ فيها محدّقاً عبّرَ نوافذها الملتفة قبالة المياه نحو أراضيهِ البعيدة. ووقفتُ هناك بنفسِي أنظرُ من فوق مضيق البوسفور باتجاه الجزء الآسيوي من ترقية. عُدْتُ بذاكرتي إلى الوراء إلى تلك الرحلة التي مازالت ذكرها متوهجةً وواضحةً في عقلي، وعدتُ إلى بغداد البعيدة بذكريات محتشدة لمشاهد جمال جديدة وأماكن غريبة ولأسفار شاقّة وتعب لا يُصدّق ولطاقة تعودُ بسرعة بعد انقضاء اللحظات الصعبة.

اقتربتُ بذكريات بغداد ذكرياتُ رحلة أخرى كنت قد سافرتُها في تلك الأشهر الستة الأخيرة، واحدة فيها معرفة أوسع وخبرة أعمق، ويحفز في الفضول لمعرفة المزيد أكثر وأكثر؛ واعتقدتُ أنّ ما أحمله معي من ثراء المكان الذي كنتُ فيه يعادل كلّ الزمردات المتأرجحة والسجاد المرصع بالجواهر في العالم.

بدأتُ مقدمة السفينة تشقُّ طريقها في المياه المظلمة بسرعة أكثر الآن. وبدأتُ حبال الأشرعة تدنُّدُ بفعل سرعة النسيم المتصاعدة، كنّا نخرجُ من وسط المجرى متجهين نحو بحر مرمرة، وتلاشتُ في الحال الجدرانُ الحاملة والقبابُ والمناراتُ بعيداً، لقد غرقتُ في غيمة الضباب وراء التلال المظلمة، التفتُّ إلى الجنوب الغربيّ لأنظرَ إلى الإمام، سنعبُرُ في خلال ساعات إلى مكان بعيد، إلى مضائق بحر إيجه في الجنوب حيث تقع جزيرة كريت.

وصلتُ أثينا في الصباح التالي، ووجدتُ روزالين Roslaeen تنتظرني في أحد الفنادق، كانت ذاهبةً إلى كريت أيضاً. وقد كانت في العمارنة السّنة الماضية تساعدُ في العمل، وكانت مساعدتها تتخذ أشكالاً متعددة، فكانت تنظفُ الآثار القديمة لفترة هنا، أو كانت ترمّمُ وعاء فخارياً هناك.



الفصل العاشر

تقع كنوسوس Knossos، قصرُ الملك مينوس Minos، على مسافة ثلاثة أميال داخلَ كانديا Candia، عاصمة جزيرة كريت. على أحد جانبي الطريق العام الجديد الذي يقطع الجزيرة شمالاً وجنوباً عبر الجزيرة، ويلي طريقَ التجارة القديم نحو الميناء الأقرب إلى الساحل المصري، انتشرت بقايا القصر على قمة هضبة منخفضة بشكل واسع، وتشكلت الهضبة من قصور قديمة منهارة توجد تحتها مستوطنات العصور المينوية البكرة والعصر الحجري الحديث، التي تعودُ لأكثر من 1000 سنة قبل التاريخ الذي حكم فيه الملك الغريب المعروف باسم مينوس Minos، بحوالي 1400 ق. م.

بدت الهضبةُ أصغرَ بسبب الجبال الهائلة التي تُشرف على الوادي الجميل حيث يقع قصر كنوسوس Knossos. وامتدت فيلاً أرياندا Villa Arianda، المنزل الكريتي للسير آرثر إيفنز Sir Arthur Evans، على جانب الهضبة في الطرف الآخر من الطريق، مخبأة بين الأشجار؛ وفي ذلك اليوم الربيعي من شهر أبريل، عندما جئتُ مع روزالين من البحر كان الجوُّ يعبق برذاذ معطر دافئ عظيم وأجمت بأزهار غنية برحيق زهر العسل التي تتناثر على المنصة والدرجات والطرق، وبدا الطريقُ الملنوي الأبيض المغبرُّ الآتي من الميناء كما لو أنه جُهِّز لموكب ملكي، فالضفافُ المزهرة احتشدت بكثافة على حافات الحداثق وعلى حجارة الجدران المنخفضة وراءها، مرغريتا صفراءُ ساحرة، ومنتور بريّ قرمزيّ، وأضاليا برية، وشقائق النعمان، وورود صخرية.

كان السيد آرثر إيفنز⁽¹⁾ Arthur Evans في إنكلترا في ذلك الوقت وجون حالياً المسؤول

(1) السير آرثر جون إيفنز (1851-1941) عالم آثار بريطاني اشتهر بكشف قصر كنوسوس في كريت، وبدراسة الحضارة المينوية فيها. وذكرنا آنفاً أنه كان عينَ جون بنديري محافظاً لموقع

الوحيد بصفته أمين متحف فقد أنهى لتوه التقيب في ضريح ملكي قرب القصر.

عندما استقرّينا في الأسفل وسردنا مغامراتنا سأل قائلاً: «متى سيكون ستون هنا؟» كانت الأرض ما تزال تَهْتَرُ قليلاً تحت الأقدام.

قلت: «كان يأمل أن يلحق بنا خلال أسبوع، ولكن عندما أخبرنا مؤخراً كان متجهاً نحو بلاد فارس. يعتمد ذلك كله على كمية الماء التي وجدها سنّحريب Sennacherib في نهر غومل Gomel - فإن لم يجد ما يكفي فربما لن نرى ستون مرة أخرى، إذ أنه سيواصل البحث فحسب، ويواصل ويواصل في الجبال».

اقترح جون بلطف بأن أفسّر الذي كنت أتحدث عنه؛ لذا أخبرتهم عن القناة.

قال: «إذا سيعطيك هذا أسبوعاً لتتعرف في على القصر قليلاً، سننتظره قبل أن نبدأ السير. أريد أن أسير شرقاً، سيراً لطيفاً جداً»، أضاف لفائدة روزالين، التي لم تكن واثقة بمقدرتها على السير، ولكنها كانت تريد محاولة أي شيء ولو لمرة».

كنا قد حظينا بلمحات على هضبة القصر الآن، فهو يمتد قليلاً وراء فيلا آرياندا Villa Arianda، أسفل الطريق قليلاً، صوّن بأيغة من الأشجار. وبقيت معتقدة أنّ مدّة أسبوع زمن طويل لمعرفة القصر قليلاً. ذلك عندما انحدرنا إلى الأسفل خارج الطريق في الصّباح التالي، ومن ثم درنا حول أشجار لها عطر كعطر التوابل، تحملها الرّيح الجنوبيّة الدافئة إلى المنطقة الواسعة الفارغة المفتوحة لأشعة الشّمس على قمة الرابيّة. ولكن رغم أنّ قصر كنوسوس Knosso كان أجزاءً متناثرة فهو ما زال يخفي آلاف الأسرار، ولاحظت في الحال أنّه في خلال أسبوع يمكن لشخص أن يبدأ باستيعاب الخطة الواسعة المعقدة لبنائه الأخير، بعيداً عن التراكيب القديمة، أو يميّز التفاصيل العديدة التي زودت آرثر إيفنز بالدليل لكلّ الترميمات التي نفذها.

إنّ أوّل شيء جعلنا جون نراه في البداية كانت العلامات للطبخ الدخان الصاعد على أول جدار غربي طويل قدمنا إليه، والعلامات حيث وجدت دعامة محترقة من

القصر الأثري في عام 1929، أي قبل فترة صغيرة من هذه الوقائع التي ترويها ماري تشب.

المفترض أنها وقعت على الأرض من السقف واستقرت متوجهة عند الجدار.

قال: «لقد تدمّر القصرُ في النهاية بشكل كامل بسبب الحريق، حوالي 1400 ق. م. وعلى الأرجح أواخر أبريل».

سألت روزالين باندهاش: «ولكن كيف بإمكانك إخبار الوقت من السنة التي حدث فيها هذا».

قال: «أوربما في بداية شهر مايو، استشعري الريح الآن، كانت تعصف بشدة إلى أعلى الوادي من الجنوب في هذا الوقت تماماً من السنة من ذلك الاتجاه فقط، انظري إلى هذا الجدار إنه أبيض ونظيف تماماً إلى الجنوب من العارضة؛ وقد امتدت عليه جميع علامات الحريق من جهة الشمال».

سألنا عن دمار القصر، فشرح كيف وبالتدريج أصبح ملوك البحر العظماء في كريت، في زمن ما قد يكون بعد 200 ق. م، أقوىاء جداً، وحكموا الجزء الرئيس من بلاد الإغريق. كانت تجارتهم التي تتم بشكل خاص مع مصر، قد أوصلتهم للسيادة في شرق البحر المتوسط، والحقيقة في كون القصر قد ترك دون أي نظام للتحصين يظهر كم كان سكان كريت يشعرون بأمان في قوتهم البحرية. ومع تسارع السنوات من حضارتهم الرفيعة والجميلة لاح لهم خطر من جهات أشخاص جدد، إنه خطر لم يكن معروفاً لهم في البداية، جاء من الشمال والشرق، من مغامرين ومستطلعين كانوا ينحدرون نحو الأسفل إلى البر الرئيس من اليونان وآسية الصغرى من الأراضي الممتدة في الخلف، إلى أن وصلوا إلى السواحل وأعجبهم البحر الهائل في الجنوب. لقد تسلل الدوريون Dorians إلى الجزر الإيجية، وعندما نمت قوتهم ووجدوا الإمكانيّة لتنظيم تلك القوة وتعلموا ركوب الأمواج، وقتها بدأ العد التنازلي لمجد كريت، ففي وقت يقارب عام 1400 ق. م في الربيع الأخير (الذي هو تاريخ السنة الذي ورد في الأسطورة أن ثيسوس Theseus - بدأ رحلة من - أثينا - لذبح وحش المينوتور Minotaur) كانت النهاية نارا وطوفانا، ليس فقط لكنوسوس Knossos الفخورة، ولكن أيضاً لكثير من المدن الساحرة على امتداد الجزيرة.

قال جون: إنَّه يعتقد أنك استطعتَ أن تجدَ الأصلَ لصدق قصة ثيسوس الذي جاء لينقذَ الشبابَ النبلاء والعذراوات الذين يُرسلون عبرَ البحر كلَّ سنة من أثينا كجزية مروّعة للوحش المينوطور Minotaur المفترس، ثور جزيرة مينوس.

وهي رواية معروفة حتى أنَّ كلَّ طفل يعرف كيف حطّمَ البطلُ الشابُ وحشَ المينوطور Minotaur بمساعدة صديقه آريانده Ariadne؛ فهي أعطته خيطاً قرمزيّاً أخرجه بأمان من المتاهة المظلمة للملجأ.

قال: «أنت تعلمينَ عن رياضة موائبة الثور الكريتية، أليس كذلك؟ كان الشبابُ ذكوراً وإناثاً يقفونَ في الميدان بينما الثورُ يقدم عليهم؛ وعندما يُخفض قرونَه لينطحهم يمسكون بها ويتعلقون بها بشدة، وإذا ارتفع رأسُه يهبطون بسرعة بشقلبة ارتجاعية على أطراف أقدامهم فوق ظهره؛ ثم يقفزون إلى الأرض، إنَّها مشقّة وخطر رهيب، ولا بُدَّ أنَّه قد حدث من جرّاء هذه الرياضة كوارثٌ كثيرة. خطرْتُ لي فكرة وهي أنَّ الشبابَ والعذراوات جاؤوا طوعاً للتنافس في ألعاب سنوية؛ والحقيقة هي أنَّ الكثير من الرّجال الشباب نخبة شباب الأرض الرئيسة، لم يكنْ بإمكانهم أبداً أن ينجوا من الألعاب ليصبحوا جنوداً أو قادة، وإلا لكانوا أساسوا كريت بشكل ممتاز. أعتقد أنه من الطبيعي جداً، في تناقل القصة القديمة عن النَّصر الكبير على كريت من جيل إلى جيل أن تُجمعَ معها حكاياتٌ شعبية مزوّقة أينما ذهبت؛ لأنَّ الفكرة الخرافية عن ملك الأرض القويّ تندمجُ مع الذكرى الضّعيفة للثور الضاري الذي أهلكَ شبابهم، وسيظلُّ البطلُ الأسطوريّ ثيسوس Theseus يرمزُ لهم عن مواجهة أسلافهم العظيمة في نهوضهم جميعاً ضدَّ كريت وتركهم إياها تلتهبُ تحت النيران.

كان موضوعُ الثور في كلِّ مكان، فعندما درنا حولَ زاوية الجدار وبدأنا صعودَ مجموعة من درجات مسطحة إلى داخل رواق جميل، رأينا الحواجزَ قد زُينتْ بقرون ثور نُقِشتْ على الحجر، وعلى الجدار الداخلي للرواق كان هناك إفريز ملون - سلسلة من رجال شباب بالحجم الطبيعي بتنانير اسكتلندية، يحملون مزهريات بأشكال مختلفة. أكتافهم عريضة وخصورهم نحيلة وعلى رؤوسهم شعر متموج أطلق إلى

الخلف وقد أدخلت فيه سلاسل . وعلى ذلك فأنا اعتقد أن هام سيكون كريتيًا ممتازًا.
تابع جون: «يمكن أن يكون الملك مينوس Minos قد تقلد تاجاً عليه قرونٌ ثور،
وفي حال حصل هذا فسيكون سبباً إضافياً لأسطورة وحش متوج مروع.. فكروا
بمحارب يوناني شاب ينتضي سيفاً مسلولاً يندفع عبر ممرات مملوءة بالدخان كي
يجده في فسحة شكلاً ضخماً له قرون جائماً في قاعة العرش المظلمة».
سألت: «هل تعلم أين كانت قاعة العرش؟».

أجاب قائلاً: «تعالى»، تقدّمنا نهرولاً تقريباً، وكما علمنا من خبرتنا في مصر أنّها
كانت الطريقة الطبيعية لاستيعاب علم الآثار بصحبة جون.

اندفعنا شمالاً الرواق المعمّد في متاهة من دهاليز مظلمة وأفنية وغرف، وأصبحنا
متحيرين تماماً كلما شقّ جون هذا الطريق أو ذاك عبر بوابات قديمة وفوق كتل حجرية
وعند فسحات ضوئية بعضها كان تحت الأرض.

قال: «سأعطيك المخطط كي تحضره معك في المرّة القادمة عندما يكون لديك
خطة واضحة فسيكون هذا أسهل بكثير لتتبعها، هذا فضلاً عن الشرح».

عبرنا من فناء كبير مفتوح إلى غرفة صغيرة ظليلة مفتوحة بمدخل على الجانب
البعيد على غرفة كانت أكثر ظلمة منها.

قال جون: «هذه حجرة الانتظار لقاعة العرش»؛ وعلى الرغم من أنّه تكلم بشكل
مستوفٍ فإنّ صوته كان يحمل بعض الحماس، كما لو أنّه كان كلما دخل إلى هذا المكان
يسمّع جلبة بعيدة ضعيفة لصوت صليل سيف مع نصل خنجر أو صوت فرقة لهب.

اجتزنا الغرفة ومررنا بالمدخل الضيق خلفها، لم يكن به حاجة ليقول أيّ شيء،
فقد انتصب مقعدٌ حجري مقابل الجدار اليميني بمسند عال مقوّس، إنّهُ عرشُ الملك
مينوس Minos.

قال جون بهدوء: «ينتصب هنا تماماً كما وُضع بالأصل، وكان هناك أو إنّ ملقاة

بقربه على الأرض وجرّة زيت مقلوبة».

بدا المشهد وكأنه يتضح خارجاً من الظلال عندما وقفنا هناك، هنا في هذا المدخل الضيق في يوم كهذا من شمس وريح قبل أكثر من 3000 سنة مضت، ربما وقف زعيم إغريقي شاب حذر يلهث قليلاً مستعداً بسيفه القصير القرمزي، فقد توازنه للحظة بحذر قبل انتقاله إلى قتل الشخص المغرور اليأس الذي يلوح فوق العرش.

ومرة أخرى في الشمس، قادنا جون إلى غرفة في الأعلى، حيث وجدت نسخ من لوحات جصية في أماكن مختلفة من القصر علقت هناك خلف زجاج. وقد حُفظت النسخ الأصلية بأمان في متحف بمدينة كانديا Candia. كانت هناك صورة جصية ساحرة لثور واثب، هجم الحيوان الهائل بقفزة كاملة وتشبّث لاعب رياضي بقرونه، ومازال على مائراً ينهض من الأرض في اندفاعه الأول إلى الأعلى، وآخر تتدلى خصلات شعره وهي تلتف على ظهر الثور، وثالث انتصب ويداه ممدودتان للإمساك بيدي زميله وهو ينزل على الأرض.

هنا أيضاً كانت صور لجماهير تشاهد الألعاب إنها كتل من وجوه صغيرة وأشخاص رُسموا بخط أسود على طبقة بألوان مختلفة، أسود وأحمر لفريق رجال ورقع بيضاء للنساء، اللاتي جلسن يُثرثرن بتلهف بأثواب فضفاضة جميلة وعقصات شعر متموجة على نمط العصر الفيكتوري الأول.

اجتازنا المكان إلى أن وقفنا على الحافة الشرقية للرابية، وهنا تنحدر الأرض بشدة في شريط طويل أخضر مستو، وعلى الجانب الآخر البعيد تلالاً نهر صغير ماراً بين الأشجار، ووراء ذلك ارتفعت الأرض بشكل حاد فوقنا في مجال صخري رمادي مخضّر.

قال جون: «نعتقد أن أحداث الثور الواثب وقعت هناك في الأسفل تماماً، إنه مكان مثالي للحلبة، فهي القطعة المستوية الوحيدة من الأرض في المنطقة».

أسفل منا تماماً ربما على مقاعد تستند إلى الجدار الشرقي للقصر، وهناك بالمقابل،

على طول حافة النهر ربّما في يوم من الأيام جلسَ الكريتيون الشُّمرُ النحيلون مع نسائهم الحَسَناء بشعرهنَّ المعقوص وتنانيرهنَّ المزيّنة يملأَنَّ الجوّ بثرثرتهنَّ وأصوات ضحكاتهنَّ، ثمَّ ينقلب الصَّخبُ فجأةً إلى صمتٍ متوتّر عندما ركضَ أحدُ اللاعبينَ خارجاً ليأخذ مكانه في الحَلَبَة، هناك شخصٌ وحيد، هناك على العشب في الأسفل، وفي الحال كسَرَ الصمتَ صوتُ حوافرٍ سريعة، جاءَ ثور أحمرٌ بِسُمرَة مصفّرة مقابلَ العشب، رأسه إلى الأسفل، قدّمَ مباشرةً نحو شابٍ رشيق القوام، ينحني الفتى إلى الأمام الآن، ويداه مستعدتان، تَبَتُّهُمَا استعداداً للصدمة؛ فالَمَوْتُ محتمٌّ لو انزلتَ القرونُ الهائلةُ أبعدَ من يديه، ثم تنفجرُ في الهواء صرخةٌ مدوّيةٌ من الحشد، إنّه في الأعلى، رجع إلى الخلف بسبب الهجْمة المَجْنُونَة، ولكنّه أطبقَ على القرون يديه، وتازَجَ برشاقة للحظة بينهما؛ وتَحَرَّكَ الرأسُ الهائلُ إلى الأعلى ليتخلَّصَ من العبء الشَّيطانيّ بهياج وفُهمٌ يخور. طارت السَّاقان النحيلتان إلى الأعلى، ثم توازن الفتى للحظة على يديه؛ ثم غاصت قدماه فوق رأسه، وطرحَ القرونُ بعيداً بازدراء وراءه، لينهَضَ منتصباً للحظة على الظَّهر الواسع ثمَّ لِيَتَخَطَّى الذَّيْلَ إلى الأرض. امتزجَ صُراخُ الجُمهور المُهْتَاج مع الرُّغبِ ثمَّ رَقَّ إلى استُحسانٍ دافئٍ وضحكٍ وتصفيقٍ باليد.

مضى الأسبوعُ بِسرعة، وعُدنا مرّةً إثرَ مرّةٍ إلى القَصْرِ، يجذبنا إليه غموضُه المعقد؛ وبدا كما لو أنه يزدادُ كبراً كلَّ مرة نراه عمّا كان عليه من قبل، إلى أن بدأنا أخيراً نُدرِكُ الرِّوايا والمُنْعَطَفات للممرّات المُظِلَّة، ونعلّمُ أنَّ تلكَ الرِّدْهَة المَعْمَدَة في الخارج تقودُ إلى رَدْهَة أُخرى مُزخرفة بِنسخةٍ مُطابِقةٍ لثُرُوس ضَخمة مصنوعة من جلد الثور عُلِّقَتْ ذاتَ مرّةٍ في الماضي هنا؛ وهناك، يوجدُ بابٌ يمكنُ أن يَفْتَحَ إلى دهليزٍ ضيّقٍ يؤدي إلى غَرَفِ الملكة، وفي الغرفة المفتوحة للهواء الطَّلُق هنا، حيثُ جَلَسَتِ المَلِكَة ذاتَ مرّةٍ مع وصيفاتها كانت الجُدرانُ فيها مزيّنةً بدلافينَ مرحةً وأسماكٍ وقناديلَ بحر.

في قصر كنوسوس Knossos لا يمكنك أن تنسى لمدة طويلة أنك قربَ البحر، فليس بعيداً عن تلك الغرفة توجدُ أجملُ مزيّةٍ في القَصْرِ كله، إذ ترتفعُ درجات ضخمَة ضحلة حولَ جوانبِ ردهة ضوئية عميقة في ساحة القَصْرِ المركزيّة المَفْتُوحَة. إنَّها

ليست ساحرة فقط بسبب شيء سحر تمّ بناؤه بجمال شديد في تاريخ مبكر كهذا، ولكن للمهارة الساحرة التي صانها بها السير آرثر إيفنز Sir Arthur Evans، فقد حفر في الأسفل عبر الانقراض المُنهارة؛ لأنه كان من الواجب عليه تقوية كل درجة أو إعادة بنائها بالإسمنت قبل أن يستطيع تفريغ الأرض الداعمة تحتها.

وجدنا في بعض الأوقات طريقنا حول القصر في ضوء القمر، لقد كان غريباً أن نتقل وحدنا في دهاليز مخيفة عبر نهر فضي مخطط بظلال مائلة لأعمدة مفتوحة نحو قاعة غامضة، ربّما فيها لمحات لثلة مقمرة تقع خلف مدخل باب أسود بدا وكأنه إطار لها. كان من الممكن أن يروني أي صوت لوقع أقدام قريب أو لأصوات منخفضة. وعندما أتلصص طريقي حول زاوية لأدخل إلى مقصورة الملكة فأجد هيلدا وروزالين تتمتان في أشعة ضوء القمر المائلة، لم أجد السيدات بتنانير من قماش مقوى اللواتي كنت أتوقع رؤيتهن في الخلف يصعدن الدرج الرئيس بصمت داخل وخارج نور القمر، ولم أر شبح ضابط كرتي شاب من الحرس في جولاته الليلية، ولكن الذي رأيته كان جون النحيل في ثيابه المصنوعة من قماش الفانيلا البيضاء يتسلل برفق في حنايا قصره الحبيب الذي باتت حراسته تحت رعايته التامة الآن، وأثناء ذلك كله كانت العنادل تملأ الجوّ الدافئ بعدوبة لا تنتهي.

نظّمنا حملات قصيرة بالسيارة عبر الجزيرة وعلى طول الساحل نحو الغرب، نسبح ونتنزّه ونسترخي ونأمل المواقف الأخرى الجميلة التي تبعث الحيرة والتي تنتشر تحت الأشجار المعطرة برائحة الصنوبر. واحدة منها كانت تيليسوس Tyllisos تقع على الساحل الشمالي؛ ولكن كل ما أذكره عنها هو أنه وُلد في القرية المجاورة رجل يُسمى دومينيكو ثيوتوكوبولي Domenico Theotokopuli الذي لم يُدع أبداً بأي اسم آخر بسوى كنيته التي هي: إلغريكو⁽¹⁾ El Greco (الإغريقي).

(1) اسمه باليونانية: دومينيكوس ثيوتوكوبولوس (1614-1541) Δομήνικος Θεοτοκόπουλος رسّام ونحات ومعماري شهير في عصر النهضة الإسبانية. ولد في جزيرة كريت التي كانت في ذلك الحين تابعة لجمهورية البندقية (فينيسيا)، التي رحل إليها في سن 26 كغيره من الفنانين اليونان، ثم توجه عام 1570 إلى روما وبعدها في 1577 إلى طليطلة بإسبانيا، حيث عاش وعمل

كنا نلعبُ في بعض الأحيان مع دافيد، وكان اللعبُ معه يتضمَّنُ بشكل كبير أن يربطَ شخصاً ويجرّه دافيد بسرعة كبيرة حولَ الحديقة أكثر فأكثرَ في الحقل. فينهض اثنان على أن يكونا نشيطين جداً. ومن يعرف ماذا؟ كان دافيد دائماً هو الذي يسحبُ بقوة من الطرف الأمامي اللجام الذي ربطَ الشخص الآخر في نهايته، وهو شكل مهم من أشكال التحكم عن بُعد، وكان قد اكتشفَ دافيد مؤخراً كما اكتشف أبوه من قبل أنك تستطيع رؤية الكثير من الحياة إذا تابعتَ المسيرَ إلى الأمام.

بعد عشرة أيام وقت الإفطار قال جون: «من الواضح أن سنخريب Sennacherib لم يجد ماءً كافياً في نهر غومل Gomel. دعونا نبدأ».

لذا ذهبْتُ هيلدا لتنظّم مؤنَّ الطعام، وجون ليترَّبَ مجيء رجل وبغل معنا؛ ودافيد، يشدُّ الرَسَنَ، فشَدَّنِي أنا وروزالين Roslaeen تدريباً على ذلك.

قالت: «أتمنى لو أستطيع ركوبَ البغل، فأنا أعافُ المشي حقيقةً، وكل ما أستطيع عمله هو أن أحاولَ مجازاةَ هذا الطفل، لماذا لا نستطيع الركوب؟».

قلت من الممكن أن يكونَ جون خائفاً. كانت متعةُ السَّفر كلها بالنسبة له في اليونان هي أن يقطعَ الأميالَ على قدميه. وأضفتُ: «ونهايةُ كلِّ يوم تصلحُ كلَّ شيء». ظنَّتُ روزالين أنها ليست طريقةً سعيدةً للتعبير عن ذلك، فقال جون: عندما اجتمعنا عندَ بوابة الحديقة في الصُّباح التالي: «لا يعتقدُ دافيد أنه سوف يأتي، أخبرته أننا كنا سنسيرُ بتمهل فقط، وهو في الواقع في تدريب صارم حتى الآن».

قالت هيلدا وهي تنظر بعاطفة جياشة إلى ابنها الذي استخدمته في أعمال اليوم الجادة: «أتمنى لو كان ابني يستطيعُ القُدوم» - لعلنا سنكون بعيدين عنه مدَّة عشرة أيام.

لوَحنا له ولممرضته، فنظر إلينا للحظة بكآبة من تحت قبعة قش مستديرة؛ ثم ابتسم

حتى وفاته. كان إل غريكو لقباً له بالإسبانية دلالة على موطنه الأصلي، لكنه كان يوقَّع أعماله باسمه الأصلي وبحروف يونانية.

ابتسامة مشرقة مفاجئة لفكرة جيدة خطرت له، وهي أن يسير مجدداً، فلوح بشدة مجيئاً على تلويحنا له، ثم استدار، وذهب بعيداً عبر الحديقة والممرضة تقفز وراءه.

قال جون: «لم أرَ منظرًا خلفياً حيويًا كهذا قط». وانطلقنا ضاحكين إلى الطريق الذي يمرُّ أمام القصر يتقدمنا البغل بحمولته من العلب وأكياس النوم والمعاطف، يقوده رجل أخرق من كريت برونزي اللون يُدعى أليكو Aleko، وتركنا الطريق العام بعد القصر بقليل وقطعنا الوادي على جسر قديم، وشققنا طريقنا مدة عشرة أيام تالية شرقاً على طريق البغال عبر قلب الجزيرة الخالي من الطرق.

لقد بدت الجزيرة أكثر فراغاً ووحشة من البر الرئيس، فلم نرَ شخصاً خارج القرى الصغيرة المنعزلة، وعلى الرغم من أن الوديان قد سُويت بالكامل فإنه ما زال هناك حقول صخرية تغلوا إلى أقصى حدٍّ يمكن أن تبقى الصخور فيه معلقة على جوانب الجبل المنحدرة بشدة.

عاودني الإيقاع الجميل الذي أذكره عن السنة الماضية والتمددات الحلوة المنعشة على طول الجداول أسفل شجرات الزيتون والصفصاف والبتولا؛ ثم الجرّ المؤلم على طريق حجريّ جانب تلة ضخمة مغطاة بأغصان منخفضة، حيث تشتد رائحة الجولق والزعر البري في حرارة الشمس؛ ونرى بين حين وآخر لمحات للبحر السديمي امتدت عبر منحدر في التلال؛ ثم تعود لتهبط في الوادي مرةً أخرى، وربما مع مشهد واسع بعيد في الأفق البعيد مقابله لقرية صغيرة نسير باتجاهها.

أخبرتني روزالين بعد ذلك أن اليوم الأول كاد أن يقتلها، وبعد اجتياز الميل الأول أو الثاني أصيبت مشبعةً بالحزن من احتمال وقوعها على الحجارة الحادة وقت وصولنا النهاية الشرقية لكريت. كنْتُ عند المساء متعبةً جداً لدى صعودنا المنحدر الأخير باتجاه قرية تقع على كتف تلة ضخمة، حيث اعتقد كل من هيلدا وجون أننا يمكن أن نخيم في الليل، وكُنْتُ قد تدرّبت جيداً بعد السير الطويل في خرساباد. بدأت أشعرُ بقلق عليها.

سأل جون رئيس العمال في قرية سكوتينو Skotino إن كان بإمكاننا النوم على

أرض بيدر يمتلكها، وهي عبارة عن دوائر كبيرة من أرض مُسَطَّحة محاطة بجدار صخري منخفض تنتشر في كريت واليونان. وقد أكبنا رئيسُ العَمَالِ إلى مسافة أبعد من القرية متبوعاً بجميع الشُّكَّان. لم تكن هذه البيادر مغرية كغرفة نوم ولكن في البلاد حيث تَلْتَفُ الأفاعي خلال الشُّجيرات والعُشب الطَّريِّ وأشياء أسوأ من ذلك بكثير تَظْهَرُ في مُعظم البُيوت فتكوِّن بيادر.

البيادر هي المكان المطلوب.

تمدّدنا لنرتاح، ووضعنا المعاطف تحت رؤوسنا، كنّا نتفحّص التلال التي تمتدّ حتّى البحر الحريريّ البعيد، والتي أصبحت ذهبية تحت أشعة شمس الغروب. قالت روزالين: «لا أكاد أصدّق أنّي توقفتُ عن السَّير، لا أعتقدُ أنّي سأكونُ قادرةً على الانطلاق مرّةً أخرى».

بدأنا بتحضير وجبة المساء، فأحضَرَ القرويون خبزاً وزيتوناً وجبناً وبرتقالاً جيداً، وقمنا بتسخين حساء فوق موقد صغير وفتحنا معلّبات، ثم جاء الزعيمُ يحملُ بفخر قارورةً جميلة من خمر محليّ..

تحلّق القرويون حول الجدار المُنخفض للبيدر في صفوف ثلاثة، يقفُ الأطفالُ في الصَّفِّ الأوّل منها، لم يتكلّموا ولكن حدّقوا فقط، فقد كان ذلك أكثر شيء جلب لهم المتعة منذ سنوات، وربّما في حياتهم كلّها. تناولنا الطَّعام وشربنا الخمر ببطء، حتّى خيّم الظلام؛ وهم لا يزالون واقفين هناك، بدأت النُّجومُ تخرقُ السَّمَاءَ الأرجوانيّة العالِيّة، وتسلّق القمرُ المُتضاءلُ فوق التلال الشَّرقيّة، وفجأة حصل شيء ما لروزالين فقد فعلَ السَّحرُ فعله من الخمر الكريتي، فتبدّد عنها الشُّكُّ والتَّعبُ لإدراكها المتعة المُطلقة في الوصول إلى مكان جميل بعد مجهود يوم شاق.

قالت ضاحكةً بسعادة: «هذا أكثرُ مكان مثالي، وأكثرُ مساء مثالي، وأكثرُ بيدر مثالي، عرفتُها في حياتي» وضحكوا كلّهم كما ضحك القرويون أيضاً، ثم تركونا وانسحبوا بعيداً إلى منازلهم.

لا أستطيع القول أنها أفضل ليلة أمضيها في حياتي، كانت الأرض قاسية بشكل قاتل، وفي منتصف الليل تذكرت الأيام عندما كنت أرقب الكشافة الصبيان، فوجدت سكيناً في حقيبتي، فقمّت لتوّي بحفر حفرة في الأرض كما يفعل الكشافة الماهرون فيجهزون الأرض لتناسب أوراكهم في المخيمات، وقد أحسست بفرق كبير فملأت شرق كريت بسلسلة من الحفر في الأجران، وتأملت ألا أكون قد خرّبت للقرويين المحترّين بأمر تلك الحفر موسم الحصاد لتلك السنة.

ثم تابّعنا السّير عبر الأرض المسحورة؛ كانت روزالين تضعف كلّ يوم قرب فترة الظهيرة، ولكنها تنتعش في الحال بعد كأس من خمر كريتي مع تناول طعام الغداء لتذهب إلى البحر في فترة بعد الظهيرة والمساء على أطراف أصابعها، وتقول في أوقات الراحة بأنّ المشي كان مدهشاً حقاً، لماذا لم يخبرها أحد عنه من قبل؟

بعد واحدة من استراحات الظهيرة تلك ذهب جون مع قروي قال إنّ باستطاعته أن يريه القليل من أحجار قديمة جداً ليست بعيداً جداً في حقل ما - وذلك لأن كلّ السّير الذي قام به جون كان له فيه هدف ضمني؛ فهو يجمع مادة لكتاب شامل عن جميع المواقع الأثرية في الجزيرة، استفدت وهيلدا وروزالين من الوقت بشكل مريح جداً بالنّوم سريعاً في قطعة أرض معشوشبة صغيرة تحت شجرة ظليلة خارج قرية كالاخوريو Kalachorio غير مباليين بقهقهات وهمسات مجموعة أولاد خبثاء عنيدين لحقوا بنا، وعندما استيقظنا وجدّ أنّ قبعتي اختفت، كانت قبعة شمس لها حواف عريضة قديمة باهتة، إنّها أسوأ جداً من أن تلبس، وذلك لأنني ثقبته عدة ثقوب في القمّة كطريقة لتهوية إضافية، وفي الحقيقة لم أهتم قط، ظللت ألح على جون بأنّي لم أهتم أبداً عندما سمع عنها، ولكنّه أخذ وجهة نظر مختلفة تماماً. وقف بلا حراك، ثمّ عاد بنا إلى القرية، وجمع الناس، قامت هيلدا بترجمة الخطاب العاطفي الذي كان لمصلحتنا؛ هل هذه حسن وفادة أهل كريت؟ ألا يستطيع مسافر أن يغلق عينه للحظة واحدة في قرية العار هذه دون أن يخاف من اللصوص؟ كيف يمكن لقرويي كالاخوريو أن يرفعوا بأيّ شكل رؤوسهم مرّة أخرى إذا علموا أنّ قرويي لندن سيحكون قصتهم:

«هل سمعتم؟ هؤلاء الرجال من قرية كالاخوريو، في تلك الجزيرة حيث كان حسن الضيافة في يوم من الأيام مسؤولاً مقدساً، لم يكونوا أخلاقين». وما لم يتم إعادة قبعة السيدة في اليوم ذاته، فإن قرويي لندن سيسمعون بكل تأكيد عن ذلك الشيء المُنجل.

نكس أهل كالاخوريو رؤوسهم، وانسحبوا دون أن يتفوهوا بكلمة. بعد توقف، استدار جون على عقبه، وسار بنا في طريق مرصوف بكل امتعاض وأسف، وعندما غابت القرية ابتسم وقال: «أعتقد أنك ستسترجعين قبعتك - باركيهم». لم يكن جون قد بلغ الثلاثين من العمر بعد، ولكن وقتها بدا الكريتيون بما فيهم الشباب والكهول بدوا وكأنهم أولاده.

وصلنا في ذلك المساء إلى كراسي Kراسي وهو مكان صغير على جبل عال برزت فيه البيوت الصغيرة البيضاء على الدرجات في كل جانب في خط منحدر ضيق، وجدنا بيتاً للمبيت فيه شرفة مفتوحة على طوله، ثم تابَعنا سيرنا للأعلى إلى قمة القرية لنشاهد المنظر، كنا مرتفعين جداً إذ أن البحر كان بعيداً عن التلال، وامتدَّ ذهبياً من الشرق إلى الغرب، وامتدَّت رؤوس بحرية طويلة أرجوانية في داخله مقابل شمس المغيب، كانت شجرة دلب ضخمة هناك في الأعلى تظلُّ حفرة مقنطرة قديمة جميلة قطعت في قلب سفح الجبل خارج البركة الصخرية تدفقت أبرد وأنقى مياه ذفتها في حياتي.

عندما نزلنا الطريق المنحدرة مرة أخرى بحثاً عن العشاء شاهدنا شيئاً غير كريتي يصعدُ السفح ببطء، إنَّه شيء طويل جداً ونحيل بفانيالات رمادية وقميص بلون أصفر باهت - إنه ستون.

سأل جون: «كيف وجدنا بحق السماء؟».

قال ستون إنَّه وصل إلى الفيلا في اليوم الفائت، واكتشف اتجاهنا العام حسب المسافة المحتملة التي قطعناها، فاستأجر سيارة لتقله عبر الطريق الساحلي إلى القريب من تلك النقطة؛ ثم انطلق في الداخل على قدميه، يسأل عن أخبارنا في طريقه.

قال: «وَحَالَتِ التَّلَالُ دُونَ دُخُولِي، كَانَ كُلُّ شَخْصٍ أَقْبَلَهُ يَعْرِفُ تَمَاماً أَيْنَ كُنْتُ». كان الشَّيْءُ الْغَرِيبُ هُوَ أَنَّهُ لَمْ يَقْطَعْ طَرِيقاً سَلَكَناه بِاسْتِثْنَاءِ الْمِيلِ الْآخِرِ أَوْ مَا يَقَارِبُهُ.

تناولنا العشاءَ على الشرفة فوق الطريق الصَّغِيرِ - وقام ستون برسم صور ورسومات بيانيَّة ليرينا كيفَ بدا رأسُ القناة في وادي غومل Gomel يؤكده وجودُ سدٍّ وبوابةٍ لِلتَّحَكُّمِ بِمِياهِ النَّهْرِ الدَّاخِلَةِ إِلَيْهِ والخارجة من القناة، وهناك كتل ضخمة منحوتة كعلاماتٍ لمدخله، وكان جايك قد تدلَّى بحبل من قمة جرفٍ مرعبٍ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَنْسَحَ نَقُوشاً نُحِتَتْ فِي مُتَنَصِّفِ الْمَسَافَةِ فِي الْأَسْفَلِ على صفحته، بينما أمسك ستُةُ أشخاص يزيديون بالحبل في القمة؛ وفي أثناء ذلك كانت ريغموور المسكينة مستمرةً بكلِّ مثابرةٍ بالنقاط صور لسيدها ومعلمها المتدلِّي بين السَّمَاءِ والأَرْضِ، متسائلةً طوالَ الوقتِ أيَّةُ دُعاةٍ قد يكون أطلقها اليزيديَّة البسطاء لدى مرآهم هذا المشهد...

توسَّلَ إلينا صاحبُ المنزل أنْ نستخدمَ غرفَ نومه الجميلة تلك الليلة، فتمسَّكَ جون وهيلدا بالشُّرفة في الهواء الطَّلَق، بينما ترددتُ وروزالين، ولكنَّ المنظرَ الناعمَ للأريكتين المغبرتين في غرفةِ الواجِهةِ في الطابقِ الأوَّل - التي تُفْضِي إليها من بابِ الشارعِ مباشرةً مجموعةً درجاتٍ - كان إغراؤها لا يقاومُ، أما ستون فبعدَ سيرِ يومٍ شاقٍّ ما يقاربُ العشرين ميلاً، استسلمَ لغرفة نومٍ حقيقيَّة في الخلف، ولكنَّ لفترةٍ وجيزةٍ تنبهُتُ وروزالين لشبحٍ طويلٍ يجرُّ بسطاً، فتعثَّرتُ جانبَ غرفتنا، وسمعناه يهْمُهُمْ وهو يهرُبُ عبرَ البابِ إلى الشرفة: «هل هناك أيُّ جنديٍّ منهم قادم إلَيَّ من فوقِ الجدار».

استيقظنا بعد مضي وقتٍ طويلٍ مرةً أخرى على صدى قعقة حوافرٍ بينَ جدرانِ الطَّرِيقِ، ثم سمعتُ قرعةً عنيفةً على البابِ أسفلَ الدرج، نظرتُ إلى ساعتِي، كانت تقاربُ منتصفَ الليل، استيقظتُ وروزالين ونظرتُ عبرَ النَّافِذةِ الصَّغِيرَةِ، ثُمَّ عَادَتِ الْقَرَعَاتُ مرةً أخرى بصوتٍ أعلى، قالت: «إنه بغل، أعتقدُ أنه سيكونُ في أعلى الدرجات في غضون دقيقة».

نهضت وتدلينا خارجَ النافذة، وظهرتُ عن يسارنا ثلاثة رؤوس تنظرُ من فوق حاجز الشُّرفة، انعكسَ نورُ القمرِ على الجدرانِ البيضاءِ والمقابلة وعلى الحصى وعلى

المجموعة الجميلة في الأسفل كان رجل كريتيّ أسمى يرتدي عباءة كبيرة، جلس هناك على بغل فضي، يحمل عصا طويلة موجهة إلى الأعلى وكأنّها رمح، ووضعت على مقدمتها المدببة - مثل الترس عند المبارزة - قَبْعَتِي الرَّثَّة القديمة.

وعندما شاهدنا جميعاً، ألقى خطبةً شارحاً أنه عند الغروب قام ثلاثة صغار أشرار من أهل القرية لم يتعاملوا بما يجب من سمعة حسنة وأخلاق جيدة، انهاروا واعترفوا، وعندها أرسله القرويون في الحال ليركب في الليل ويبحث عنا حتى يجدنا، ولن يستطيع العودة إلى قومه الذين ينتظرونه بقلق، دون أن يأخذ معه كلمة تؤكد أننا سنخبر قرويي لندن بأن أهل قرية كالاخوريو Kalachorio (ماعدًا ثلاثة صغار مؤذنين) كانوا رجالاً شرفاء.

ألقي جون بالمقابل خطاباً لطيفاً، لكنّ النعاس كان يغالبه، ثم وُجّهت العصا نحوي فنزعت زينتها المهلهلة، انعطفت الراكب محياً ومبتسماً ومقعقاً في الممر المنحدر وهو سعيد، واستقرّينا مرة أخرى نحمل لحظةً مرح أخرى في الذاكرة.

وجدنا أنفسنا في الليلة على الساحل نخيم على شاطئ فارغ بعد قصر ماليا Mallia الذي تبعثر بين الأزهار والعشب قريباً من البحر، كانت الحقول على طول الشاطئ مرصعة بطواحين كدمى صغيرة على قضبان معدنية هزيلة ثبتت نهايات الأشربة البيضاء في الطواحين على إطار مستدير من سلك نحيل؛ عددتها كانت ما يقارب خمسة عشرة على الأقل، وعندما هبت نسمة بحرية مسرعة نحو الداخل وقت الغروب بدأوا جميعاً يصلصلون بمرح ويدورون، ويدون كركة طواحين الهواء الوردية في أحد المعارض، التقطت من الشاطئ رأس مطرقة صغيرة مصنوعة بشكل جميل من حجر بلون أخضر، وهي ما زالت بحوزتي حتى هذا اليوم، قال جون: إنها كانت من العصر الحجري الحديث Neolithic، ربما صنعت في مكان ما حوالي 3500 ق. م.

أحضرت لنا بعض الصيادين الذين كانوا يصطادون قربنا بعضاً من صيدهم من أجل العشاء، كان يتضمّن أخطبوطاً صغيراً جداً، وعند حلول المساء اختفى النسيم بشكل كامل، وقمنا بطهي طعام العشاء على نار خشب طاف مالح، راح يطلق فرقعات نارية

صغيرة متألقة زرقاء وخضراء عبر اللهب، بعدئذ، دُعمت برمل ناعم حول الجمرات المتقدة بشكل ضعيف، كنا سعداء ونحن نتحدث وندخن في الهواء الساكن الدافئ، فقال ستون: «يذكرني رأس المطرقة تلك بيوم كنت أبحث فيه عن وعاء في الجبال قبل أن نغادرها، وعندما كنت أسير في طريق ضيق جداً وعال - حافة هاوية حقيقية - على جانب واحد من ممر ضيق شاهدت فجأة وعاءاً يتنقل عبر الممر الضيق، ومن المكان الذي كنت أقف فيه لم أستطع رمايته بشكل جيد، وكان هناك مكان واحد فقط يمكنني من ذلك على بعد بضعة ياردات حيث اتسعت الحافة قليلاً، ذهبْتُ هناك في الوقت المناسب وأطلقت عليه، لكنني أضعته وذاك ما حدث، فقد اختفى، ولا يمكن رؤيته مرة أخرى، حدثت النقطة حيث كان عندما أطلقت النار، وانحدرت إلى الممر الضيق فوق الجانب الآخر من النقطة كنوع من الفضول لرؤية هل بالإمكان إيجاد مكان الرصاصة التي استقرت في واجهة الصخرة، وكم كانت مسافة الخطأ في التصويب، فوجدت ثقب الرصاصة بسهولة شديدة، وكان يوجد حوله نجمة بيضاء مكان الصخور التي تناثر منه انظروا ماذا وجدت على بعد انش واحد من ثقب الرصاصة».

أخرج من جيبه شيئاً صغيراً وطويلاً ومُدبباً، ناوله بالدور، لقد كان رأس حربة من عصر حجري. تابع: «لقد كان مدفوناً لنصفه بالصخرة قرب ثقب الرصاصة، ولكنه كان مثبتاً إلى الخارج في زاوية مهمة تبين أن الشخص الذي أطلقها كان قد صوّب تماماً من النقطة ذاتها التي صوّبت منها، وربما ذهب بالاندفاع ذاته للوصول إلى النقطة الوحيدة المحتملة في الوقت المناسب، وقد ترك الأثر في المكان نفسه كما فعلت».

نظرْتُ هيلدا إلى حجر الصوان الطويل، وقلبتُه في ضوء النار الضعيف، ثم أعادته لستون. قالت: «ربما كان وعاءه سلفاً لوعاءك؛ بسبب التفافه بعيداً فقط، أتمنى أن يكون ذلك».

قال جون: «قصة جميلة، ولكنني أتمنى لو أنني علمتُ كيف أن علامته من العصر الحجري شابهت علامتك».

عدنا في اليوم التالي مرة أخرى إلى الداخل، وتسَلّقنا إلى قرية جميلة تُدعى

ميلاتوس Milatos، حيث ظهرَ بيت صغير جداً، وعلى جدرانهِ البيضاء نافورة
من أزهار إبرة الراعي زهرية اللون قد نبتت من علب قصدير ضخمة صُبغت بلون
أبيض كلون الجدران، وثبتت على منصّة استوعبتها كلّها. احتوت بعضُ المنازل على
درجات خشبيّة ترتفع في الخارج، وهنا تبدو إبرة الراعي كـرغوة على السطح الأعلى
لبيت الدرج تتدفق على جوانب الدرجات والسور، وتتجمّع كموجات متدفقة عبر
قضبان السور، وتمايلُ الرؤوس العطرة والجميلة والأوراق الباهتة بلطف في أشعة
الشمس.





جون پندلبري في كريت



ميلاتوس الحافلة بالزهر



عائلة كريتيّة

هَبَّ علينا في البرِّ عندَ المساء من ذلك اليوم نسيم بارد جاءنا من البحر، وقصفتْ غيوم داكنة، خيمنا على أرض مستوية قرب كنيسة صغيرة بيضاء، وتنقل جون بنظره في السماء المُكفَهَرَة متفحصاً وقال: «يومان إضافيان فقط من المسير، أو يوم واحد فيما لو قطعنا الجزء الأخير بالقارب، إنني في الحقيقة أتمنى أن نصلَ إلى منزل سيغر Seager قبل أن ينقلب الطقس».

قال ستون: «حسناً، وإذا أمطرت الليلة فيامكاننا الانتقال إلى الكنيسة، أظنُّ، حسب ما أخبرتموني أن ماري قد اعترأها الكلال».

توقفَ المطرُ، وكانَ اليوم التالي مفعماً بنسمات البحر والغيوم البيضاء المتلائة التي امتدَّت عبرَ سماء زرقاء داكنة وظلال كبيرة تتساقط أماناً وفوق مُنحَدَر التلال التي سطعت عليها أشعة الشمس. سرنا في ذلك اليوم طريقاً طويلاً جداً، واعتلينا في المساء آخرَ هضبة طويلة، وشاهدنا على البُعد مجموعة بيوت صغيرة على الطرف الجنوبي من بحيرة كبيرة امتدَّت في ظل تلال عالية محيطة بها. قال جون: «إنَّها ليست بحيرة حقيقية، ففيها منافذُ شمالاً وجنوباً إلى البحر، في خليج ميرابيلو Mirabello».

وفي وسطه كانت ترسو سفينة بيضاء صغيرة.

قال: «إنَّها سفينة صغيرة بخارية تابعة لشركة خطوط إمبراطورية، ففي بعض الأحيان ترسو هنا الطائراتُ المسافرةُ بين أثينا والإسكندرية». تقدَّمنا ببطء أسفل الطريق المنحدر؛ استغرقَ حوالي ساعة، ثم وصلنا إلى القرية المحاذية للماء. لقد كانَ مكاناً صغيراً قاحلاً، يحتبسُ بينَ التلال والماء، ولم يكنْ هناك مكان لبناء الخيام حتَّى في الأرض المكشوفة؛ وكانت هيلدا مترددة في تجربة أي من تلك المنازل. كان التعبُ يبدو واضحاً عند التوقف عن السَّير حتَّى يرتاحَ المرءُ فوراً، وقفنا متشككين للحظات على رصيف الميناء نتساءلُ عن أحسن خطوة تالية، وأطرافنا متألِّمة، والجوعُ يعضنا، والهواءُ قرب الماء شديد البرودة، كانت السَّفينةُ البيضاءُ الصغيرةُ تُشَقُّ طريقَها إلى رصيف الميناء، أخذنا نرقبها بكسل ونحنُّ نناقشُ، فأدارَ البحَّارُ الواقفُ على الدَّفة السفينةَ الصغيرةَ ببراعة وأحضرها بلطف عند أقدامنا، وثبتت السفينةُ الصغيرةُ، ووثبَ إلى الرِّصيف.

قال للجميع دون استثناء: «تحياتُ قائدُ السَّفينة پول Poole، وهو يتمنّى أنكم ستضعُدونَ إلى مَتْنِ السَّفينة الصَّغيرة لتناول طعامَ الغداء وتمضون الليلةَ على متنها».

حدّقنا فيه كيفَ يمكنُ لهم.....؟ لا بُدَّ أن يكونَ مجرّدَ سحرٍ كريتيّ مرّةً أخرى، طنّنا ذلك، عندما كُنّا نخطو مندهشينَ إلى داخلِ الزورق. فَتَحَ البَحَّارُ الصَّمامَ، ولَفَقْنَا بشكلٍ دائريّ، وابتعدنا والقاربُ يثُرُ بصخبٍ متّجهاً نحوَ السَّفينة الصَّغيرة. كانتِ السَّفينة الصَّغيرةُ أنيقةً جداً وزاهيةً، وكُتِبَتْ عبارة «Imperia» بالذهَبِ على مقدّماتها؛ ووقَفَ بأعلى سلمِ الممرِّ رجلٌ صَغيرٌ مرحٌ مرتدياً بَرّةً بيضاءَ وشعره رماديّ أشعث، وعيناه إيرلنديتان واسعتان.

قال قائدُ السَّفينة پول Poole وهو يُرَحِّبُ بنا على مَتْنِ السَّفينة الصَّغيرة: «كُنّا نترقّبُ قدومكم في اليومين الأخيرين، لقد تبيّنَ أنَّ جميعَ النَّاسِ على الشاطئ كانوا يعلمونَ أنَّ هناكَ خمسةَ أشخاصٍ إنكليزٍ مجانيين يسلكونَ تلكَ الطريقَ عبرَ الجبال. يقولونَ لماذا السَّيرُ عندما يكونَ باستطاعتكم ركوبُ بغلٍ؟» اختلستُ نَظْرَةً إلى روزالين. وتابعَ: «لذا بقيتُ متنبهاً وحددتُ موقعكم بواسطة منظار الميدان من حوالي ساعة مضت. بالتأكيد لا تعلمونَ كيفَ حصلَ هذا - ليسَ كما كانَ قرعُ طبولٍ أو إشاراتُ دخانٍ، إنّها منحةٌ ربّانيّةٌ لنا كي نحظى ببعض الضيوف، تعالوا وانظروا إلى قمراتكم ثمّ نذهبُ لاختساء بعض المشروبات». وجَدنا أنَّ ثلاثةَ موظفين قد أدخلوا قمراتهم وذهبوا ليناموا على ظهر السَّفينة؛ ولكنهم أكّدوا لنا أنّه ليسَ هناكَ مشقّة، لقد بدّوا جميعاً مبتهجين جداً لحصولهم على رفقةٍ جديدة تُغيّرُ الرتابة التي هم فيها، إذ يبدو أنَّ عملهم موحشٌ، فهم يَرونَ المُسافرينَ لمدّةٍ قصيرة عندما تَحُطُّ الطائراتُ هنا، وهذا كلُّ شيء، أخبرنا قائدُ السَّفينة Poole عندما كُنّا نتناول عصيرَ الفواكه أنّه يفترضُ أن يُنْطَلَقَ بالسَّفينة الصَّغيرة Imperia بذلكَ لإنقاذِ طائرةٍ هبطتُ لسببِ اضطراريّ بين أثينا والإسكندرية.

قال: «ولكننا لم نَتَلَقَ أيَّ نداءٍ في السنتين التي كنّا فيهما هنا، ولا نستطيعُ الآن الذهابَ على أيّة حال».

سألنا: «لماذا لا تستطيعون؟».

قال: «لأننا نقبّع في القيعان القاسية على مياه ضحلة على زجاجات خمر فارغة»
(بسبب قلة العمل).

احتشدنا في الصالة الصغيرة الدافئة، لقد كانَ غذاءٌ ممتعاً، ومساءً جميلاً. بقينا مع مرافقنا جالسين حول الطاولة بعد شرب القهوة، وتدفق الخمر الكريتي الجيد، وكنا نُدخّن السجائر ونتكلّم بشكل متبادل عبر الطاولة؛ ونسمع حكايات من قائد السفينة المرح، ونسرّد قصصنا عن مصر وبغداد وكردستان. جلسَت روزالين كالتائمة وهي مبتسمة بسعادة، ولا تكاد تصدّق أنّها قطعت نصف كريت الشرقي سيراً على الأقدام بنجاح، وأنّ بانتظارها سريراً حقيقياً وملاءات وكلّ شيء. قال قائد السفينة پول Poole: «أيّها الناس لقد سافرتم كثيراً»، ففتحت عيناً واحدة وقالت بشكل حالم: «آه! نعم، ذهبنا لأميال وأميال».

غادرنا باكراً في الصّباح التالي، وكانَ قدوم طائرة من أثينا متوقّعاً وعندما غادرنا السفينة البيضاء الصغيرة الساحرة كنا مرتاحين ومبهجين، ولوّح لنا مضيفونا اللطفاء من فوق الحاجز، كانت طائرة مائة تهدر منخفضة من فوق الجبل الشمالي وتستقرّ على المياه الهادئة، لتجعل سفينة Imperia تبدو صغيرة أمامها، وهي تندرج فوق سطح الماء ببطء إلى جانبها.

كان سيرنا قد انتهى، حيث كانت أقدامنا متقرحة، ووافقت الأغلبية على أن نجتاز خليج ميرابيلو Mirabello بواسطة زورق بخاري عوضاً عن السير حول خط الساحل الطويل. ودّعنا أليكو Aleko والبغل العجوز الطيب، ونقلنا أمتعنا إلى حوض مركب صغير قويّ مسقوف متّصفه، والمالك يقف عند الدفة. وفي اللحظة التي كنا فيها مستعدين لنبداً، اقترب مندوب يسأل هل بالإمكان أن يرافقنا كاهن محليّ يريد العودة إلى قريته في منتصف طريق الخليج. رحّب جون وهيلدا بالشخص المبجل الذي يرتدي ثوباً أسود، وزادت من طوله المفرط قبعته التي تشبه المدخنة عندما عبر الرّصيف، وخطا على ظهر المركب، كان المقوّض الذي أسرع عائداً إلى منزل ليحضره قد لحق به الآن حاملاً كرسي مطبخ حيث جلس بوقار وسط ظهر المركب تماماً، وجهه إلى مؤخرة القارب، انحنى الكاهن لنا بوقار، وأخذ مقعده، ورتّب ثوبه المتدلّي؛ وجلسنا على ظهر السفينة حول قدميه، تحرّك المركب

بعيداً عن رصيف الميناء، والتف جنوباً إلى قناة ضيقة بين أرض مستوية، وعند الطرف الجنوبي للقناة حيث عبرت إلى البحر المفتوح، يصل الضفتين جسر مشاة طويل عال. ارتفع بشكل كاف فوق الماء ليسمح بالمرور تحت الجسر، ولكن هل كان ارتفاعه كافياً لمرور قلنسوته المقدسة، تساءلنا جميعاً فجأة، وعندما كانت قلنسوته تقترب من أسفل الجسر بسرعة وهو يجلس عكس سير المركب كنا كالنائمين بلا حراك، استطعنا فقط التحديق مشدوهين بالرأس الملتحي الذي سيضد بوقاحة وعدم احترام، وما كنا نرجوه فقط هو إعادة المدخنة عندما تسقط من السفينة.

انسابت مقدمة السفينة أسفل الجسر، التقطنا أنفاسنا، ثم انسابت بعدها مدخنة دون أن تمس بمسافة إنشين على ما أظن، وعندما عبرنا الجسر كانت عيون وقورة ترفب وجوهنا وهي تنتقل من التهيج إلى الارتياح، تجعدت عيناه ببطء، واخترقت لحيته الكثيفة ابتسامة كبيرة، ورفع إصبعين بشكل أفقي ليظهر حد الأمان، لم يكن هناك ما يدعو إلى القلق؛ فالظاهر أنه اختبر ذلك الجسر وهو جالس على الكرسي لمرات عديدة، فكانت له القيادة كلها.

أخذت المياه تنشط الآن بفعل ربح متتالية، وتمايل الكرسي الضيق كثيراً، ولكن تلك المخاطرة أيضاً قد تم التغلب عليها أيضاً، وبعد قليل أنزلنا الرجل الطيب على الشاطئ الغربي لخليج ميرابيلو Mirabello؛ منحنا بركته من رصيف الميناء، ومن يعلم أنها لن تجلب لنا السلامة خلال الساعة التالية؟ إذ بدأت الريح تحرك موجات كبيرة، كنا نتجه إلى خليج في الشاطئ الجنوبي يدعى پاخياموس Pakhyammos، وهو شاطئ محصن، ولدى اقترابنا منه كانت هناك فجأة موجات خضراء هائلة ورذاذ كثيف يندفع فوق الصخور المنحدرة الكالحة، وأصبح قائد المركب يندفع إلى الخور رغماً عنه، وعيناه القلقتان تبحثان في الخضم الأزرق المخضر حول القارب عن إشارات لصخور كامنة، وهو يحاول إعادة توجيه مقدمة القارب إلى البحر، وتقدمنا وبيبء شديد بعيداً عن الصخور، وفي النهاية ابتعدنا عنها، ثم انعطفنا وسرنا باستقامة نحو امتداد منبسط في الرمال المفتوحة خلف تلك الصخور.

هناك طريق امتدَّ من الشاطئ إلى سهل واسع أخضر نبتت فيه الأشجار، من بينها استطعنا رؤية سطح قرميد أخضر طويل، وعلى قمة الطريق رأينا رجلاً وامرأة ينتظران، كانا صاحب المنزل وزوجته.

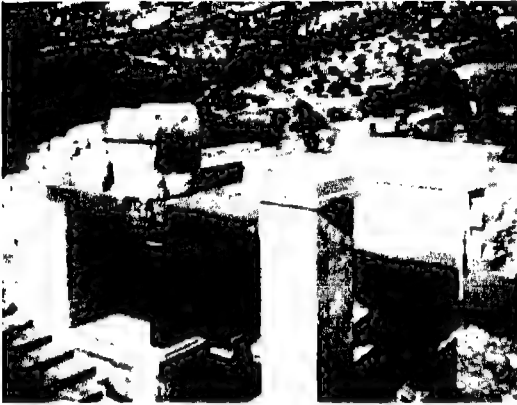
بنى هذا البيت عالم الآثار الأمريكي ر. ب. سيغر R. B. Seager الذي نقّب في مدينة مينيوتا في منطقة غورنيا Gournia القريبة من هنا، بناءً وتركه لنيكولاس Nicholas الكريتي على أن يحافظ عليه ويكون مستعداً لأي طالب في علم الآثار يودّ الإقامة فيه ويعتني به، قال نيكولاس وزوجته إنهما شاهداًنا نتقدّم عبر المياه من بعيد، وخافا عندما اختفى المركب في بعض الأوقات في أحواض من الأمواج.

بعد فترة وجيزة كنا نشعرُ بأمان في البيت الجميل نستريح في فناء مرصوف سطعت عليه أشعة الشمس الحارّة ونبتت كلُّ أطراف إبرة الراعي بلون أصفر شاحب وزهري وأحمر داكن نبتت في أحواض خضراء كبيرة وأوراق عشب كبيرة من ترمس أصفر وأزرق وتكتلات من زنبق برزت مقابل الجدران البيضاء، كما تدلّت شجرة أزهار العسل كثيفة وعطرة فوق الأبواب الخضراء الجميلة. ارتفعت وراء الخليج كتلة ضخمة قائمة لجبل كافوسي Mount Kavousi وهي تفصل القمة التي في أقصى الشرق عن كريت وكنا سعداء لكونها كذلك.

انتهت رحلتنا بشكل جيّد في هذا المكان الجميل، فاسترخينا مدّة ثلاثة أيام في الشمس، وسبّحنا في تجويف صغير أسفل المنزل، ومشينا عبر الشوارع المرصوفة بعناية في غورنيا Gournia العتيقة داخل وخارج بيوتها التي لها من العمر 4000 سنة، وعند باب كلّ بيت عتبة خارجية مزخرفة؛ وسرنا في المساء عبر القرية الصغيرة، قرب نُزل تافيرنا Taverna المضاء حيث كان هناك دوماً صوت غناء وصوت آلة العيتار اللطيف، وسرنا في أعلى الطريق المؤدي إلى المنزل المحمي؛ حيث كان الصوت الوحيد عند المساء صوت عندليب يبقب بين الأصابع الصفراء المجعّدة لأزهار العسل مع همس البحر الذي لا ينتهي وهو يتحرّك على الشاطئ الأبيض.

* * *

رفيقنا في السفينة



الدرج الكبير في قصر
مينوس في كنوسوس

تمثال برونزي للسفير آرثر إيفنز
في كنوسوس



عدنا بالسيارة إلى فيلاً آريانده Villa Ariadne؛ وذات مساء، بعد عدة أيام، وبعد تناول طعام غداء الوداع في كانديا Candia، ركبنا وروزالين على متن سفينة صغيرة أخرى في المرفأ. كان الليل عاصفاً؛ وعلى الدوام هناك شيء يشعُر بالوحدة واليأس عند مغادرة حمى المرفأ في ليلة قاسية، كنّا نتحرّك بعيداً عن المنازل المضياء وعن جانب الرّصيف، لندخل في عمق الظلام المضطرب الهائل، وبتنا نشعُر الآن بحزن لكل ما فارقناه، ولا تزال الأصوات حيّة في آذاننا، والصُحبة الحلوة، والفكاهات التافهة، والجمال المطلق الذي انطلقنا عبره، والروائح العطرة الوافرة للأرض والأزهار والبحر، وسحر الأرض الجميلة القديمة كلّ ما زال حياً في داخلنا. قصّدتنا قمراتنا بحزن، وتجهّزنا لمساومة ليلة سيئة، ولكن بطريقة ما هدّدتنا البحر الهائج بسرعة إلى النوم، وصحونا لتجد يوماً هادئاً مشرقاً.

كان الأفق الجنوبيّ فارغاً، وامتدّت جبال كريت الأرجوانيّة في مكان ما وراء تلك المسافة الزرقاء والتي سنظلّ مشتاقين إليها لسنين قادمة، ولكنني أعلم أنّه حتّى في ذلك الوقت سيظلّ شيئاً من سحرها في داخلي إلى الأبد، وربّما سأعود يوماً ما. ربما أنّ الحياة لا تبتعد دائماً عن السعادة بخطّ مستقيم كما وجدنا عند صحونا هذه السفينة الصغيرة تفعل، وهي تبتعدُ مخلّفة وراءها زبداً أبيض مغبراً اختلطَ بلون حجر اليشم الأخضر على المياه السوداء المزرقّة.

استدّرتُ بعيداً، ونظرتُ إلى الأمام، فرأيتُ رأساً صغيراً على الجانب الأيمن، وإلى الأمام قليلاً ارتفعتُ جزيرة خضراء فوق البحر تومضُ في شمس الصّباح الباكر. لقد كانت جزيرة ميلوس Milos؛ وتحركتُ عندي ذاكرةُ سنة خلت. مرةً أخرى ها أنا ذي أقربُ من جنوب البرّ الرئيس لليونان، ومرةً أخرى أنسابُ عابرةٍ واحداً من مراكزها الهادئة المرحبة.

لم أسافرُ أبداً بعيداً عن السعادة، لكنني ببساطة قمّتُ بدوريّة كاملة.

* * *



جون مع الحارس الكريتي
في تيلستوس



رياضي كريتي يتشقلب
فوق ظهر الثور



البرّ اليوناني عند الفجر
دورة كاملة

فهرس

5	سلسلة رواد المشرق العربي
7	هذا الكتاب
19	شكر وتقدير
21	الفصل الأول
47	الفصل الثاني
69	الفصل الثالث
91	الفصل الرابع
113	الفصل الخامس
139	الفصل السادس
171	الفصل السابع
195	الفصل الثامن
225	الفصل التاسع
233	الفصل العاشر

مدينة في الرمال

(قصة اكتشاف حاضرة إشنونا السومرية)

تروي لنا هذه الأثرية البريطانية الشابة ماري تشب في هذا الكتاب الشائق قصة اكتشاف حاضرة إشنونا السومرية التابعة لحضارة أوروك، في أواسط العراق فيما يُعرف الآن بمحافظة ديالى. تمّت البعثة تحت إشراف المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو بدءاً من عام 1929 ودامت ست سنوات بقيادة نخبة رفيعة من علماء الآثار والنقوش واللغات القديمة، وكانت لجهودها العلمية نتائج باهرة لقيت كل اهتمام من الدوائر العلمية ما قبل الحرب العالمية الثانية. وتخبرنا تشب بأسلوب ممتع وتفاعلي حافل بالمشاعر الشخصية أنباء العثور على الكثير من اللقى الأثرية، من التماثيل والنقوش القديمة التي أسهمت في جلاء وجه عالم الشرق الأدنى القديم.

السعر 55 درهماً



الوطني للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE